أحمد عبد الجواد الدومي

أحمد بن حنبل

بين

محنة الدين ومحنة الدنيا

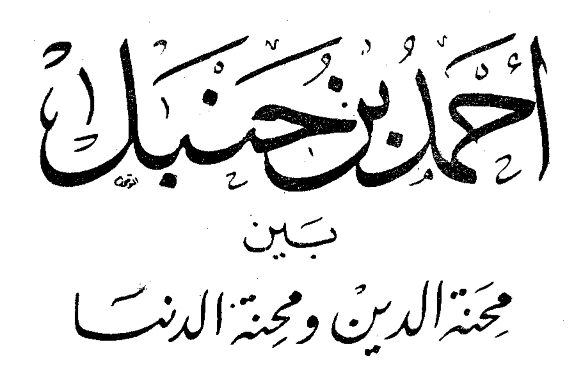
وهو بحث تحليلي عن المحنة القاتمة التي عاناها الإمام
أحمد زهاء خمسة عشر عاما تقريبا ، مع بيان منهاج الامام
ومنهاج المعتزلة وقد انفرد البحث بنشر النص الكامل
لمخطوطة أبي الفضل صالح بن الإمام أحمد عن محنة الإمام أحمد

[الطبعة الأولى]

١٩٦١

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص.ب ٥٧٨

أحمد عبد الجواد الدومي



بين

محنة الدين ومحنة الدنيا

[وهو بحث تحليلي عن المحنة القاتمة التي عاناها الإمام أحمد زهاء خمسة عشر عاما تقريبا ، مع بيان منهاج الإمام ومنهاج المعتزلة . وقد انفرد البحث بنشر النص الكامل لمخطوطة أبي الفضل صالح بن الإمام أحمد عن محنة الإمام أحمد]

[الطبعة الأولى]

١٣٨٠ هـ

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص . ب ٥٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ . آمِينَ .

(صدق الله العظيم)

« الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً ، وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » .

(صدق الله العظيم)

إذا سكت العالِم تَقِيَّةً والجاهل يَجْهل فمتى يظهر الحق ؟ ؟

«أحمد بن حنبل»

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ونحمد الله سبحانه ، ونبرأ من حولنا وقوّتنا إلى حوله وقوّته ، ونصلى ونسلم على رسول الله وآله وأصحابه ، ونستفتح بالذى هو خير .

هـذا بحث تحليلى عن محنة الإمام أحمد بن حنبل ، أقدّمه لقرّاء العربية فى العـالم الإسلامى ، بعـد أن عشتُ فى هذه المحنة فترةً من الزمن . أستقصى أخبارها جُهد الطاقة ، وأتتبّعُ بواعثها ونتائجها بَذلَ المستطاع . .

ولقد شَدّ رحال فكرى وجذب عواطفى ومشاعرى ، إلى هذه المحنة إحساس خفىّ لا أعلم له سبباً ! !

إنمـا هى رغبـة قوية ملحّة لازمتنى وفرضَتْ نفسها علىّ ، فلم أستطع أن أنفذ منها ، أو أهرب من أقطارها ! .

ولم أكن ـ قبل الكتابة فى المحنة ـ أعرف الكثير عنها ، ولا عن الإمام أحمد ! .

فدفعنى ذلك إلى إجابة الرغبـة ، وإلى الاستماع للهاتف الخفىّ ، لأعلم مالم أكن أعلم ، ولأعجم عود هذا الإمام الحنبلى البغدادى ، ولأغوص بحار هذه المحنة القاتمة : فأستخرج اللؤلؤ والمرجان ، وأقدم زاداً أرجو أن يكون صالحاً ونافعاً ! !

وأصْدُقك القول : ما إن قرُبت من هـذا الضوء الوهاج ، حتى بهرنى سطوع نوره وقوة إشعاعه !

وزادنى انبهاراً أنى كلمـا دنوتُ ، ألفيتُ أن مكان الإشـعاع لا يزال بعيداً !

وأتبع الخيوط الذهبية ، فترتفع بى وتحلّق ، حتى إذا وصلتُ إلى مقام معلوم ، تضاعفت قوّتها الحرارية ، فأرجع من حيث أتيت ولمّـا أصِل إلى ما أريد ! !

فنحن إذن سنعيش مع الإمام أحمد فى هذا الـكتاب فترة من أعمق حياته وأصلبها ، وأحَدِّها عاطفـة ، وأقساها عذاباً ! ! وليس ذلك فى تاريخ الإمام وحده ! ! فإن هذه الفترة لا يطيقها إنسان معاصر ، ولم يطقها إمام غابر ، ثم جاء الفرج ، فوقف فى وجه الدنيا المقبلة ، نفس الموقف الذى واجه به المحنة القاتمة ! ! وهذا يزيدنا وثوقاً فى أنه ـ رضى الله عنه ـ لا يزال مفرداً علماً فيمن حضر ، وفيمن غبر ! .

قال على بن المدينى المحدّث الفقيه :

« إن الله عز وجلّ أيد هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردّة ، وبعمر بن عبد العزيز حين ردّ المظالم ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة » .

فإعجابنا بصبر الإمام ومصابرته ، وتقديرنا لـكفاحه وجهاده ، مولود من أول وهلة ، ويزيد ويكبر كلما تعمقنا فى المحنة ، وكلمـا تقدّم الزمن ، فلا نرى إلا أقزاما بجوار هذا العملاق الـكبير !

* * *

وقد فرض علينا منهاج البحث أن نتكلم كلمة موجزة عن المعتزلة بصفة عامة ، وعن أصل التوحيد ومعنى خلق القرآن عندهم بصفة خاصة . ودعانا ذلك إلى أن نقرأ ما كتبه الجاحظ فى تأريخ هذه المحنة ؛ فهاجنا ما وجدناه فى كلامه ، فلمناه !! ثم ختمنا البحث عن المحنة بفصل تكميلى عن حياة الإمام أحمد ونشأته ، فى إيجاز واختصار ، ليكون بمثابة اللّبنة المكملة ، والموجز للأنباء العريضة .

ولا ينتظر القارئ منا فى هذا الكتاب بحثاً فقهياً أو أصوليًّا ، يتعلق بمذهب الإمام أحمد وفقهه ، ولماذا لم ينتشر مذهبه ؟ وما هى خواص الفقه الحنبلى ومصادره !؟ فقد كفل لنا ذلك وأوضحه الأستاذ الشيخ أبو زهرة فيما كتب عن الإمام أحمد !! إنما هى الإلماعات السريعة ، واللمحات الخاطفة فى هذا الميدان !!

ولقد دعانا الكلام عن محنة الإمام أحمد ، إلى إيراد تفسير لغوى للمحنة ، وكلمة عامة عنها ؛ متى بدأت على الأرض ؟ وهل هى ضرورية فى عالم الإنسان ؟ وكيف تستقبل النفوس محن الأيام ، ومصائب الزمان !!؟

وهذا فصل لم نُسبق إليه - فيما نعلم - فيمن كتبوا عن محنة الإمام أحمد .

وقد وفقنى الله سبحانه للعثور على مخطوطة نادرة وقيمة لأبى الفضل صالح بن الإمام أحمد عن الإمام أحمد ، وهذه المخطوطة من دار الكتب ، فخثت الخطا ؛ وضاعفت المجهود لقراءتها وتحقيق

كلمـاتها ، وفتح مغاليقها ـ على قدر ما تسمح به طاقتى ـ ثم أثبتها فى آخر الـكتاب ، لتـكون الوثيقة التاريخية الهـامة ، والمرجع النادر الفريد . ! وعلقت عليها تعليقات موجزة جداً ؛ لأن بساط البحث فى حاجة إلى هذا الطىّ والإيجاز ! ! وقرأت فيما قرأت كتاب الصلاة للإمام أحمد ، فأعجبنى حسن ترتيبه ، وجمال أحاديثـه ، ووجدته يعالج كيفية الصلاة وما يتعلق بها ، علاج الإمام الفقيه الورع المحدّث ، فأثبتها كلّـها بعد المخطوطة ، تعميما للنفع ، ورجاء الخير ...

ومن يرد الله به خيراً يُفَـقِّـهْهُ فى الدين .

* * *

هذا :

ولا تزال المحنـة الحنبلية فى حاجة إلى من يسبر غورها ، ليأتى بجديد ! ! فهى كالبِـكر المخدَّرة والجوهرة المـكنونة ! !

والله أسأل أن يرزقنا السداد والحـكمة وفصل الخطاب ، ومن يؤت الحـكمة فقد أوتى خيراً كثيرا .

وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وعلى الله قصد السبيل ؟

القاهرة فى شوال ١٣٨٠ — أحمد عبد الجواد الدومى

شهادات من الفقهاء والمحدثين

﴿ ١ ﴾

قال ابن المديني :

« إن الله عز وجل أيد هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة ، وبعمر ابن عبد العزيز حين رد المظالم ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة » [(١)]

﴿ ٢ ﴾

وروى حرملة عن الشافعى أنه قال :

« خرجت من بغداد ، وما خلّفت بها أفقه ولا أورع ولا أزهد ولا أعلم من أحمد »

﴿ ٣ ﴾

وقال أبو ثور :

« لو أن رجلا قال إن أحمد بن حنبل من أهل الجنة لما عُنّف على ذلك لأنه لو قصد رجلٌ خراسان ونواحيها لقالوا : إن أحمد بن حنبل رجل صالح . !

ولو قصد العراق ونواحيها لقالوا : إن أحمد بن حنبل رجل صالح .

ولو قصد الشام ونواحيها لقالوا : إن أحمد بن حنبل رجل صالح .

فهذا إجماع .

ولو عنف هذا على قوله لبطل الإجماع »

﴿ ٤ ﴾

قال ابن القيم :

« وجمع الخلّال نصوصه ـ الإمام أحمد ـ فى الجامع الكبير فبلغ نحو

---

(١) لم نخرّج هذه الشهادات اعتماداً على المراجع العامة التى ذكرناها آخر الكتاب ولأن أكثرها سيأتى فى ثنايا الكتاب .

عشرين سفراً أو أكثر ، ورويت فتاواه ، ورسائله فكانت قدوة لأهل السنة على اختلاف طبقاتها حتى إن المخالفين لمذهبه بالاجتهاد ، والمقلدين لغيره ليعظمون نصوصه ، وفتاواه ويعرفون حقها ، وقربها من نصوص وفتاوى الصحابة ، ومن تأمل فتاواه ، وفتاوى الصحابة ـ رأى مطابقة كل منهما على الأخرى ، ورأى كأن الجميع يخرج من مشكاة واحدة »

﴿ ٥ ﴾

كان الشافعى يقول للإمام أحمد :

« إذا صح عندكم الحديث فأعلمنى به أذهب إليه حجازيا ، أو شاميا ، أو عراقياً ، أو يمنيًّا »

﴿ ٦ ﴾

وقال قتيبة :

« خير أهل زماننا ابن المبارك ثم هذا الشاب : يعنى « أحمد بن حنبل »

﴿ ٧ ﴾

وروى الدارقطنى عنه أنه قال :

« مات الثورى ومات الورع . ومات الشافعى وماتت السنة ، ويموت ابن حنبل ، وتظهر البدع »

﴿ ٨ ﴾

وقال يحي بن معين :

« أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل .. لا والله ! ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ، ولا طريقة أحمد ! »

﴿ ٩ ﴾

وقال الهيثم بن جميل :

« إن لكل زمان رجلا يكون حجة على أهله ولقد كان الفضيل بن عياض حجة أهل زمانه ، وأظن هذا الفتى ـ يقصد الإمام أحمد ـ إن عاش سيكون حجة على أهل زمانه .

﴿ ١٠ ﴾

وقال مصعب الزبيرى :

« ومن فى ورع أحمد وعبادة أحمد يرتفع على جوائز الخلفاء حتى يُظن أنه الكِبْر ، ويكرى نفسه مع الجمّالين حتى يظن أنه الذل ، ويقطع نفسه عن مباشرة عامة الناس وغشيان خاصتهم أُنساً بالوحدة ، فلا يراه الرائى إلا فى مسجد ، أو عيادة مريض ، أو حضور جنازة ؛ ولم يقض لنفسه بعض ما قضيناه من شهوات !! » .

رضى الله عنك أيها الإمام الجليل . .

كلمة عامة

قال : أبو نعيم فى كتابه «حلية الأولياء» حدثنا أبو على عيسى بن محمد الخريجى حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب النحوى قال :

كنت أحب أن أرى أحمد بن حنبل فدخلت عليه فقال : فيم تنظر ؟ فقلت له فى النحو ، والعروض ، وأنشدنى أحمد بن حنبل :

إذا ماخلوتَ الدهر يوما فلا تقل * خلوتُ ! ولكن قل علىّ رقيب
ولا تحسبنّ الله يُغْفل ما مضى * وأن الذى تخفى عليه يغيب
لهونا عن الأيام حتى تتابعت * ذنوب على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى * ويأذن لى فى توبة فأتوب

* * *

وجاء فى الحلية أيضا :

« حدثنا سليمان بن أحمد عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : كان أبى يصلى فى كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته فكان يصلى فى كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة وقد كان قرب من الثمانين وكان يقرأ القرآن كل سبعة أيام » !

هذا هو الإمام أحمد بن حنبل الذى سنتحدث عنه فى هذا الكتاب بهذا المنهاج الذى اختاره هو لنفسه واصطفته الأقدار له !!

ولقد كان كل ما حول الإمام أحمد من بيئة ذات سيادة وعناصر وراثية ذات قيادة تشدّه شدًّا ، وتحمله حملا إلى أن يكون واليا من الولاة ، أو قائدا من القوّاد أو جنديا من الجنود الغزاة .

فقد انحدر الإمام أحمد من قبيلة عربية أصيلة غير أعجمية ولا مهجنة ، وقد التقى نسبه الشريف مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجد الأعلى نزار ابن معد بن عدنان .

فهو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حسان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكاشة بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هُنَّب بن أقصى ابن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معَدّ بن عدنان . بن أدد بن الهميثع بن النبت بن قندر بن إسماعيل بن إبراهيم (١) .

وكانت أم أحمد شيبانية أيضا ، واسمها : صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيبانى من بنى عامر .

وقبيلة شيبان هذه قبيلة عرفت بالشجاعة ، والنجدة ، والصبر فى الحروب وقوة الاحتمال فى المعارك حتى ضرب المثل بها فى العدد الكثير ، والفخر بأبطالها ، والمقاومة العنيفة فى جميع الميادين . كان جدُّه واليا على (سرخس) فى العهد الأموى . ودفعته قوته الشخصية إلى أن يخرج على الأمويين ، ويدعو للعباسيين حينما لاح نجمهم فى الأفق .

وكان أبوه جنديا من جنود الحرب بل وصفه ابن الجوزى عن الأصمعى أنه كان قائدًا .

وكذلك كان أبو أمه شجاعا من الشجعان المهرة ، وبطلا من الأبطال المغاوير ، وكريما من الكرماء الأسخياء قد فتح بابه لاستقبال الغرباء ، ومدَّ يده لنجدة الضعفاء وكل هذا يجعل الإمام أحمد ـ كما قلنا ـ يطمح إلى المنزلة العالية فى الدنيا والجاه العريض بين الناس ، والمناصب الرفيعة فى الدولة العباسية .

---

(١) من مخطوطة صالح التى سننشرها فى آخر الكتاب مع زيادة (ابن إدريس) من مصادرنا الأخرى .

ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك كله ، ولم يطمح إلى شىء منها بل كان على العكس يفرّ من بوارقه ، ويزهد فى حقائقه منذ كان صغيرا وإلى أن لقى ربه .

لقد أرسل معه عمه أوراقا إلى ديوان الخليفة فغاب أحمد طويلا دون أن يرد على عمه وَسِنّه عند ذلك صغيرة .

فلما قابله عمه سأله عن الأوراق فعرف أنه لم يوصلها فسأله لماذا لم توصلها ! فأجاب أحمد الغلام :

«ما كنت لأرفع تلك الأخبار لقد ألقيت بها فى البحر فجعل عمه يسترجع ويقول . هذا غلام يتورع ! فكيف نحن [1] ؟» .

☆ ☆ ☆

ولقد تعمقنا فى حياة الإمام أحمد ، ونشأته ومظهره ، وعرفنا الخطوط التى سارت عليها تربيته الأولى فى صغره وتربيته هو لنفسه بعد رشده وكِبَره فوجدنا أنه قد أخذ نفسه بالشدة التى لا تعرف الهوادة ، وراض جسمه على التعب الذى لا يعرف الراحة ، وطبع هواه بطابع الإيمان الذى لا يألف النفاق ولا الغموض والتزم فى محنته ومنحته التقشف الذى لا يعرف بالترف ، وبالورع الذى يتعفف عن كثير من الطيبات وكان دليله فى ذلك كله : الأدب المحمدى العظيم :

« ثلاث من كنّ فيه فقد جمع خير الدنيا والآخرة : الكفاف ، والقناعة ، والورع» .

ولقد تطبع الإمام أحمد على هذا بادئ الأمر حتى أصبح له طبعا فى آخر حياته .

---

(١) المناقب لابن الجوزى .

وكنت أقرأ حكمة لعمر بن عبد العزيز قالها بعد ما طلب منه أصحابه أن يتفرغ لهم قليلا من وقته ليزاولوا نوعا من اللهو البرىء ! واللعب المباح فقال لهم :

« ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله عز وجل » .

كنت أقرأ هذه الحكمة وأسأل نفسى : أى شخصية تطبق هذا المنهاج وتعبُر هذا الجسر الصلب العنيف دون أن تتوقف أو تتلكأ فلما قرأت سيرة الإمام أحمد وجدت فيها الجواب على السؤال فقلت كما قال الله عز وجل : « من المؤمنين رجال » : الأحزاب

قال أبو زرعة :

« ما رأت عينى مثل أحمد بن حنبل . فسأله بعض من حوله فى العلم ؟ فقال : فى العلم والزهد والفقه، والمعرفة وكل خير . ما رأت عينى مثله »[1]

« ولقد بلغ من تقشفه ما روى عنه أنه لم يشتر فى حياته رماناً قط ، ولا سفرجلا ، وكان يأكل البطيخ بالخبز وكثيراً ما كان يستغنى عن الخل عند ما يأكل الخبز »[2] .

« ومرة دخل السجن ومعه سلة فيها طعام فنظر إليه إسحاق ابن إبراهيم[3] فوجد فيها رغيفين وقليلا من القثاء والملح »[4]

وكان أولاده يجدون من هذا الشظف ضيقاً وعنتاً وكانوا يخفون عنه فى بعض الأحيان ما يشترونه من بعض المباح مخافة أن يتهمهم بالتبذير والإسراف . ؟

---

(١) حلية الأولياء . (٢) تهذيب الأخبار للنووى . (٣) والى بغداد .
(٤) كتاب المقفى للمقريزى .

وأكبر الظن أن الذى دفع الإمام أحمد إلى هـذا التقتير والتضييق ليس هو الحرص على الزهادة فقط بل يضاف إلى ذلك انشغاله بالعلم ، والفقه ، والحديث ، والعبادة ؟ ذلك الانشغال الذى استولى على مشاعره وأحاسيسه جميعاً فجعله لا يفكر فى شىء يتصل بمأكل أو مشرب بل كان همه كله كما قال أبو سعيد الخراز :

« كل ما فاتك من الله سوى الله يسير
وكل حظ سوى الله قليل »

وهكذا كان الإمام أحمد بن حنبل .

* * *

قال الحافظ الذهبى يصف الإمام أحمد :

« هو عالم العصر ، وزاهد الوقت ، ومحدث الدنيا ، ومفتى العراق وعالم السنة ، وباذل نفسه فى المحنة ، وقل أن ترى العيون مثله ، كان رأسا فى العلم والعمل والتمسك بالأثر ، ذا عقل رزين ، وصدق متين ، وإخلاص مكين وخشية ومراقبة للعزيز العليم ، وذكاء وفطنة وفهم وسعة علم .

هو أجل من أن يمدح بكلمى وأن أفوه بذكره بفمى كان ربعة من الرجال أسمر وكان طويلا يخضب بالحناء وفى لحيته شعر أسود ويلبس ثياباً غليظة ، ويتزر ويعتم تعلوه سكينة ووقار وخشية رضى الله عنه » .

ولهذا كان ابن حنبل حديث الخاصة والعامة ، فى عصره وبعد عصره ، وكان كل طائفة من الناس يتحدثون عنه بما يحبون فيجدون فيه ما يروق مزاجهم ، وما يملأ أفئدتهم بالتقدير والإجلال .

فالزهاد فى الحياة الدنيا وترفها ومتاعها يجدونه يسوى بين كسرة الخبز واللحم الشهى ، ويعدل بالعريض من الجاه البسيط من مظاهر الحياة !!

فينكبون على حبه ، ويقفون أنفسهم على الاقتداء به .

والصوفية يجدون فى الإمام أحمد أصول التصوف الصحيح التى تفرقت فى الكتب والتى لم تجتمع إلا فى كبارها فيقدرونه ويعجبون به ، وإن وجدوا منه حربا شعواء على بدع الصوفية وشطحاتهم وتزيّداتهم والمتمسكون بالسنة يتخذون ابن حنبل قدوة لهم ويجعلونه فى قمة الهرم !.

فقد كان بحق (ابن عمر) القرن الثالث الهجرى ورعاً واتباعاً لآثار النبي صلى الله عليه وسلم فى كل صغير وكبير حتى إنه رضى الله عنه لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم تسرى بمارية اتخذ هو سرية يقال لها « حِسْن » وقد ولدت له سعيداً ومحمداً والحسن وبنتاً سميت زينب وأخرى سميت فاطمة وتوأمين أسمياهما : الحسن ، والحسين ـ كما جاء فى كتاب المقفى للمقريزى ـ وقد روى عنه أيضاً فى أيام الاختفاء وقت المحنة أنه كان لا يختبئُ أكثر من ثلاث ليال فلما سئل عن ذلك قال « لأن النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى الغار لم يزيدا على ثلاثة » .

ومما زاد فى مجد الإمام أحمد وعلو شأنه عند أهل السنة أنه آلت إليه القيادة وجاءت إليه منقادة تجر أذيالها بعد موت الإمام الشافعى سنة ٢٠٤ ﻫ ، وكان خير خلف لخير سلف .

وطلاب الحديث يُلفون فى الإمام أحمد الطالب الدءوب الذى يسير من بغداد إلى الشام ، وإلى صنعاء باليمن راجلا راضياً مطمئناً ليسمع من عبد الرزاق ـ المحدث المشهور ـ وغيره وكل همه أن يملأ وطابه من الهَدْى المحمدى ، وأن يغذى وجدانه وعقله من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال أبو الحسن اللنبانى سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمه الله

تعالى يقول : « كتب أبي عشرة آلاف ألف حديث ولم يكتب سواداً فى بياض إلا قد حفظه » .

وكتابه المسند الذى سنتحدث عنه خير دليل على ثبت علمه، (وصدق حديثه) ، ووفرة طاقته وسعة باعه ،وطول مكثه . سار مرة من بغداد إلى الشام ليسمع من محدث مشهور هناك فلما ذهب إليه وجده يطعم كلباً . فحياه ، وجلس واستمر المحدث فى إطعامه للكلب زمناً أحفظ[1] الإمام وضايقه ، فلما انتهى المحدث من إطعامه الكلب التفت إلى الإمام وقال له : لعلك وَجِدت على فى نفسك قال الإمام أحمد : نعم . قال المحدث :

« إنه ليس بأرضنا كلاب وقد قصدنى هذا الكلب ورجانى أن أطعمه وأسقيه ، فعلمت أنه جائع وظمآن فأطعمته وسقيته وأجبت رجاءه لأنى سمعت من أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة » فابتسم الإمام أحمد وقال :

يكفينى هذا الحديث ورجع ماشياً إلى بغداد ! !

والثابتون على الحق الممتحنون فيه ، المضطهدون فى سبيله ، لو شرقوا وغربوا وأنجدوا وأتهَمُوا واشأموا وأعجموا ليبحثوا عن عملاق قاوم المحنة فى شموخ وتفاداها فى يقين وارتطم بها فى احتساب فلن يجدوا فى هذا المضمار مثل الإمام أحمد .

ذلك الرجل الذى تعاقب عليه طغيان المأمون والمعتصم والواثق ومكر ابن أبى دُوَاد ، وشدة المعتزلة قرابة خمسة عشر عاما يقلبونه على الشوك .

(١) أثار نفسه وأغضبه .

ويضربونه على اللحم ، ويحبسونه مع المجرمين ، ويعزلونه عن الجمعة والجماعة ، والدعوة إلى الله ، فلا يفزع ولا يضطرب بل يقول ما قاله خُبَيْب . .

ولست بمبد للعـــدو تخشعاً   ولا جزعاً إنى إلى الله مصرعى . . .

وحفّاظ القرآن يجدون فى ابن حنبل مرتلا للقرآن بنغم جميل ، وخاشعاً لجلاله بقلب صقيل . وحكيما يستنبط الحكم الدقيق ، والمعنى البعيد ، بأيسر من اليسر ، وأسهل من السهل .

وسنجد فى المناظرة التاريخية التى جرت بينه وبين علماء المعتزلة مصداق هذا الحكم ، ودليل هذا الكلام .

والمتهجدون بالليل والناس نيـام « الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً . . » . يجدون فى الإمام أحمد ظلا ظليـلا ، وجاذبية جاذبة ، وقائما ضارعا رفيقاً ، ووجدانا صافياً رقيقاً . إنه وجـدان تغذى من نور الله فصفا ، واشتعل بحب الله فأنار ، وتعمق فى بحر الكون فتلألأ ، ولمع فى ثناياه سنـا الحق فهدى ، وجمع فى زواياه منهاج الشريعة فاتّزن . فهل يستغنى المتهجدون عن هذا الظل الظليل ، والنسيم البليل .

والدعاة إلى الله يجدون فى الإمام أحمد الرائد الرشيد ، والهادى المنير ، يجدون فيـه فقه الدعوة ، وصبر الداعية ، وطهارة الذيل ، وعفة النفس ، ونصاعة السلوك .

فهو بحق من التائبين العابدين الحامدين السائحين الراكعين الساجدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والحافظين لحدود الله .

وكذلك أو أكثر يجد فيه العلماء والفقهاء المجتهدون والمحدثون .

كان الإمام أحمد ممثـلا لمدرسة النص ، واتباع الحديث مطالباً بأن

يتقيد العقل البشرى بمفهوم النص لأن طاقته محدودة . ومداه محصور . وكان المعتزلة يمثلون مدرسة الرأى ، ويخضعون النص للعقل .

وكان لا بد للمدرستين أن يختلفا ، وللشعارين أن يبتعدا ، وكان أبرز ما اختلفوا فيه مسألة ـ خلق القرآن وأعلن ابن حنبل رأيه فى حلقات درسه أو بين أبنائه وتلاميذه . وفرض المعتزلة رأيهم بقوة السلطان على الشعب حتى كانوا يلقنون الأطفال فى الكتاتيب أن القرآن مخلوق ، وسخروا جميع إمكانيات الدولة لذلك ، والإمام أحمد يسير فى طريقه ودعوته هادئ الخطى ، مطمئن البال ، خافض الجناح ، لا يتزحزح ، ولا يتهور ولا يتململ .

لم يكن معه جاحظ ينطق باسمه كما كان مع المعتزلة جاحظهم الأريب الأديب ، ولكن دعوته ملأت آفاق الخلافة واستولت على قلوب العامة والخاصة حتى إن مجوسيتين اختصمتا لدى قاض مسلم فى خراسان فحكم القاضى لواحدة على الأخرى فقالت المحرومة : « إن كان حكمك على مذهب الإمام أحمد فقد رضيت » ! !

وبذلك كله كان الإمام أحمد مثلا يُحتذى ، وقدوة يتأسى بها فى عالم العلماء والخاصة ، قبل أن يكون فى عالم الدهماء والعامة !

ولذلك كله نقدم هذه الشخصية إلى الناس فى خشوع وإكبار وإعظام ، وإعجاب .

شخصية واضحة أو مفتوحة

أهم ما تتميز به شخصية الإمام أحمد :

(١) الوضوح (٢) الورع (٣) الصلابة فى الحق ! !

ولكل عنصر من هذه العناصر الثلاث تاريخ محفور فى هذه الشخصية الرائعة الجليلة ! !

ولعل نشأة الإمام أحمد هى التى أضفت عليه هـذه الصفات البارزة فيه ، الغالبة عليه ! !

فلم ينشأ الإمام أحمد فى بيت سلطان تحاك فيـه المؤامرات وتدبر فيه المكائد ! !

ولبيوت « السلاطين » فى كل زمان لغة لا تعرف الحق الصريح ولا الكلام المكشوف ! !

ولم ينشأ الإمام أحمد فى بيت غنى فيعيش عيش الأغنياء، ويتصرف تصرف أصحاب البذخ والثراء ! !

ولم ينشأ فى عُدْم يقهر نفسه ، ويكسر عوده ، ويُلين عظـامه ! !

بل تجمعت فيـه عناصر العروق العربية الشيبانية مع عناصر النشأة الخشنة والتربية القوية ، وتفاعل ذلك كله مع مبادئ الإسـلام الصافية الأصيلة ! ! فأنتج لنـا :

أحمد بن حنبل الواضح ، الصريح ، الورع ، الصلب فى الحق !

يأتى ذلك كلّه طواعية واختياراً ، وفطرة ، واصطباراً . . وبذلك كانت شخصية الإمام الجليل ، شخصية مفتوحة ، لا تعرف غموضاً ولا التواء ! ولا تحرجا ولا ترددا ! !

تحرص على أن تعامل ربها فى الشدة كما تعامله فى الرخاء ، فتصلب وتلين ، حيث يكون الصلب واللين فى صالح الإسلام ، قبل أن يكون فى صالح الإمام !

وقليلا ما نجد وضوحاً أو ورعاً يقرب من ورعه، أو صلابة تذهب ذلك المذهب ! !

وأقل من القليل أن تجتمع هذه العناصر بالذات فى شخصية واحدة !

ولكن إيمان الإمام أحمد كان أمًّا رءوما، وثديا حنونا يغذى هذه التوائم الثلاث غذاءً وافياً شافياً ! فوجد الورع ما يرعرعه، ووجد الوضوح مايزهره، ووجدت الصلابة ما يقوى عودها، ويعمق جذورها، فكانت كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه حتى أنبتت الشجرة الحنبلية فى ذلك الحقل، أو من ذلك الحقل، عجباً عُجاباً، وثمراً مستطاباً !

أنظر : هذه المحنة تُقبل فيقابلها الإمام بوضوحه فلا يقبل التَّقِيَّة ؛ وبورعه فلا يحقد على الذين ضربوه أو آذوه، وبصلابته فلا يرجع عن الحق كائناً ما كان العذاب، ولا يضعف وإن كلَّ جسمه، وخارت قواه !!

قال إبراهيم بن مصعب الشرطى : (١)

« ما رأيت أحداً لم يداخل السلطان، ولا خالط الملوك . أثبت قلباً من أحمد يوم المحنة ! ! »

وأخبر أبو العباس الرقى : أنهم دخلوا على الامام أحمد وهو فى السجن فجعلوا يذاكرونه ما يرونه فى التقية من الأحاديث فقال الإمام : كيف تصنعون بحديث خباب : « إن من كان قبلكم كان ينشر أحدهم بالمنشار . ثم لا يصده ذلك عن دينه ! »

قال فيئسنا منه ؟ (٢)

(١و٢) من كتاب جلاء العينين لابن الألوسى .

وقال عبد الله بن أحمد :

قرأت على أبى « أحمد » إن لله عز وجل باباً فى الجنة لا يدخله إلا من عفا عمن ظلمه !

فقال الإمام : يا بنى ما خرجت من دار إسحاق ـ الدار التى ضرب فيها ـ إلا أحللته ومن معه إلا رجلين : ابن أبى دُوَاد ، وعبد الرحمن بن إسحاق فإنهما طلبا دمى وأنا أهون على الله عز وجل أن يعذب فىَّ أحداً « أشهدك أنهما فى حل »[1]

من هذا كله نعلم كيف تمكنت هذه العناصر فى شخصية الإمام أحمد تمكنا لم يجتمع لأحد غيره إلا فى مفردات التاريخ .

ونحب أن نسجل هنا النص الكامل لرسالة الإمام أحمد بن حنبل فى الرد على الجهمية والزنادقة ، وهى الرسالة التى كتبها إلى مسدد بن مسرهد ابن مسربل ، كدليل على وضوح الإمام وورعه وصلابته ، وكمدخل هام يوصلنا إلى ما نريد الكلام فيه .

---

(١) جلاء العينين ص ١٣٨ لابن الألوسى .

النص الكامل

لرسالة

الإمام أحمد بن حنبل

فى

الرد على الجهمية والزنادقة

قال القاضى أبو الحسين محمد بن القاضى أبى يعلى محمد بن الحسين الفراء المتوفى سنة ٥٢٦ ـ فى طبقات الحنابلة فى ترجمة مسدد بن مسرهد بن مسربل ·

أنبأنا : على بن البسرى عن ابن بطة حدثنى على بن أحمد المقرى المراغى ـ بالمراغة ـ حدثنا محمد بن جعفر بن محمد السونديني حدثنا على ابن محمد بن موسى الحافظ ـ المعروف بابن المعدل ـ حدثنا أحمد بن محمد التميمى الزرندى قال : لما أشكل على مسدد بن مسرهد بن مسربل أمر الفتنة ، وما وقع الناس فيه من الاختلاف فى القدر ، والرفض ، والاعتزال ، وخلق القرآن ، والإرجاء : كتب إلى أحمد بن حنبل : اكتب إلى بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما ورد كتابه على أحمد بن محمد بن حنبل : بكى وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . يزعم هذا البصرى : أنه قد أنفق على العلم مالا عظيما ، وهو لا يهتدى إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كتب إليه ·

« بسم الله الرحمن الرحيم » :

« الحمد لله الذى جعل فى كل زمان بقايا من آل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، وينهونه عن الردى ، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى ، وبسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهل الجهالة والردى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن آثارهم على الناس ، ينفون عن دين الله عز وجل تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الضالين ، الذين عقدوا ألوية البدع ، وأطلقوا عنان الفتنة ، يقولون على الله وفى الله ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ وفى كتابه : بغير علم · فنعوذ بالله من كل فتنة مضلة ، وصلى الله على محمد · أما بعد ، وفقنا الله وإياكم لما فيه طاعته ، وجنبنا وإياكم

ما فيه سخطه ، واستعملنا وإياكم عمل العارفين به الخائفين منه إنه المسئول ، ذلك :

« أوصيكم ونفسي بتقوى الله العظيم ، ولزوم السنة ، فقد علمتم ما حل بمن خالفها وما جاء فيمن اتبعها » . بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن الله عز وجل ليدخل العبد الجنة بالسنة يتمسك بها » . فآمركم ألا تؤثروا على القرآن شيئاً فإنه كلام الله عز وجل ، وما تكلم الله به فليس بمخلوق ، وما أخبر به عن القرون الماضية فغير مخلوق ، وما في اللوح المحفوظ وما في المصاحف وتلاوة الناس وكيف ما قرئ وكيفما يوصف فهو كلام الله غير مخلوق(1) فمن قال مخلوق فهو كافر بالله العظيم ، ومن لم يكفره فهو كافر(2) ! .

ثم من بعد كتاب الله : سنة النبي صلى الله عليه وسلم والحديث عنه وعن المهديين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، والتصديق بما جاءت به الرسل واتباع سنة النجاة . وهي التي نقلها أهل العلم كابراً عن كابر . واحذروا رأي جهم فإنه صاحب رأي وكلام وخصومات ، فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم : أن الجهمية افترقت ثلاث فرق : فقالت طائفة منهم القرآن كلام الله مخلوق ، وقالت طائفة : القرآن كلام الله وسكتت . وهي الواقفة الملعونة . وقال بعضهم : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة فكل هؤلاء

---

(١) لا يخطر بالبال هنا أن الإمام يريد إثبات قدم نطقنا وتلاوتنا للقرآن كما يوهمه ظاهر العبارة وإنما يعني القرآن الموجود في المصاحف من حيث كونه كلام الله لامن حيث كونه مطبوعاً أو متلواً كما سيأتي في حينه .

(٢) هكذا يذهب الإمام أحمد رضي الله عنه ، وهذا من باب : الرضا بالكفر كفر .

جهمية كفار[1] يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا ، وأجمع من أدركنا من أهل العلم أن من هذه مقالته إن لم يتب لم يُنَاكح ، ولا يجوز قضاؤه . ولا تؤكل ذبيحته :

والإيمان قول وعمل يزيد وينقص : زيادته إذا أحسنْت ، ونقصانه إذا أسأت . ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام ، ولا يخرجه من الإسلام شىء إلا الشرك بالله العظيم ، أو بِرَدِّ فريضة من فرائض الله عز وجل جاحداً بهـا ، فإن تركها كسلا أو تهاونا كان فى مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . وأما المعتزلة الملعونة : فقد أجمع من أدْركنا من أهل العلم : أنهم يُـكفِّرون بالذنب . ومن كان منهم كذلك فقد زعم أن آدم كان كافراً . وأن إخوة يوسف حين كذبوا أباهم[2] يعقوب كانوا كفاراً . وأجمعت المعتزلة : أن من سَرَقَ حبة فهو كافر تَبِينُ منه امرأته ، ويستأنف الحج إن كان حج . فهؤلاء الذين يقولون بهذه المقاله كفار ، لا يُنَاكَحُونَ وَلَا تُقْبَلُ شهادتهم وأما الرافضة فقـد أجمع من أدركنا من أهل العلم : أنهم قالوا : إن على بن أبى طالب أفضل من أبى بكر الصديق ، وأن إسلام على كان أقدم من إسلام أبى بكر فمن زعم أن عليا ابن أبى طالب أفضل من أبى بكر فقد رَدَّ الـكتاب والسنة لقول الله عز وجل (محمد رسول الله والذين[3] معه) فقدم الله أبا بكر بعد

(١) لعـل الإمام أحمد يريد أن يدرأ بهذه القسوة الصارمة دعاة الفتنة الذين احدثوا فى المسلمين فتنه خلق القرآن فبلبلوا أفكارهم وهذا من باب « الفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها » ولعل الإمام أحمد لجأ إلى الحـكم بتكفير هؤلاء جميعا لأن الحكم كان صادرا فى ظروف غير عادية .

(٢) ولعل الصواب « كذبوا على أبيهم » . (٣) على أن معنى معه (أى) فى الغار ، لـكن يعكر عليه كلمة (والذين) لانها جمع ، والصفات التى بعدها تفيد أنها نزلت فى عموم الصحابة ولو كان الإمام استشهد بقول الله عز وجل (ثانى اثنين إذ هما فى الغار) لكان أولى .

النبي صلى الله عليه وسلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذاً خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا . ولكن الله قد اتخذ صاحبكم خليلا . ولا نبي بعدي » فمن زعم أن إسلام علي أقدم من إسلام أبي بكر : فقد كذب . لأن أول من أسلم : عبد الله بن عثمان عتيق أبي بكر بن أبي قحافة وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة . وعليّ ابن سبع سنين ، لم تَجْرِ عليه الأحكام والفرائض والحدود .

ونؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره ، وحلوه ومره ، وأن الله خلق الجنة قبل الخلق وخلق لها أهلا ، ونعيمها دائم ، ومن زعم أنه يبيد من الجنة شيء فهو كافر . وخلق النار قبل خلق الخلق وخلق لها أهلا ، وعذابها دائم ، وأن أهل الجنة يَرَوْن ربهم لا محالة ، وأن الله يخرج أقواما من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الله كلم موسى تكليما ، واتخذ إبراهيم خليلا ، والصراط حق . والميزان حق ، والأنبياء حق . وعيسى بن مريم رسول الله وكلمته ، والإيمان بالحوض والشفاعة . والإيمان بمنكر ونكير[1] ، وعذاب القبر ، والإيمان بملك الموت ، يقبض الأرواح . ثم تُرَدُّ في الأجساد في القبور ، فيسألون عن الإيمان والتوحيد ، والإيمان بالنفخ في الصور ، والصور قَرْنٌ يَنْفخ فيه إسرافيل ، وأن القبر الذي بالمدينة : قبر محمد صلى الله عليه وسلم ، معه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمٰن .

---

(١) لم يأت في اسم ملكي السؤال في القبر حديث يثبت كما حقق ذلك الإمام ابن القيم .

والدجال خارج فى هـذه الأمة لا محالة ، وينزل عيسى ابن مريم فيقتله بباب لدٍّ .

وما أنـكرت العلماء من الشبهة فهو منـكر ، واحذروا البدع كلها . .

ولا عين نظرت بعد النبي صلى الله عليه وسلم خيراً من أبي بكر الصديق رضى الله عنه ؛ ولا بعد أبي بكر عين نظرت خيراً من عمر . ولا بعد عمر عين نظرت خيراً من عثمان ، ولا بعد عثمان بن عفان عين نظرت خـيراً من على بن أبي طالب رضى الله عنهم أجمعين .

قال أحمد : هم والله الخلفاء الراشـدون المهديون ، وأن نشهد للعشرة بالجنة وهم : أبو بكر وعمر وعثمان : وعلى : وطلحة والزبير ، وسعد ، وسعيد ابن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف الزهرى ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، ومن شهد النبي صلى الله عليه وسلم له بالجنة : شهدنا له بالجنة . ورفع اليدين فى الصلاة زيادة فى الحسنات . والجهر بآمين عند قول الإمام (ولا الضالين) والصلاة على من مات من أهل هـذه القبلة وحسابهم على الله عز وجل ، والخروج مع كل إمام فى غزوه وحجه ، والصلاة خلفهم صلاة الجماعة والجمعة والعيدين .

والـكف عن مساوئ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . تحدَّثوا بفضائلهم ، وأمسِكوا عما شَجَر بينهم ، ولا تُشاوِرْ أحداً من أهل البدع فى دينك ، ولا ترافقه فى سفرك ، ولا نكاح إلا بوَلِىّ وخاطب وشاهدى عدل . والمتعة حرام إلى يوم القيامة :

ومن طلق ثلاثاً فى لفظ واحد فقد جهل ، وحرمت عليـه زوجته . ولا تحل له أبداً حتى تنـكح زوجاً غيره . والتـكبير على الجنائز أربع .

فإن كبّر خمساً فكبّر معه . قال ابن مسعود : « كبّر ما كبّر إمامك » قال أحمد : خالفني الشافعي ، وقال : إن زاد على أربع تكبيرات أعاد الصلاة ، واحتجّ بأن النبي صلى الله عليه وسلم ، صلى على النجاشي ، فكبّر عليه أربع تكبيرات » .

والمسح على الخُفَّيْنِ : المسافر ثلاثة أيام ولياليهن ، والمقيم يوماً وليلة . وإذا دخلت المسجد فلا تجلس حتى تركع ركعتين تحية المسجد . والوتر ركعة . والإقامة فرادَى . أحِبُّوا أهلَ السنة على ما كان منهم . أماتنا الله وإيّاكم على السنة والجماعة ورزقنا الله وإياكم اتباعَ العلم ، ووفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه .



المعتزلة

أصولهم وكلامهم فى التوحيد ! !

معنى خلق القرآن عندهم

حدود العقل البشرى ، ومخالفتنا المعتزلة فى أن العقل هو كل شيء ! !

من هو ابن أبى دُوَاد ؟ ؟

رسالة الجاحظ ونقدها ولومه على التجريح للإمام أحمد

من حق البحث علينا أن نلمع إلماعة قصيرة إلى مذهب المعتزلة ، لكى يكون عندنا فكرة متكاملة عن موضوع البحث .

ولا نريد أن نخوض فى كل ما يتعلق بالمعتزلة من سبب تسميتهم ، ومتى نشأوا ، وكيف قاوموا المدارس الأخرى إلى غير ذلك ، فهذا كله ليس مجاله هنا ! !

وقد أُلِّفتْ كتبٌ كثيرة ـ قديماً وحديثاً ـ فى هذا المجال .

إنما نريد أن نبسط بعض البسط مبادئهم العامة ، ثم نفرد بالبسط الكلام عن رأى المعتزلة فى أمرين .

(١) التوحيد (٢) القرآن

كما أننا سنشير إلى كلام هام جاء فى رسالة الجاحظ إمام الأدب والبيان !

أصول المعتزلة

للمعتزلة أصول عامة تعارفوا عليها ، وأسموها « مبادئ » واشترطوا فى كل من أراد الانتساب إلى مذهبهم أن يحققها فى عقله ، ويقتنع بها ، ثم يطبقها فى المجال العلمى والعملى .

وقد ذكر الخياط أحد علماء المعتزلة الكبار هذه الأصول فى « كتاب الانتصار » فقال :

وليس يستحق أحد اسم « الاعتزال » حتى يجمع القول بالأصول الخمسة :

(١) التوحيد (٢) العدل (٣) الوعد والوعيد (٤) القول بالمنزلة بين المنزلتين (٥) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

وقد وسّع العلماء وأطالوا بحث هذه الأصول ، ولكن الذى يعنينا الآن هو الكلام عن التوحيد .

قالت المعتزلة كما جاء فى كتاب « مقالات الإسلاميين » للأشعرى :

« إن الله واحد ليس كمثله شىء ، وليس بجسم ، ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا بذى لون ، ولا طعم ، ولا رائحة ، ولا مَجَسَّة ، ولا بذى حرارة ، ولا برودة ، ولا رطوبة ، ولا يبوسه ، ولا طول ، ولا عرض ، ولا عمق ، ولا اجتماع ، ولا افتراق ، ولا يتحرك ولا يسكن ، ولا يَتَبَعَّض . وليس بذى أبعاض وأجزاء ، وجوارح ، وأعضاء ، وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال ، وأمام وخلف ، وفوق وتحت ، ولا يحيط به مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسة ، ولا العزلة ، ولا الحلول فى الأماكن ، ولا يوصف بشىء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهابٍ فى الجهات ، وليس بمحدود ، ولا والد ، ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات ، وكل ما يخطر بالبال وتُصُوِّرَ بالوهم فغير مشبه له ، لم يزل أولا سابقاً متقدما للمحدثات ، موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل عالما قادراً حيا ، ولا يزال كذلك ، لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار ، ولا تحيط به الأوهام ، ولا يسمع بالأسماع ، شىء لا كالأشياء ، عالم قادر حى لا كالعلماء القادرين الأحياء ، وأنه القديم وحده ولا قديم غيره ولا إله سواه ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولا معين على إنشاء ما أنشأ ، وخلق ما خلق ، ولم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خَلْقُ شىء بأهون عليه من خلق شىء آخر ، ولا بأصعب عليه منه ، ولا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولا تلحقه

للضار ، ولا يناله السرور ، واللذات ، ولا يصل إليه الأذى والآلام »

نحب أن نتعمق فى المشكلة التى (خُلقت خلقا) فى عالم العقائد وأن نبين رأيهم فى وضوح وصراحة فيما يريدونه بكلمة (خلق القرآن) ويهمنا هنا أن نسجل أن السبب الأول فى عمق المشكلة هو أن المعتزلة وصلوا المسألة مباشرة بالعقيدة ، عقيدة توحيد الله ، وصفات الله سبحانه ، وأنه لا يصح أن يكون هناك قِدَمٌ آخر لأى شىء آخر على جانب المساواة مع قدم الله عز وجل ، مهما كان هذا الشىء ولو كان هو القرآن ! !

وكانوا يذهبون فى ذلك المذهب البعيد ، ويركبون المركب الصعب ، ويؤولون كل شىء ، ويجرءون على كل شىء ، ويفلسفون كل شىء ، ويُكَفِّرُون أى عالم يخالف رأيهم ، ولا ينهج منهاجهم ! !

ماذا يريدون أن يقولوا ؟

إن المشكلة تحتاج إلى صبر لفهمها . فلنصبر فى هذه السطور ، ولنتعمق فيما وراءها .

قالت المعتزلة :

« إذا كان الله وصفاته وحدةً لا تقبل التغيير فمحال أن يكون القرآن كلام الله على معنى أنه صفة من صفاته لأنه لو كان كذلك لكان هو وذاته ، وبقية صفاته شيئاً واحداً ، ونحن نرى أن فى القرآن أمراً ونهياً ، وخبراً واستخباراً ، ووعداً ، ووعيداً فهذه حقائق مختلفة ، وخصائص متباينة ، ومن المحال أن يكون (الواحد) متنوعاً إلى خواص مختلفة ، وهذه الخواص قد تتضاد كالذى بين الأمر والنهى .

ثم إذا كان القرآن كلاماً أزلياً هو صفة من صفات الله ترتب على ذلك جملة استحالات : أولها ـ أن الأمر لا قيمة له ما لم يصادف مأموراً

فلا يصح أن تصدر (أقيموا الصلاة) إلا إذا كان هناك مأمورون بالصلاة ولم يكن فى الأزل مأمورون مخاطبون ، ومحال أن يكون المعدوم مأموراً ، والآمر من غير مأمور ، بل والكلام كله من غير مكلّم (من أحل ما ينسب إلى الحكيم) . ثانيها - أن الخطاب مع موسى عليه السلام غير الخطاب مع محمد عليه السلام ، ومناهج الكلامين مع الرسولين مختلفة ، ويستحيل أن يكون معنى واحد هو فى نفسه كلام مع شخص على معان ومناهج ، وكلام مع شخص آخر على معان ومناهج أخرى ثم يكون الكلامان شيئاً واحداً ومعنى واحداً ، أضف إلى ذلك أن الخبرين عن أحوال الأمتين مختلفان لاختلاف حال الأمتين فكيف يتصور أن تكون حالتان مختلفتان يخبر عنهما بخبر واحد ؟ !

والقصة التى جرت ليوسف وإخوته غير القصة التى جرت لآدم ، ونوح ، وإبراهيم ؛ وإذا اختلفت هذه الاختلافات استحال أن يكون الكلام صفة لله ، وهو الواحد فى ذاته وصفاته الذى لا يختلف ولا يطرأ عليه اختلاف .

ثالثها - أن المسلمين أجمعوا قبل ظهور هذا الخلاف على أن القرآن كلام الله واتفقوا على أنه سور وآيات وحروف منتظمة ، وكلمات مجموعة وهى مقروءة مسموعة ، ولها مفتتح ومختتم ، وهو معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجمعت الأمة على أنه بين أيدينا ، نقرأه بألسنتنا ، ونمسه بأيدينا ، ونبصره بأعيننا ، ونسمعه بآذاننا ، ومحال أن يكون هذا كله وصفاً لصفة الله . فالكلام الأزلى الذى هو صفة الله لا يوصف بمثل هذه الأوصاف .

هذه أدلتهم العقلية . ولهم بعد ذلك أدلة نقلية منها :

(١) أن الله تعالى يقول : (وإذ قال ربك للملائكة) ، وإذ ظرف زمان ماض ، فيكون قوله الواقع فى هـــذا الظرف مختصاً بزمان معين والمختص بزمان محدث .

(٢) يقول الله تعالى : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) وهذا يدل على أن القرآن مركب من الآيات التى هى أجزاءه متعاقبة فيكون حادثاً .

(٣) قوله تعالى : (حتى يسمع كلام الله) والمسموع حادث لأنه لا يكون إلا حرفاً وصوتاً .

(٤) أنه تعالى عبر عن القرآن بقوله : (إنا أنزلناه) ولا شك أنه لا إنزال فى الأزل .

(٥) أن القرآن نص على نسخ بعض الآيات بقوله :

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا) ، ولا يتصور النسخ إلا فى الحادث لأن القديم ليس عرضة لذلك ... الخ فقالوا : إذا استحال أن يكون القرآن وكل الكتب المنزلة قديمة ، وجب أن نقول إنها مخلوقة لله ، فكلام الله تعالى عبارة عن أصوات وحروف يخلقها الله فى غيره فتصل إلى النبي عن طريق ملك أو نحوه .

كما قال تعالى : (وما كان لِبَشَرٍ أن يكلمه الله إلّا وحْياً أو مِنْ وراء حجاب أو يرسل رسولا فَيُوحِيَ بإذنه ما يشاء)[1] .

فهذه ثلاث طرق فى الكلام ، أولاها . طريقة الوحى وهو الإلهام ، والقذف فى القلب ، كما أوحى إلى أم موسى .

---

(١) الشورى .

وثانيتها : أن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه ، كما كلم موسى ، وكما كلم الملائكة .

وثالثها : أن يرسل الأنبياء والرسل فيكلموا أممهم عن الله . قالوا والقرآن نوع من الكلام الذى يخلقه الله . وإنما سمى كلام الله لأنه خلقه الله من غير واسطة ، وهذا هو الفرق بينه وبين كلامنا ، فكلامنا وألفاظنا تنسب إلينا ، وأما القرآن فخلق الله مباشرة ، والحروف التى نكتبها فى المصحف أو ننطق بها من صنعنا وإنما وجب لها التعظيم لأنها دالة على المخلوق لله - وإذاً معنى كون الله متكلما أنه خالق الكلام وفاعله ، فإن الكلام ليس شيئاً أكثر من أن يفعل المتكلم فعلا يدل به المخاطب على العلم الذى فى نفسه ، فالله بهذا المعنى متكلم ، أى فاعل ما يدل به المخاطب على ما يريد ، والمفعول والمجعول مخلوق .

وكأن الزمخشرى أراد أن يجعل كل هذه الأدلة ويشير إليها فى خطبة تفسيره (الكشاف) إذ يقول : (الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظما ، ونزله بحسب المصالح منجما ، وجعله بالتحميد مفتتحاً ، وبالاستعاذة مختتماً ، وأوحاه على قسمين : متشابهاً ومحكماً ، وفصله سوراً ، وسَوَّرَه آيات ، وميز بينهن بفصول وغايات ، وما هى إلا صفات مبتدئ مبتدع ، وسمات منشئ مخترع ، فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ، ووسم كل شىء سواه بالحدوث عن العدم أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانه ، قاطعاً برهانه ، وحياً ناطقاً ببينات وحجج ، قرآناً عربياً غير ذى عوج)[1] ... الخ .

* * *

---

(١) ضحى الإسلام ج ٣ للدكتور أحمد أمين .

ولعلنا الآن نكون قد أخذنا فكرة واضحة عن رأى المعتزلة فى التوحيد، وعن تحديد مفهومهم فى خلق القرآن !!

وكلامهم قد يعجب أصحاب العقول كثيراً وقد يحسن عندهم رواؤه !!

ولكننا مع ذلك نأخذ عليهم التشديد فى التحديد، والتوسع فى معنى (خلق القرآن) والجرأة فى التعبير !!

وما كان أغنانا عن هذه الفلسفة جملة لولا تدخل العقل وتحكمه !!

وهذا البحث يسلمنا إلى سؤال مهم: هل العقل البشرى يستطيع أن يبحث - حرّاً - فى الله وصفاته، كيفما يشاء، وهل من حقه ذلك ...؟

يجيب المعتزلة على ذلك السؤال بكلمة «نعم» من غير قيد ولا شرط ولذلك يسمّون (العقليين) فهم يبيحون للعقل أن يحلق فى السماء والأرض، وأن يحدد صفات الله، وأن يتكلم فى ذات الله بكل ما يحفظ عليها تنزيهها وعلو مكانتها، وأن يتأول النصوص ويخضعها للعقل وأن يبحث الكُنْه، والماهية فى حرية وانطلاق، وأن يبحث فى خلق القرآن كما يشاء وأن هذا كله فى نظرهم - هو - المجال الطبيعى للعقل، دون زعم أو ادعاء !!

ويرى السلفيون غير ذلك، فالعقل عندهم يتصرف فى دائرة النص، وهو خاضع للنص لا أن النص خاضع عندهم للعقل، وأن العقل محدود الإمكانية، مثله فى ذلك كالسمع والبصر، فكما أن الأذن لا تسمع إلا فى حدود معينة، والعين لا تبصر إلا فى مدى محدود، فكذلك ينتهى العقل فى تفكيره إلى مدى معين لا يتخطاه، ولا يتعداه. فلا يصح للعقل، عند أصحاب هذه المدرسة أن يتكلم بذاته فى الله وصفاته، ولا فى خلق القرآن .. إنما يتكلم فى حدود ما ورد وشرع ويفكر فيما جاء به الشارع فقط.

وأصول السنة ـ كما فهمها الإمام أحمد ـ حددت المفاهيم للعقل ورسمت له مناهجه وشرعت التشريعات التي يجب على العقل التزامها دون تفكير أو إعمال . . .

« ومهما أشاد المعتزلة بالعقل ، ومهما رفعوا من شأنه ، فمن البديهي : أن الميدان الذى يتخبط فيه العقل تخبطا لا نهاية له إنما هو ميدان ما وراء الطبيعة ، ومن الواضح أن مذهب المعتزلة على ما فيه من روعة ، ودقة ، وجمال وعلى ما أداه من خدمات جليلة ، فى ميدان المنطق الدينى لا يقوم على أساس معقول » .

* * *

قد تقول : إن العقل ـ وهو أساس مذهب المعتزلة ومذهب العقليين عموما ـ له مقاييسه وله موازينه التى لا يتطرق إليها الخلل . إن المنطق ، القديم منه والحديث ، آلة تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى التفكير . ولقد جاهدت الإنسانية جهادا طويلا ، حتى جعلت من الاستقراء والقياس أداتين للفصل بين الهدى والضلال ، وللتفرقة بين العماية العمياء ، والصواب الأصوب ؛ فالاستقراء ، والقياس ـ إذًا ـ هما وسيلة العقل ، وهما فيصل التفرقة بين الغى والرشاد ، فمن التجنى على المعتزلة ، وعلى العقليين ـ وقد اعتمدوا عليهما ـ أن نَصِمَ مذاهبهم بمجافاتها للطريق الأقوم .

إن وجهة النظر هذه تبدو وكأنه لا غبار عليها . بيد أنها عند النظرة الفاحصة تتزلزل وتنهار .

أما أولا ؛ فلأن المعتزلة أنفسهم ، والعقليين عامة ـ مع اعتمادهم على الاستقراء والقياس ـ قد اختلفوا فرقا وأحزابا لا تحصى ، وكل فرقة أو شيعة تتبع رئيسا وصل به « استقراؤه » ووصل به « قياسه » إلى نتائج معينة

تختلف ـ فى قليل أو فى كثير ـ عن نتائج استقراء آخر ، وقياس مختلف .

وأما ثانيا : فلأن القول بأن الفكر (المنطق) يعصم الذهن عن الخطأ فى التفكير ، أو أن المنطق وسيلة التفكير الصحيح ، فكرة خرافية أكثر منها حقيقة وذلك يحتاج إلى تبيان :

إن المقاييس هى كما ذكرنا : الاستقراء ، والقياس . أما الاستقراء وهو أساس المفهومات العامة والقضايا الكلية ـ فإنه :

١ ـ مبنى كله على الحس ، إنه استقراء محسوسات ، إنه تتبع جزئيات لا تخرج عن نطاق الواقع . أما المساتير فهو برىء منها كل البراءة ، إنها لا تدخل فى دائرة اختصاصه ، فهو عاجز عن أن يخترق الحجب ليصل إلى ماوراء الطبيعة .

٢ ـ ثم إن الاستقراء : تام وناقص . والتام ـ كما يعترف المناطقة ـ لا غناء فيه ولا فائدة منه . أما الناقص ـ وهو المهم فى نظرهم ـ فإنه فى رأيهم ظنّى وهو لذلك عرضة للتغيير فى كل آونة .

كل معدن يتمدد بالحرارة . تلك قضية من قضايا الاستقراء . إنها قضية عامة شاملة ، ولكن المعادن لم تكتشف بعد بأكملها ، ومن الجائز أن يكتشف فى الغد معدن لا يتمدد بالحرارة . إنها إذاً قضية مؤقتة ظنية تتبرأ من اليقين الفلسفى .

وهكذا قضايا الاستقراء . إنها :

(١) خاصة بالطبيعة ، ولا شأن لها بما وراءها .

(٢) ظنية لا تعرف اليقين .

أما القياس :

(١) فإنه مبنى على الاستقراء ، إذ هو منطو دائما على كلية استقرائية ، وما دامت قضايا الاستقراء ظنية ـ كما رأينا ـ وميدانها المحسوسات ، فنتائج

القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسوسات .

(٢) ـ ثم إن المناطقة لا يشترطون فى مقدمات القياس أن تكون مسلمة صادقة فى نفسها وإنما يشترطون أن يسلمها المتجادلون فحسب . وقد تكون ـ كما يقول صاحب البصائر النصيرية « منكرة كاذبة فى نفسها وفى هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ونتيجته باطلة . وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟ ما قيمته إذا كان لا يعول فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم النتيجة ، وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟

ماقيمته إذا كان لايحفل بصدق النتيجة أو كذبها ؟ إنك إذا قلت : الكثير من العلم يؤدى إلى الاستقلال الفردى وكل مايؤدى إلى الاستقلال الفردى مضر بالمجتمع ، فالكثير من العلم مضر بالمجتمع . كان هذا قياساً صحيحاً فى نظر المناطقة ، وإذا قلت : الكثير من العلم يؤدى إلى التماسك الاجتماعى ، وكل مايؤدى إلى التماسك الاجتماعى مفيد للمجتمع ؛ فالكثير من العلم مفيد للمجتمع ـ كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المناطقة ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان .

(٣) ومع كل هذا فالقياس استدلال دورى فاسد ؛ ذلك أن العلم بالنتيجة فى نحو قولنا « محمد إنسان » وكل إنسان ناطق ، « فمحمد ناطق » متوقف على العلم بالنتيجة ؛ لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقية على جميع أفراد النوع الإنسانى إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد ولو كنت فى شك من ذلك لما استطعت تعميم الحكم بالناطقية على جميع أفراد الإنسان : وإذن تكون الكبرى متوقفة على النتيجة ، والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس : استدلالا دورياً فاسداً ؛ فلا يُعوَّل عليه .

(٤) وأخيراً : فالمفروض أن نتيجة القياس جديدة كل الجدة إنها استنتاج مجهول هو النتيجة من معلوم هو المقدمات . ولكن النتيجة متضمنة فى المقدمات ، إنها ليست مجهولة ، والقياس لا يؤدى إذن إلى معرفة جديدة أو إلى استنتاج مجهول من معلوم إنه إذا أردت الدقة ـ استنتاج معلوم من معلوم .

تلك هى موازين العقل ـ وهى موازين لا غناء فيها ، ولا جدوى منها . العقل إذن قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلٓهيات !

ومن هنا كانت الحكمة فى نزول الأديان ، ومن هنا كان السبب فى اقتصارها على الأخلاق . والإلٓهيات [1] . »

* * *

أن المعتزلة قد يكون لهم بعض العذر فى استعمالهم العقل حين وجدوا غلواً كبيراً من بعض المتمسكين بالنص ، والذين وصل الأمر ببعضهم إلى أن ينادى بالجبر الذى لا اختيار معه ، وبالضغط الذى لا حرية فيه ، وبالقهر الذى لا كسب فيه !!

ولكن لا عذر لهم فى أن يقابلوا غلو هذه الآراء ، بغلو أشد منه عنفاً ، وأقسى منه نتيجة !!

إن العالم الإسلامى إن تأخر بفعل آراء المغالين الجامدين الذين يلغون العقل إلغاء تاما ، فإنما قد تعرض إلى هزة عنيفة ، حين انتقل انتقالا

---

(١) مقدمة كتاب المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمود .

مفاجئاً إلى آراء المعتزلة ! !

ثم وآراء المعتزلة لم يكن فيها ولن يكون لها ضابط معين ، ولا نظام متبع ! !

على أن أمر إلغاء العقل لم يكن رأى السلف كما قدمنا . لأن السلف يبيحون للعقل أن يجتهد فى النص . وأن يثبت سلطانه فى حدود ما جاء به الشارع الحكيم . . ولكن المعتزلة قد شطوا فأطلقوا للعقل العنان فى كل شيء وأوّلوا مالا يعجبهم ومالا يوافقهم !

وهذا لا ينبغى أن يكون ملك جماعة تحكّم العقل ومن أصولها العدل .

وإذا كان المعتزلة دعاة عقل ، وحرية إرادة واختيار فلماذا يفرضون رأيهم فرضاً ، ويتوعدون من يخالفهم توعدا ! ! ذلك ما يجعلنا نقف من آراء المعتزلة وسلوكهم موقف الحذر والحيطة فى هذا البحث ، وقد وافقنا الأستاذ الدكتور أحمد أمين فى نقدنا للمعتزلة مع إنصافه لهم حين يجد مجالا للإنصاف ؟

قال : ولعل نقطة « الضعف » فيهم أنهم أفرطوا من قياس الغائب على الشاهد أعنى من قياس الله على الإنسان ، وإخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم .

فقد ألزموا الله مثلا بالعدل كما يتصوره الإنسان وكما هو نظام دنيوى وفاتهم أن معنى العدل حتى فى الدنيا معنى نسبى يتغير تصوره بتغير الإنسان ثم قال : وقد فرضوا أن البيْنِيَّة والغيرية ، والزمانية ، والمكانية ، والسببية . والمسببية ، ونحوها قوانين لازمة لكل موجود ، وهذا فى نظرى خطأ محض فهى قوانين إنسانية ، وإن تسامحنا قليلا قلنا : إنها قوانين عالمنا هذا ،

ولسنا نستطيع القول بأنها تنطبق على غير عالمنا أو لا تنطبق فإصدار حكمنا على الله على اعتقاد أنها قوانين شاملة للإنسان والله جرأة لا يرتضيها الذى يعرف قدره ، ولا يعدو طوره .

ثم قال :

وربما أخذ عليهم أنه فى سيرهم هذا وراء سلطان العقل قد نقلوا الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية ، والبراهين المنطقية ..

وهذا المنهج إذا صح أن يُقتصر عليه فى الفلسفة ، فلا يصح أن يقتصر عليه فى الدين ،

لأن الدين يتطلب شعورًا حيا أكثر مما يتطلب قواعد منطقية .

فالدين ليس كالمسائل الرياضية ، ولا كالنظريات الهندسية ، يتطلب من العقل حلها .

بل الدين أكثر من ذلك . يتطلب شعورًا يدعو إلى العمل ، وحرارة إيمان تبعث على التقوى !! ونظام المعتزلة نظام جيد التفكير ، ضعيف الروح . غلا فى تقدير العقل ، وقصر فى تقدير العاطفة ! ثم قال : ومن ناحية أخرى لم يفرقوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين شىء أجمع على إنكاره ، كالسرقة والقتل ، والزنا ونحو ذلك ، وبين شىء مختلف فيه كالقول بخلق القرآن فكان يجب أن يفرقوا بينهما . ويقرروا أن الأشياء المختلف فيها يجب أن يكون الأمر بالمعروف فيها ، والنهى عن المنكر مقصوراً على المناظرة ، والدعوة إلى الرأى فيها بالحسنى ! !

ولكنا نرى أن المعتزلة فى أيام دولتهم قد عكسوا الأمر ، وجعلوا

المسائل المختلف فيها فى العقائد فى الدرجة الأولى ، واشتركوا مع الحكومة فى فرض رأيهم بالسيف ، وجعلوا المسائل الأولى فى المنزلة الثانية ، فهو عكس للوضع الطبيعى ؛ أما أن يقيموا الدولة ويُقْعِدُوها ؛ ويقدموا القول بخَلْق القرآن على كل أمر عداه ، ويجعلوا البلاد كلها موضوع محاكمة فسوء تقدير للأمور ، وخطل فى تطبيق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (١)

* * *

ونكتفى هنا بما أوردناه عن المعتزلة ، فلعل فيه غناء لما قصدناه . ولكن البحث فى المعتزلة يجرنا إلى الكلام بإيجاز عن شخصيتين هامتين هما ابن أبى دواد والجاحظ .

فابن أبى دواد يعتبر الشخصية المقابلة للإمام أحمد فى هذا الزمان ، والجاحظ يعتبر الصحيفة المتحدثة بلسان المعتزلة .

احمد بن أبى دواد (٢)

كان أحمد بن أبى دواد من أصحاب الشخصيات القوية ، ومن علماء المعتزلة الكبار الذين تعلموا على هياج بن العلاء السلمى من أصحاب واصل ابن عطاء ! !

---

(١) ضحى الإسلام ج ٣

(٢) يهمز كثير من الكتاب « الواو » فى دواد ، ولكن ابن خلكان يرى أن دواد غير مهموزة ، وفى القاموس المحيط أن الدواد الرجل السريع ، وفى تاج العروس توكيد لهذا ، والأستاذ محمود مصطفى يذكر فى كتابه « إعجام الأعلام » خطأ من يهمز الواو ومع ذلك كله فالخطيب البغدادى يذكر ابن أبى دؤاد بالهمز دائماً

وتعمق فى مدرسة الاعتزال حتى أصبح رائدها الأول وقائدها المشار إليه بالبنان فى عهد المأمون والمعتصم والواثق ! ! أوتى من الجرأة ، وقوة التعبير ما جعله يفتتح الكلام على الخلفاء العباسيين ، على غير عادة سابقة ، وإلف معروف !

وقد كان ابن أبى دواد ـ كما سنعلم ـ الإصبع المحركة فى تأليب الخلفاء على الإمام أحمد ، وصبغ الفتنة بهذا اللون القاتم ! !

قال الخطيب البغدادى : « أخبرنا عبيد بن أبى الفتح أخبرنا أبو الحسن الدارقطنى قال : أحمد بن أبى دواد هو الذى يمتحن العلماء ويدعو إلى القول بخلق القرآن » .

وقد خلع الجاحظ ألقاباً كثيرة على أحمد بن أبى دواد ، تدل على ذكائه وسعة علمه ! !

وذكر الخطيب البغدادى عنه ما يفيد ذلك ! ! ولكن موقف ابن أبى دواد من المحنة الحنبلية يجعلنا نتوقف كثيراً فى هذه الألقاب ؟ !

وهو عربى من (إياد) نشأ مع أبيه فى الشام ، وتعلم الفقه ثم علم الكلام !

ويروى الخطيب البغدادى أنه ولد بالبصرة سنة ١٦٠ هـ وقد اتصل بالمأمون عن طريق نبوغه فى الجدل والمناظرة !! وكان قاضى القضاة فى أيام المعتصم والواثق . . . وكان المأمون يوصى مَن بعده وهو المعتصم أن يتخذ ابن أبى دواد مستشاراً له فى جميع أموره !

ولصلته بالخلفاء كان على جانب كبير من الثراء والترف ، وهاتان المكرمتان جعلتاه مقصد الشعراء ، وحديث الناس .

وبلغ ذروة مجده ، وسنام علاه فى عهد المعتصم والواثق :

وقد عاب الواثق على ابن أبى دواد كثرة سخائه ، وطول باعه فى الكرم ،

فأجابه هذه الإجابة التى تقطر دهاء : « يا أمير المؤمنين : نتائج شكرها متصلة بك ، وذخائر أجرها مكتوبة لك ، ومالى من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بحلو المدح فيك »

فقال الواثق يا أبا عبد الله . . .

« لا منعناك ما يزيد فى عشقك ، ويقوى من همتك »

* * *

ولكن هذا المجد كله تعرض لعاصفة عاتية من سخط الناس وبغضهم له عندما رأوه يحرك الفتنة ، ويعمل على إشعالها ، ويُؤَلِّبُ السلطان على الإمام أحمد ويطالب بدمه جهاراً نهاراً ، ويدعوه بالضال المبتدع ويأمر بعزله عن الناس .

دخل عبد العزيز بن يحيى المكى عليه وهو مفلوج فقال له : « إنى لم آتك عائداً ولكن جئت لأحمد الله على أنه سَجَنَكَ فى جلدك »

وقال ابن شراعة البصرى فى فلج ابن أبى دواد :

أفلت سعودُ نجومك ابنَ أبى دواد ... وبدت نحوسك فى جميع إياد

فَرِحتْ بمصرعكَ البريةُ كلها ... من كان منها مُوقِناً بمعادِ

لم يبق منك سوى خيالٍ لامعٍ ... فوق الفراش ممهداً بوسادِ

وَخَبتْ لدى الخلفاء نارٌ بعد ما ... قد كنت تقدحها بكل زنادِ

لم تخش من رب السماء عقوبةً ... فسننت كل ضلالةٍ وفسادِ

كم من كريمةِ معشرٍ أرملْتَها ... ومحدِّثٍ أوثقتَ بالأقيادِ

كم من مساجد قد منعتَ قضاتها ... من أن يعدِّل شاهدٌ برشاد

لا زالَ فالجُك الذى بك دائماً ... ومحقت قبل الموت بالأولاد

* * *

كم كنا نؤثر أن يستغل ابن أبى دواد مركزه فيما يعود على الإسلام والمسلمين بالخير والنفع وأن يضع يده فى يد الإمام أحمد أو يخالفه فى الرأى مجرد الخلاف دون أن تلعب الضغائن لعبها وتتدخل الفتنة المحمومة تدخلها .

قال الصولى فى ابن أبى دواد :

« لولا ما وضع به نفسه من محبة المحنة لاجتمعت الألسن عليه » .

ومات سنة ٢٤٠ هـ كما أخبرنا المسعودى والخطيب البغدادى وابن خلكان . ودفن فى داره ببغداد وصلى عليه ابنه العباس .

الجـــاحظ

نحن لا نتكلم الآن عن الجاحظ الأديب أو الأريب ولا نتكلم عن الجاحظ اللغوى أو العالم ، فلذلك مجال غير هذا المجال . . .

ولكنا نتكلم عن الجاحظ الذى تعلق بالاعتزال ، وأخذ يكيل المديح كيلا لابن أبى دواد ويهيل النقد والتجريح هيلاً على الإمام أحمد ! !

وعاطفة الأديب متهمة فى مدحها وذمها ، بصفة عامة ! فقلما يصدق شاعر أو ناثر فى تقريظه أو تجريحه ! ! ومع ذلك فلن نتهم الجاحظ من هذا القبيل ! ولكنا نوجه إليه اتهامنا ـ آسفين ـ لأنه يذكر فصلا كاملا عن مشكلة خلق القرآن ! !

فإذا وصل إلى أهل الحديث وصفهم بكلمة « القوم » . وإذا وصل إلى الإمام أحمد عبر عنه بكلمة « صاحبكم » وليت الأمر يقف عند هذا الحدّ ! بل إنه ما يجد مقاماً ينتقص فيه الإمام أحمد إلا وانتقصه بالكلمة الجارحة واللفظة النابية ! !

وهذا التنقيص أو التجريح يتكرر بتكرار المناسبات والمقامات ! !

فإذا ماتكلم الجاحظ عن ابن أبي دواد رفعه إلى درجة العلماء الأفذاذ ، والكرام الأمجاد ، والأذكياء النادرين والشجعان فى الرأى والدين !

وليس لنا تعليق على هذا المديح وذلك الإطراء ! فقد يكون الجاحظ مقتنعاً بشخصية ابن أبي دواد أكثر من الإمام أحمد .

وله ذلك بكامل الحرية والاختيار ! ! ولا ملام ! !

ولكن ماذا نعمل بعد أن يَصْدِمنا التاريخ بحادثة معينة ذات شأن وبال !

فقد حدث أن الجاحظ كان متصلا بابن الزيات ويمدحه ويطريه ، فلما طرده ابن الزيات وتخلص منه ، بحث الجاحظ عن رجل آخر يمدحه ويطريه !

وكان يسمع بابن أبي دواد وبسخاء يده ، وطول باعه وكثرة رَمَاده فقصده لطلب العطاء !!

وأهداه كتابه « البيان والتبيين » فمنحه ابن أبي دواد خمسة آلاف دينار !

وللمال سحر ، وللعطاء جاذبية .

فانطلق لسان الجاحظ بالثناء والإطراء !!

ويهمنا هنا أن هذا اللسان المنطلق فى الثناء على ابن أبي دواد هو الذى ينطلق بفاحش القول فى الإمام أحمد بن حنبل . .

ونحن نثبت هنا فقرات من الفصل الذى أرّخ به الجاحظ للمحنة لأمرين :

(١) لتكون دليلا على ما اتهمنا به الجاحظ وتخطيئنا إياه .

(٢) لأن هذا الفصل كتب فى عصر المحنة بلسان كبير من كبراء المعتزلة وهو الجاحظ .

وهى رسالة مطولة نشرت فى هامش الجزء الثانى من كتاب الكامل

للمبرد ضمن فصول جمعها عبيد الله بن حسان لأبى عثمان الجاحظ ، حاول الجاحظ فيها أن يبرر الكثير من آراء المعتزلة ، وأن يتفلسف كعادته تفلسفاً يجعل أكثرها يرتفع عن مستوى العامة .

ويفيد كلام الجاحظ فى هذه الرسالة أنها جواب لسائل سأله عن تفصيل مسألة خلق القرآن عند المعتزلة ، وموقف المعتزلة من أهل الحديث وعلى رأسهم الإمام احمد وهاك الفقرات . .

« وبعد فلم نكفر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل التهمة وليس كشف المتهم من التجسس ، ولا امتحان الظنين من هتك الأستار ، ولو كان كل كشف هتكا ، وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضى أهتك الناس لستر ، وأشد الناس كشفاً لعورة ، والذين خالفوا فى العرش إنما أرادوا نفى التشبيه فغلطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً غلاظاً ، فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطئوا ، فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر . وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق . فبين المذهبين أبين الفرق . وقد قال صاحبكم للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمخلصين إعذاراً وإنذاراً : امتحنتنى وأنت تعرف مافى المحنة وما فيها من الفتنة ثم امتحنتنى من بين جميع هذه الأمة . قال المعتصم : أخطأت بل كذبت ! وجدت الخليفة قبلى قد حبسك وقيدك ، ولو لم يكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك ، ولو لم يخفك على الإسلام ما عرض لك ؛ فسؤالى إياك عن نفسك ليس من المحنة ولا من طريق الاعتساف ولا من طريق كشف العورة ، إذ كانت حالك هذه الحال وسبيلك هذه السبيل .

وقيل للمعتصم فى ذلك المجلس ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره

ويعاينوا انقطاعه ، فَيَنْقض ذلك استبصارهم ، فلا يمكنه جحد ما أقرّ به عندهم ؛ فأبى أن يقبل ذلك وأنكره عليهم وقال لا أريد أن أوتى بقوم إن اتهمتهم ميزت فيهم بسيرتى فيهم ، وإن بان لى أسرهم أنفذت حكم الله فيهم ، وهم مالم أوت بهم كسائر الرعية ، وكغيرهم من عوام الأمة ، وما شىء أحب إلىّ من الستر ، ولا شىء أولى بى من الأناة والرفق وما زال به رفيقاً وعليه رقيقاً .

ويقول : لأن أستَحْيِيَك بحق أحب إلىّ من أن أقتلك بحق حتى رآه يعاند الحجة ويكذب صراحا عند الجواب . وكان آخر ما عاند فيه وأنكر الحق وهو يراه ، أن أحمد بن أبى دواد قال له : أليس لا شىء إلا قديم ، أو حديث . قال : نعم ؛ قال : أو َليس القرآن شيئاً . قال نعم ؛ قال : أو ليس لا قديم إلا الله . قال نعم ؛ قال فالقرآن إذاً حديث . قال : ليس أنا بمتكلم ، وكذلك كان يصنع فى جميع مسائله ، حتى كان يجيبه فى كل ما سأل عنه . حتى إذا بلغ المنخنق والموضع الذى إن قال فيه كلمة واحدة برئ منه أصحابه . قال : ليس أنا بمتكلم فلا هو قال فى أول الأمر : لا علم لى بالكلام ، ولا هو حين تكلم فبلغ موضع ظهور الحجة ، خضع للحق . فمقته الخليفة ، وقال عند ذلك أفٍ لهذا الجاهل مرة ، والمعاند مرة . وأما الموضع الذى فيه واجه الخليفة بالكذب والجاعة بالقحّة وقلة الاكتراث وشدة التصميم ، فهو حين قال له أحمد بن أبى دواد : أتزعم أن الله تعالى رب القرآن ؟ قال : لو سمعت أحداً يقول ذلك لقلت . قال : أفما سمعت ذلك قطْ من خالف ولا سائل ولا من قاص ولا فى شعر ولا فى حديث . قال فعرف الخليفة كذبه عند المسألة ، كما عرف عناده عند الحجة ، وأحمد بن أبى دواد ـ حفظك الله تعالى ـ أعلمُ بهذا الكلام وبغيره من أجناس العلم من أن يجعل هذا

الاستفهام مسألة ، ويعتمد عليها فى مثل تلك الجماعة ، ولكنه أراد أن يكشف لهم جرأته على الكذب كما كشف لهم جرأته فى المعاندة ؛ فعند ذلك ضربه الخليفة !

وأية حجة لكم فى امتحاننا إياكم ، وفى إكفارنا لكم وزعم يومئذ أن حكم الله تعالى كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثاً فقال له : أليس قد كان الله يقدر أن يبدل آية مكان آية وينسخ آية بآية ، وأن يذهب بهذا القرآن ويأتى بغيره ، وكل ذلك فى الكتاب مسطور ؟ قال نعم . قال : فهل كان يجوز هذا فى العلم ، وهل كان جائزاً أن يبدل الله علمه ويذهب به ، ويأتى بغيره ؟ قال : لا ، وقال له روينا فى تثبيت ما نقول الآثار وتلونا عليك الآية من الكتاب وأريناك الشاهد من العقول التى بها لزم الناس الفرائض ، وبها يفصلون بين الحق والباطل . فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث ، فلم يكن ذلك عنده ولا استخذى من الكذب فى هـــذا المجلس ، لأن عدة من حضره أكثر من أن يطمع أحد أن يكون الكذب يجوز عليه . وقد كان صاحبكم هذا يقول : لا تَقِيَّة إلا فى دار الشرك فلو كان ما أقر به من خلق القرآن ، كان منه على وجه التقية ، فقد أعملها فى دار الإسلام ، وقد أكذب نفسه ، وإن كان ما أقرّ به على الصحة والحقيقة ، فلستم منه وليس منكم على أنه لم ير سيفاً مشهوراً ، ولا ضُرِبَ ضرباً كثيراً ، ولا ضرب إلا بثلاثين سوطاً مقطوعة الثمار مشعبة الأطراف ، حتى أفصح بالإقرار مراراً ولا كان فى مجلس ضيق ، ولا كانت حاله حالا مؤسية ، ولا كان مثقلا بالحديد ، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد . ولقد كان يُنَازَع بألين الكلام ، ويجيب بأغلظ الجواب ، ويرزنون ويَخِفّ ، ويحلمون ويطيش ، وعبتم علينا إكفارنا إياكم

واحتجاجنا عليكم بالقرآن والحديث ، وقلتم تكفرونا على إنكار شيء يحتمل التأويل ويثبت بالأحاديث ، فقد ينبغي لكم أن لا تحتجوا في شيء من القدر والتوحيد بشيء من القرآن والحديث وأن لا تكفّروا واحداً خالفكم في شيء وأنتم أسرع الناس إلى إكفارنا وإلى عداوتنا ، والنصب لنا » .

ولعلنا نلاحظ فى هذه الرسالة الجاحظية كيف أَسَفَّ الجاحظ فى تعبيره ، وإلى أى مدى تحامل على الإمام أحمد حتى وصفه بالجهل مرة ، والكذب مرة ، وبالكفر مرة . ثم بعد ذلك كيف يتجنى فيذكر أن الإمام أحمد قد أقر بخلق القرآن ، وكل التواريخ المعاصرة تثبت أن الإمام أحمد لم يقبل التقية ، وأنه قال فى ذلك قولته المشهورة التى صدرنا بها الكتاب .

ثم ولو أقر الإمام أحمد كما يزعم - الجاحظ - فلماذا كانت المحنة إلى أواخر عهد المعتصم ، وإلى عهد الواثق من بعده ، وإلى جزء من خلافة المتوكل كما سنذكر فيما بعد !

إن مدرسة الرأى قد تمنحك علماً غزيراً ، ولكنها لا تمنح ورعاً كثيراً . لأن الورع أمر وجدانى يُغذَّى بالإيمان الفياض ، والمراقبة الدائمة ! !

ولذلك فإمامنا الجليل يضرب لنا مثلا أعلى فى الورع ، ومثلا أعلى فى الصدق ، ومثلا أعلى فى الأمانة العلمية ، ومثلا أعلى فى العمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم !

وهو إن جرّح أحداً ، فإنما يُجَرِّحُ الخارجين عن العقيدة فى مواطن خروجهم فقط لا ينتقص من شخص معين بغير حق ، ولا يتكلم إلا بما يرضى ربه ويسلم دينه من زيغ الزائغين ، وفتنة الفاتنين ، ثم والإمام أحمد لم يبدأ غيره بالامتحان ، ولم يجاهر السلطان بالعصيان ، إلا فى أمر يتصل بالعقيدة

فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

* * *

والآن وقد رأينا شيئاً كثيراً من جموح العقل البشرى وتخطيه الحدود والأسوار فى كلام الجاحظ المعبر به عن رأيه ورأى المعتزلة إخوانه فى الإمام أحمد :

الآن قد آن لنا بعد أن عرفنا منهاج المعتزلة فيما يتصل بموضوع البحث ، أن نعرف منهاج الإمام أحمد ، ذلك الإمام السلفى الصالح الذى لا يعرف مكراً ولا دهاء ؛ إنما يعرف طيبة القلب ويلازم السنة شبراً بشبر وذراعاً بذراع .

منهاج الإمام أحمد

روى أبو نعيم فى كتابه «حلية الأولياء» عن أبى داود السجستانى قال :
« لقيت مائتين من مشايخ العلم ، فما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، لم يكن يخوض فى شىء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا فإذا ذكر العلم تكلم » .

هذه هى السمة الغالبة على شخصية الإمام أحمد . انصراف بطبعه عن الدنيا ، وعزوف عن متاعها وملذاتها ! ودعاه ذلك إلى برنامج قاس عنيف يلتزمه فى حياته العامة والخاصة !

فهو إذا جلس للعلم ـ طالبا أو مدرسا ـ لا يحب فى العلم مزاحا ، ولا خروجا ! ولا يحب فى العلم مراء أو جدلا ! !

إنما يحب أن يلقى العلم فى وقار وخشية ، وأن تحيط بحلقة العلم الرهبة ، والهيبة ! !

ويكفى أن نعلم فى ذلك هذه الحادثة المشهورة التى أخرجها لنا أبو نعيم فى حليته عن خلف بن سالم :

« كنا فى مجلس يزيد بن هارون فمزح يزيد مع مستمليه ، فتنحنح أحمد وكان فى المجلس ، فسأل يزيد : من المتنحنح ؟ فقيل له : أحمد بن حنبل ! !

فضرب يزيد بيده على جَبِينِه ، وقال :

ألا أعلمتمونى أن أحمد بن حنبل هاهنا حتى لا أمزح » .

ذلك هو العنوان العام لهذه الشخصية الجليلة المهابة !

ولن يصل إلى هذه الدرجة إلا من غلب عليه التّمسك الدقيق بالكتاب الكريم ، والحرص الكامل على تفهم دقائق السنة ، والعمل بها .

وإذا تكلمنا عن المنهاج الذى أخذ به الإمام نفسه فى العمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هالنا ما وجدنا من ذخيرة لا تنفد ، ورصيد لا ينضب ولنتصور إنسانا يعالج سكرات الموت فتحضر الصلاة فيريد الوضوء ،

ولا يمكنه تخليل أصابع يديه ، فيشير إلى أولاده أن خللوا أصابعى . . وأشار إليهم لأن لسانه قد انحبس عن الكلام !

وعنده أنه ينبغى للمسلم أن يتوضأ وضوءه على أكمل وجه ما دام فيه نَفَس يتردد ، وحياة باقية ويظهر هذا المنهاج على أتم ما يكون فى المسلك الذى فرضه الإمام أحمد على نفسه فرضاً :

إقامةٌ فى البيت ، وعدم خروج منه إلا لصلاة جماعة ، أو شهود جنازة ، أو عيادة مريض ، أو طلب علم !

ضجعة بعد العشاء ، ثم قيام بالليل حتى يأتى الصباح !

مصاحبة دائمة للقرآن لا يقطعها إلا كلام ضرورى ، وعمل لا بد منه .

حجٌّ إلى مكة من بغداد خمس مرات ، كما رواها ولده صالح نقلا عن أبيه ثلاثاً منهن راجلا ، أنفق فى إحداها ثلاثين درهما . واثنتين راكباً !

وقس على ذلك ما أشبهه !

فما هو الباعث على ذلك كله !

إن الإمام أحمد كان فى عصر « الفخفخة » العباسية ، عصر كان ينفق فيه زميله ابن أبى دواد بالخمسة آلاف دينار فى الدفعة الواحدة !

ولغة العصر كانت لغة مترفة ، تظهر فيها النعمة وتتكرر كلمات الثراء ، وتختفى منها معالم الفقر والإقلال ، وكان الإمام أحمد متبوعاً من السادة والعامة ، وكان وسيم الطلعة ، يخضب شعره ولحيته بالحناء .

وللوسامة ، والخضاب دلائل تبعث على حب المظهر والجاه ، والتشبث بالمناصب الرفيعة !

ولكن الإمام أحمد كان مع ذلك كله ! الفقير الزاهد ، المترب الصابر ! الرَّادّ لعطايا الخلفاء حتى يُظنَّ به الكبر ، الكارى لنفسه مع الحمالين حتى

يظن به الذل فإذا ما أضفنا إلى ذلك صوماً متواصلا لا ينقطع من خشية الله وتقديساً لآثار النبي صلى الله عليه وسلم لا نجد مثله فى إمام أو عالم. عَلِمْنا !! أننا أمام إمام نادر الوجود حازم الأمر ، حاد العاطفة ، صوفى المزاج !!

لقد رآه أولاده يأخذ شعرة من شعر النبي صلى الله عليه وسلم فيضعها على فيه ويقبلها ، بل يضعها على عينيه ويغمسها فى الماء ثم يشربه ويستشفى به ، وكان يأخذ قصعة النبي صلى الله عليه وسلم فيغسلها ثم يشرب ما فيها!

وكان يشرب ماء زمزم ويستشفى به ، ويمسح به يديه ووجهه !!

* * *

ونقتصر هنا على الإجمال والعموم من منهاج الإمام أحمد فإننا سنعود إن شاء الله إلى ذلك الموضوع بتفصيل بعد كلامنا عن المحنة !

ولقد ذكرنا ذلك لكى يكون لنا مدخلا على آراء الإمام أحمد ، ومعرفة رأيه فى القرآن !

ولماذا كان يكره التأول للنصوص ، ويؤثر الاتباع على الخوض فى علم الكلام ، والمناظرة !!

ومن مطالعتنا لتاريخ الإمام أحمد علمنا أنه كان يكره المناظرة طبعاً لا تكلفاً ولو أراد الإمام أحمد أن يكون كلامياً فى حججه ، أو فتح باب المناظرة فى مذهبه ، وبين أتباعه لعاش مذهبه أكثر مما عاش ، ولزاد الأتباع أكثر وأكثر !!

ولكنه رضى الله عنه فضل أن يعيش «سلفياً» فى آرائه ومذهبه ، وحديثه وسلوكه ، وذلك مما جعل كفته وحده تقاوم كفة المعتزلة جميعاً

ثم ترجح عليهم جميعا ، ثم يشهد التاريخ صولة للإمام أحمد لم يشهدها لابن أبي دواد ، وتكريما من العالم الإسلامى للإمام لم يشهده أحد غيره ممن جاء بعده ؟ ؟

* * *

كانت المصادر الوحيدة التى يعتمد الإمام عليها ، وينهل من ملئها ، ويغرف من بحرها :

القرآن ، السنة ، فتاوى الصحابة ، اجتهاد التابعين !

لقد كان الإمام أحمد ينظر إلى القرآن على أنه كتاب هداية للبشر جميعا ، وتشريع للناس جميعا ؛ كتاب تنزل بلسان عربى مبين على النبى محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه إلى الناس ، وليعمل به الناس ، والكتاب الذى شأنه كذلك ، يجب أن نتتلمذ عليه مقتنعين بكل حرف جاء فيه ، مؤمنين بإشاراته ، وتصريحاته !

ما فهمنا أخذنا به ، وما لم نفهمه فوضناه إلى الله ، وتوقفنا عنه !

لا نخوض فيه بغير علم ، ولا نفتح مجالا نحن فى غنى عنه ، ولا نجعل الفكر يشطح فيه من غير حدود ، ولا نطلق لألسنتنا التعبير عن فهم وغير فهم ، فى مقام لم ندركه تمام الإدراك ، ولم نحط به تمام الإحاطة !

فما هى النتيجة التى تعود على الناس من إثبات أن القرآن مخلوق ؟!

وماهو الأثر الكبير الذى يعود على العقول من الزجّ بها فى هذه البحوث ؟

وما هو الصدى الذى يكسبه العالَمُ الإسلامى من وراء هذه الفتوى ؟

إن العقل قد يتصدع دون أن يصل إلى ما يريد ، وإن القلب قد ينفطر وهو يمر بهذا الأمر الخطير الجليل ! !

ولماذا تشتغل العقول فى أمر عقيدى لم يشتغل به رسول الله صلى الله

عليه وسلم ولا صحابته ولا التابعون لهم بإحسان ؟؟

إن هذا لشطط وإسراف وجموح !

يجب أن يقف العقل عند حده أو يوقف عند طوره .

فإذا قيل للإمام أحمد لا بد أن تتكلم ، قال لهم حاجونى بالكتاب والسنة فإن حاجوه عزهم وغلبهم !

فإن حاجوه بغير الكتاب والسنة قال لهم : لا أفهم ما تقولون ، ولا أعى ما تزعمون !

إن عقل الإمام ليس أقل من عقولهم ولكنه لا يبغى مراء فى مثل هذا الكلام ، والمقام .

* * *

مرة أخرى نقول :

إن الإمام أحمد لا يميل إلى المناقشة فى الخلق ، ولا يعترف بالخلق جملة ولا تفصيلا !!

وقد فهمنا فيما سبق ماذا أراد المعتزلة بكلمة خلق القرآن ، فماذا يريد الإمام أحمد بكلمة « غير مخلوق » !

لا شك أن الإمام أحمد يريد بهذا الكلامَ الإلهيَّ الأزليّ الذى كلّم به ملائكته وأنبياءه ..

ويرى أن كلام الله من علم الله !!

ولا يجب أن يزيد على ذلك !

ويدعو بحرارة وشدة إلى أننا لانقول بخلق القرآن ولا نوافق من يقول بذلك ، بل يدعو إلى ذمهم وتجريحهم .

ولقد تكلم المستشرق « ولتر باتون » كلاما طيبا فى هذه المسألة فقال :

« ولنبدأ بمذهب الإمام أحمد فى القرآن ، فقد أقر فيه بأنه كلام الله وقصد بذلك أنه التعبير عن علم الله ، وأنه باعتباره تعبيراً يجب أن نتصور أنه قائم بصفة أزلية فى الذات الإلـهية ، أو إذا كان علينا أن نعيد صوغ هذه الفكرة فلنا أن نقول : إنه ما دام هناك من أمر موضوعى بالنسبة لذاته تعالى ، قام كلامه تعالى معبراً عن علمه ، وقبل أن يظهر الموضوعى فى عالم الوجود ، فكلام الله تعـالى قائم فى ذاته وليس كلاما واقعاً ، وهـذا يؤدى بنا إلى إثبات أزلية كلام الله ، ومن ثم إذا تعذر علينا أن نتصور العلم الإلهى قائماً على صورة مجردة من التعبير الرمزى الذى يلازمه ملازمة أزلية ، وإذا نظرنا إلى كلام كهذا ، على اعتبار أنه ملكة تعبر عن نفسها كطاقة وليست خلْقاً ، فإنه يترتب على ذلك أن كلام الله تعالى ليس أزلياً فحسب ، ولـكنه أيضاً غير مخلوق . وقد يعترض على ذلك بأن النقطة المتنازع عليها ، لا تنحصر فى كلمة الله ، ولـكن فى القرآن على اعتبار أنه كلام الله المعروف للناس . ومع ذلك فإن علينا أن نلاحظ الفرق الواضح بين القرآن المـكتوب أو المتلو ، وكلام الله الضرورى السماوى .

ولم يوضح هذا أيضاً بين المتجادلين (فى موضوع خلق القرآن) لمحض الرغبة فى الجدل وسعيا وراء الظفر فى المناظره وقطع الخصوم . مع أن هذه التفرقة تمثل فى نظرنا اعتقاداً فى مدى الشقة القائمة بين كلام الله الظاهر وكلامه الخفى . فإن كافة الكلمات التى كلم الله بها موسى هى كلام الله وهى حقا لا تتعلق بالقرآن المعروف لنا ، ولـكنها تتعلق بكلام الله الأزلى . وكلمات الله جميعا لمحمد (عليـه السلام) ولسائر الأنبياء هى كلام الله ؛ كما أن كافة تلك الـكلمات التى كلم الله بها عيسى بن مريم هى أيضا كلام الله .

وقد استعان المتناظرون (المسلمون) فى جدلهم بالكلمات التى خوطب

بها هؤلاء الرسل المختلفون ، لكى يبرهنوا على أن القرآن المعروف لنا أزلى غير مخلوق ولو أن هذه الكلمات لا تؤلف جزءاً من القرآن . ذلك لأنها مضافا إليها مادة القرآن ، هى مما أنزل من كلام الله الأزلى وأوحى به . ولكن هذا التنزيل ليس مستغرقا لكلام الله الأزلى وإنما هو جزء منه ، وهذا يؤدى بنا إلى المذهب القائل بأن كلام الله تعالى وحدة ، كما أنه أزلى غير مخلوق .

ولا يمكن أن يعد هذا الكلام وحدة ، إذا اقتصرنا فى الاستدلال على كلمات الله الظاهرة . ولكن إذا اعتبرنا هذه الكلمات ونظرنا إليها كملكة للتعبير ، كامنة أو فاعلة ، متعلقة بالذات الإلهية ، فإنا قد نرى كيف عُد كلام الله وحدة متصلة مستمرة ، أو نراه على أنه وحدة فى حاضر أزلىّ إذا تهيأ لنا أن نحسن التعبير عن حقيقة تتعلق بالذات الإلٓهية المنزهة عن الحوادث وعن أى تعاقب زمنى . وكلام الله هذا ، سواء إذا نظرنا إليه على اعتبار أنه أفكار وعبارات ، هو بالضرورة صادق معصوم مبرأ عن أية شائبة ، ومن ثم فكلام الله تعالى أزلى غير مخلوق ، وهو وحدة متصلة منزهة معصومة ، وهذا هو ما نعتقد أنه كان مذهب أحمد بن حنبل فى القرآن ، ومذهب من كان على غراره من الفقهاء والمحدثين ، وقد استعنا بالطرائق العصرية فى التعبير لتوضيح آرائه . ومع ذلك فهذه الآراء ليست مما ننتحله لأنفسنا وإنما هى آراء أحمد بن حنبل .

والقرآن من حيث علاقة البشر به فى الحياة الدنيا يجب أن ينظر إليه كبيان عن كلام الله الواحد الذى يتألف منه وحى الديانة الكاملة ، كما أنه الوسيلة المثلى للخلاص (من عذاب الآخرة) والهداية الصادقة للناس (فى حياتهم الدنيوية) وهو فى كافة أشكاله القائمة بين الناس سواء أكانه

مكتوبا أو متلوا أو محفوظا فى الذاكرة ، كذا مادته وألفاظه غير المنطوق بها ، مما يتضمن قول الله تعالى وفكره ، هو قرآن أزلى غير مخلوق وهو الحق المعصوم المنزه عن الخطأ ، وأفعال البشر من حيث علاقتها بمادة القرآن وألفاظه ، كما نرى تلك المادة والألفاظ متصلتين بالأفعال البشرية (من حيث تلاوة القرآن وكتابته وحفظه إلى غير ذلك) إنما هى أفعال محدثة مخلوقة غير معصومة ، هذا هو مذهب القائلين « بخلق القرآن » اهـ.

ومما تقدم نستخلص أن منهاج الإمام أحمد فى القرآن ، منهاج سليم ، أو هو بتعبير أدق : أقرب إلى السلامة من منهاج المعتزلة فى رأينا.

* * *

وأقول فى رأينا لأن بعض الذين يميلون إلى تحكيم العقل يذهبون إلى الحكم على الإمام بأنه يمثل المدرسة الحرفية ، أو « النَّصِّيَّة » ! التى تهمل العقل ، أو تلغيه إلغاء ! !

ولكنا مع ذلك مستريحون إلى أن مشاكل العقل لا نهاية لها وأن التقيد بالنص فيه جمع للشمل ، والتئام للكلمة ! وتصفية لمشكلة عويصة لا يعلم مدى نتائجها إلا الله عز وجل !

إن العقل يحركه الهوى ! ولا عاصم له !

أما النص فهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير !

ونزيد الأمر وضوحا فنكتب هنا رسالة هامة أرسلها الإمام أحمد إلى الخليفة المتوكل معبراً له فيها عن رأيه فى القرآن.

وهذه الرسالة وإن كانت قد كتبت فى زمن المتوكل إلا أننا نسجلها هنا قبل الكلام عن المحنة وأطوارها لأنها تبرز رأى الإمام إبرازاً واضحا ، وتجليه جلاء صريحا ؛ ومن هنا كانت قوية العلاقة بالمنهاج .

جاء فى الحلية عن صالح بن أحمد أنه قال :

« كتب عبيد الله بن يحيى إلى أبى يقول :

إن أمير المؤمنين أمرنى أن أكتب إليك أسألك عن أمر القرآن . لا مسألة امتحان ، ولكن مسألة معرفة وتبصرة ، فأملى علىّ أبى رحمه الله إلى عبيد الله بن يحيى :

بسم الله الرحمن الرحيم : أحسن الله عاقبتك ، أبا الحسن فى الأمور كلها ، ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته ، وقد كتبت إليك رضى الله عنك بالذى سأل عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن بما حَضرنى وإنى أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين فقد كان الناس فى خوض من الباطل ، واختلاف شديد ينغمسون فيه حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين . فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس فصرف الله ذلك كله ، وذهب به أمير المؤمنين ، وقع ذلك من المسلمين موقعاً عظيما وأدعو الله لأمير المؤمنين ، أن يزيد فى نيته وأن يعينه على ما هو عليه .

فقد ذُكر عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه أنه قال :

لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، فإن ذلك يوقع الشك فى قلوبكم . وذكر عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه « أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟ وقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟ فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج كأنما فُقِئ فى وجهه حَبُّ الرُّمّان . فقال : أفبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ إنما ضلت الأمم قبلكم فى مثل هذا . إنكم لستم مما هاهنا فى شىء . أنظروا الذى أمرتم به فاعملوا به ، وانظروا الذى نهيتم عنه فانتهوا عنه » .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « مراء فى القرآن كفر » ؛ وروى عن أبى جهيم - رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم - عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تماروا فى القرآن ، فإن مراءً فيه كفر » .

* * *

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنه : « قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجل . فجعل عمر يسأل عن الناس فقال يا أمير المؤمنين : قد قرأ القرآن منهم كذا ، وكذا . فقال ابن عباس : فقلت : والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا فى القرآن هذه المسارعة . قال فَزَبَرَنِى عمر[1] وقال مه . فانطلقت إلى منزلى مكتئباً حزيناً فبينا أنا كذلك إذ أتانى رجل فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت فإذا هو بالباب ينتظرنى فأخذ بيدى فخلا بى ، وقال ما الذى كرهت مما قال الرجل آنفاً ؟ فقلت يا أمير المؤمنين : متى يتسارعوا هذه المسارعة يَحْتَقُّوا ، ومتى ما يحتقوا يختصموا ، ومتى ما يختصموا يختلفوا ، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا . قال لله أبوك ، والله إن كنت لأكتمها الناس حتى جئت بها .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يعرض نفسه على الناس بالموقف ، فيقول هل من رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى . وروى عن جبير بن نفير ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم لن ترجعوا إلى الله بشىء أفضل

(١) الزبر : الزجر .

مما خرج منه (يعنى القرآن) . وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : جردوا القرآن ، ولا تكتبوا فيه شيئاً إلا كلام الله . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال « هذا القرآن كلام الله ، فضعوه مواضعه » .

(و) قال رجل للحسن البصرى : يا أبا سعيد ، إنى إذا قرأت كتاب الله وتدبرته ، كدت أن آيس ، وينقطع رجائى . قال : فقال الحسن : إن القرآن كلام الله ، (و) أعمال بنى آدم إلى الضعف والتقصير ، فاعمل ، وأبشر . وقال فروة بن نوفل الأشجعى : كنت جاراً لخباب وهو من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فخرجت معه يوماً من المسجد ، وهو آخذ بيدى ، فقال : يا هذا ، تقرب إلى الله بما استطعت ، فإنك لن تقرب إلى الله بشىء أحب إليه من كلامه .

وقال رجل للحَكَم بن عُيَيْنَه : ما حمل أهل الأهواء على هذا قال : الخصومات . وقال معاوية بن قرة ، وكان أبوه ممن أتى النبى صلى الله عليه وسلم : إياكم وهذه الخصومات فإنها تحبط الأعمال ، وقال أبو قلابة وكان قد أدرك غير واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجالسوا أصحاب الأهواء ، أو قال أصحاب الخصومات ، فإنى لا آمن أن يغمسوكم فى ضلالتهم ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون ، ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمد بن سيرين ، فقالا : يا أبا بكر نحدثك بحديث ؟ فقال : لا ، فقالا فنقرأ عليك آية من كتاب الله ؟ قال : لا ولتقوما عنى أو لأقومن . قال : فقام الرجلان ، فخرجا . فقال بعض القوم : يا أبا بكر وما عليك أن تُقرأ عليك آية من كتاب الله فقال : له ابن سيرين : إنى خشيت أن يقرآ علىَّ آية فيحرِّفاها ، فيقر ذلك فى قلبى . وقال محمد : لو أعلم أنى أكون مثلى الساعة لتركتهما .

وقال رجل من أهل البدع لأيوب السختيانى : يا أبا بكر أسألك عن كلمة ؟ . فولىّ ، وهو يقول بيده : ولا نصف كلمة . وقال طاووس بن طاووس لابن له ، وتكلم رجل من أهل البدع : يابنى أدخِل أصبعيك فى أذنيك ، حتى لا تسمع ما يقول . ثم قال : اشدد اشدد . وقال عمر ابن عبد العزيز : من جعل دينه غرضا للخصومات ، أكثر التنقل .

قال أبو الفضل : وجدت فى كتاب أبى بخطه : حدثنا إسماعيل عن يونس ، قال : نبئت أن عمر بن عبد العزيز قال : من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل .

وكان الحسن يقول : شَرُّ داء خالط قلبا ، يعنى الأهواء وقال . حُذيفة ابن اليمان رضى الله عنه ، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم ، والله لئن استبقتم لقد سبقتم سبقا بعيدًا ، ولئن تركتموه يمينا وشمالا ، لقد ضللتم ضلالا بعيدا أو قال : مبينا قال أبى : وإنما تركت ذكر الأسانيد لما تقدم من اليمين التى حلفت بها مما قد علمه أمير المؤمنين ، ولولا ذاك لذكرتها بأسانيدها . وقد قال الله تعالى : «وإن أحد من المشركين استجارَك فأجره حتى يسمع كلام الله» وقال : «ألا له الخلق والأمر» . فأخبر بالخلق ثم قال : والأمر . فأخبر أن الأمر غير الخلق . وقال تعالى «الرحمن علّمَ القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان» فأخبر تعالى أن القرآن من علمه . وقال : «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبّع ملتهم ، قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ، مالك من الله من ولى ولا نصير» .

وقال : «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك

وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتَّبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لم الظالمين . . . » فالقرآن من علم الله . وفى هـذه الآيات دليل على أن الذى جاءه صلى الله عليـه وسلم ، هو القرآن ، لقوله ، (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم) . وقد روى عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وهو الذى أذهب إليه ، لست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام فى شىء من هذا الأمر ، إلا ما كان فى كتاب الله أو فى حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عن أصحابه أو عن التابعين فأما غير ذلك ، فإن الكلام فيه غير محمود » .

هذا هو رأى الإمام وفهمه فى القرآن ، رأى ينبع من قلبه ، وفهم ينبع من وجدانه وعقله .

وطاقته الذهنيـة اتفقت مع طاقته القلبية فأنتج لنـا هـذا الاتفاق ذلك المنهـاج .

* * *

أما المصدر الثانى الذى يلى القرآن فهو السُّنة .

والسُّنة عند الإمام كما هى عند أهل الحديث أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته .

والمصـدر الثـالث هو فتاوى الصحابة واجتهادهم وآراء التـابعين لهم بإحسـان .

وإتمـاما للنفع نسجل هنـا « أصول السنة كما فهمها الإمام أحمد » لكن ندرك فى وضوح كيف كانت السنة مفهومة عند هذا الإمام العظيم .

أصول السنة كما فهمها الإمام أحمد

حدثنا أبو البركات بن على البزار قال : أخبرنا أحمد بن على قال : حدثنا هبة الله بن الحسن الطبرى ، أخبرنا محمد بن ناصر الحافظ ، حدثنا الحسن ابن أحمد الفقيه قال : حدثنا على بن محمد حدثنا سليمان المقرى قال : حدثنا عبدوس بن مالك العطار قال :

سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول : أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله عليه وسلم ، والاقتداء بهم وترك البدع ، وكل بدعة فهى ضلالة وترك الجدال والمراء والخصومات فى الدين . والسنة عندنا آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم :

والسنة تفسير القرآن ، وهى دلائل القرآن وليس فى السنة قياس ولا تضرب لها الأمثال ، ولا تدرك بالعقول والأهواء إنما هو الاتباع ، وترك الهوى ، ومن السنة اللازمة التى من ترك منها خصلة لم يقبلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها : الإيمان بالقدر خيره وشره ، والتصديق بالأحاديث فيه ، والإيمان بها . لا يقال لِمَ ولا كيف ؟ إنما هو التصديق والإيمان بها ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله فقد كُفِىَ ذلك وأحكم له فعليه الإيمان به والتسليم له مثل حديث الصادق المصدوق ، فى القدر ، ومثل أحاديث الرؤية كلها وإن نبت عن الأسماع واستوحش منها المستمع فإنما عليه الإيمان بها وألا يرد منها حرفاً واحداً وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات وألا تخاصم أحداً ولا تناظره ولا تتعلم الجدال فإن الكلام فى القدر والرؤية والقرآن ، وغيرها من السنن مكروه منهى عنه لا يكون صاحبه وإن أصاب بكلامه السنة من أهل السنة حتى يدع الجدال ونسلم ونؤمن بالآثار ، والقرآن كلام الله وليس بمخلوق ، ولا نضعف أن نقول ليس بمخلوق فإن كلام الله سبحانه ليس ببائن منه وليس منه شيء مخلوقا ، وإياك ومناظرة من أحدث

فيه ومن قال باللفظ وغيره ، ومن وقف فيه وقال لا أدرى مخلوق أوليس مخلوقا وإنما هو كلام الله فهذا صاحب بدعة مثل من قال هو مخلوق وإنما هو كلام الله عز وجل وليس بمخلوق والإيمان بالرؤيا يوم القيامة كما روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الأحاديث الصحاح وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد رأى ربه فإنه مأثور عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح رواه قتادة عن عكرمة عن ابن عباس ورواه الحكم بن إبان عن عكرمة عن ابن عباس ورواه على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس والحديث عندنا على ظاهره كما جاء عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . والكلام فيه بدعة ولكن نؤمن به على ظاهره ولا نناظر فيه أحداً ، والإيمان بالميزان يوم القيامة كما جاء : « يوزن العبد يوم القيامة فلا يزن جناح بعوضة » وتوزن أعمال العباد كما جاء فى الأثر والتصديق والإيمان بالحوض . وإن الله تعالى يكلم العباد يوم القيامة ليس بينهم وبينه ترجمان والإيمان به والتصديق وأن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حوضاً يوم القيامة ترد عليه أمته عرضه مثل طوله مسيرة شهر آنيته كعدد نجوم السماء على ما صحت به الأخبار من غير وجه والإيمان بعذاب القبر ، وأن هذه الأمة تفتن فى قبورها وتسأل عن الإيمان والإسلام ، ومن ربّه ومن نبيه ، ويأتيه منكر ونكير كيف شاء الله وكيف أراد والإيمان به والتصديق به والإيمان بشفاعة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبقوم يخرجون من النار بعد ما احترقوا وصاروا فحماً فيؤمر بهم إلى نهر على باب الجنة كما جاء الأثر كيف شاء وكما شاء إنما هو الإيمان به والتصديق به والإيمان أن المسيح الدجال خارج مكتوب بين عينيه كافر والأحاديث التى جاءت

فيه وأن ذلك كائن وأن عيسى ابن مريم عليه السلام ينزل فيقتله بباب لد والإيمان قول وعمل يزيد وينقص كما جاء فى الخبر « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » ومن ترك الصلاة فقد كفر . وليس من الأعمال شيء تركه كفر إلا الصلاة ومن تركها فهو كافر وقد أحل الله تعالى قتله والنفاق هو الكفر : أن يكفر بالله و يعبد غيره ويظهر الإسلام فى العلانية مثل المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه فهو منافق » على التغليظ نرويها كما جاءت ولا نفسّرها وقوله عليه الصلاة والسلام: « لا ترجعوا بعدى كفاراً ضُلالا يضرب بعضكم رقاب بعض » . ومثل « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » . ومثل « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . ومثل « من قال لأخيه ياكافر ، فقد باء بها أحدهما » . ومثل « كفر بالله من تبرأ من نسب وإن دق » ونحو هذه الأحاديث مما قد صح وحفظ فإننا نسلم له وإن لم نعلم تفسيرها ، ولا نتكلم فيه ، ولا نجادل فيه ، ولا نفسر هذه الأحاديث إلا مثل ما جاءت لا نردها إلا بأحق منها ، والرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا اعترف أو قامت عليه بينة . قد رَجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورَجمت الأئمة الراشدون .

قال : ولا نشهد على أهل القبلة بعمل يعمله بجنة أو نار ، فنرجو للصالح ونخاف على المسيء المذنب ، ونرجو له رحمة الله تعالى ، ومن لقى الله بذنب تجب له به النار تائباً غير مُصرٍّ عليه ؛ فإن الله سبحانه يتوب عليه ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ومن لقيه وقد أقيم عليه حد فى الدنيا من الذنوب التى استوجب بها العقوبة فأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه ، ومن لقيه من كافر عذبه ، ولم يغفر له . قال : ومن الإيمان الاعتقاد بأن الجنة والنار مخلوقتان كما جاء عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم : دخلت الجنة فرأيت قصراً ، ودخلت فرأيت فيها الكوثر ، واطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها كذا . واطلعت فى النار فرأيت كذا . فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب للقرآن وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار . ومن مات من أهل القبلة موحداً يصلى عليه ، ويستغفر له ولا يحجب عنه الاستغفار ، ولا تترك الصلاة عليه لذنب أذنبه صغيراً كان أو كبيراً ، وأمره إلى الله عز وجل . وقتال اللصوص والخوارج جائز إذا عرضوا للرجل فى نفسه وماله ، ويدفع عنهما بكل مايقدر ، وليس له إذا فارقوه أو تركوه أن يطلبهم ولا يتبع آثارهم ، وليس لأحد إلا الإمام أو ولاة المسلمين . إنما له أن يدفع عن نفسه فى مقامه ذلك وينوى بجهده ألا يقتل أحداً فإن أتى على يديه فى دفعه عن نفسه وماله وجبت له الشهادة كما جاء فى الأحاديث وجميع الآثار فى هذا إنما أمر بقتاله ولم يؤمر بقتله ولا اتباعه ، ولا يجهز عليه إن صرع وإن كان جريحاً وإن أخذه أسيراً فليس له أن يقتله ، ولا يقيم عليه الحد ، ولكن يرفع أمره إلى من ولاه الله تعالى فيحكم فيه ، والسمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر ومن ولى الخلافة فاجتمع عليه الناس ورضوا به . ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين . والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة ، البر أو الفاجر لا يترك وقسمة الفىء وإقامة الحدود إلى الأئمة ماض ليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم ، ورفع الصدقات إليهم جائزة نافذة من دفعها إليهم أجزأت عنهم براً كان أو فاجراً . وصلاة الجمعة خلفه ، وخلف من ولى جائزاً إمامته . ركعتان ، من أعادهما فهو مبتدع تارك للآثار مخالف للسنة ليس له من فضل الجمعة شىء إذا لم ير الصلاة خلف الأئمة برهم وفاجرهم ؛ فالسنة أن يصلى معهم ركعتين ويدين بأنها تامة ولا يكن فى صدرك شك . ومن خرج

على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس أجمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأى وجه كان بالرضا أو الغلبة فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإن مات الخارج عليه ميتة جاهلية ولا يحل قتال السلطان ، ولا الخروج عليه لأحد من الناس فمن فعل ذلك ، فهو مبتدع على غير السنة والطاعة[1] » اه

* * *

وهكذا بما قدمناه ـ عن المعتزلة ، وابن أبى دواد ، والجاحظ ، ومنهاج الإمام أحمد ، وفهمه لأصول السنة ـ نكون قد وضعنا أيدينا على شىء هام هو كالمفتاح لهذه القضية الفكرية التى شغلت العالم الإسلامى فترة من الزمن وهنا نقطة يجب أن نشير إليها قبل أن نفتح الأبواب للدخول على هذه الفترة الحرجة فى تاريخ الرأى والعقيدة . وذلك أننا خالفنا عامدين تلك العادة التى يمضى عليها جُلُّ المؤلفين ، إذْ يبتدئون بالترجمة الكلية للشخصية التى يدرسونها ، ثم يخصصون للبحث بقية الكتاب . أما نحن فقد خالفنا هذا العرف ، والسبب الذى دعانا لذلك هو أننا حرصنا على أن نعطى فرصة الاستخلاص للقارئ ، فلسنا نحب ـ فى مثل هذا الكتاب ـ أن تتلاحق خطواته خلف خطواتنا عن طريق التلقين والسرد . وإنما هدفنا من وراء هذا الأسلوب الذى نهجناه أن نتيح لقارئنا مجاله الشخصى المستقل يستنبط بنفسه ، ويشترك فى رسم الصورة التجريدية لشخصية الإمام العظيم دون تدخل أو إملاء ، بل نكتفى بطبيعة الظروف تُرشِّحُ للخير الذى

(١) كتاب جلاء العينين لابن الألوسى .

وراءهـا . كلٌّ على قدر مقاييسه وطـاقاته ، وبعد أن يتحقق هذا المقصود سنعقب بالصورة المعتادة ، وبهـذا ندرك الفائدتين إن شاء الله ، فائدة كسب القارئ الذى يستخلص بنفسـه ، ويسهم بحيويتـه الفـكرية والعاطفية فى هذا الموضوع التربوى النافع . وفى نفس الوقت نحصل على الفائدة الثـانية بقراءة الترجمة الموجزة لحياة الإمام ونشأته .

فَلْنَنْتَقِل على بركة الله إلى نظرة فى العالم الإسلامى المعاصر للمحنة .



العالم الإسلامي المعاصر للمحنة

كان العالم الإسلامى يموج فى عزة الانتصارات الحربية ويهتز بفرحة السيادة على الأرض ! !

فعصر الإمام أحمد صادف انحسار الروم وانكماشها ، وزوال دولة الفرس وسلطانها ! !

وكانت السحابة إذا شرّقت أو غرّبت لا تتبعها الأنظار ولا تفكر العقول : أين ذهبت ولا متى تتحول إلى أمطار ؟ فإن خراجها سيعود حتما إلى بيت مال المسلمين ، وحتى حادث الاختلاف الكبير بين الأمين والمأمون الذى كاد يزلزل عرش البلاد ، ويعرض استقلالها واستقرارها لعاصفة عارمة انتهى هذا الحادث أو هذه الفتنة بموت الأمين وانفراد المأمون ! !

وأحس المسلمون برغد فى العيش لم يكونوا يحلمون به فى بغداد مدينة السلام !

وازدهر العصر بازدهار الفتوح المتوالية والخير المتواصل ! !

وعند ملء الجيوب وراحة البال يأخذ العقل الإنسانى مجراه إلى التفكير والتحليل والغوص والتدقيق !

وهذا عامل طبيعى !

وهناك عامل آخر وهو غلبة العنصر الفارسى على العنصر العربى واستشراء سلطانه فى عهد المأمون .

ولقد غزا هذا العنصر الدخيل الأمة العربية بقوميته وسلاحه وعلمه وتفكيره ومكره ودهائه .

فانتشرت الفلسفة .

وعم الجدل . .

واضطربت العقول . .

وقلت قيمة النصوص .

وقد صور لنا ابن قتيبة فى كتابه (اختلاف اللفظ) حالة الجدل فى عصر الإمام أحمد تصويراً دقيقاً فقال : (كان طالب العلم فيما مضى يسمع ليعلم ، ويعلم ليعمل ، ويتفقه فى دين الله ينتفع وينفع وقد صار الآن يسمع ليجمع ، ويجمع ليذكر ، ويحفظ ليغالب ويفخر) اه .

وصحب الموجة الجدلية الواسعة المدى ، حركة تدوينية واسعة أيضاً ، للعلوم على اختلاف ألوانها ، وخاصة الفقه والحديث .

فدوّن مالك مُوَطّأه ، ودوّن الإمام الشافعى كتابه (الأم) وكذلك ألف أبو يوسف ومحمد .

وكذلك حصلت حركة تدوينية فى علم الحديث « بالروايات التى تنتهى إلى الصحابة .

وكان أهم ما يتجهون إليه فى هذا الباب الأحاديث التى تتصل بالفقه ، مع تصفية وغربلة لرجال الحديث .

وتستلزم هذه الحركات العلمية رحلات وتنقلات ، وتحمل للأسفار البعيدة ، والزاد القليل .

فالشافعى يؤسس مذهبه فى بغداد وينتقل بعد ذلك إلى أرجاء العالم الإسلامى كالحجاز ومصر .

والإمام أحمد يرحل كما ذكر الخطيب البغدادى . إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة ، فكتب عن علماء عصره ، وسمع من اسماعيل بن علية ، وهشيم بن بشير ، وحماد بن خالد الخياط . ومنصور ابن سلمة الخزاعى ، والمظفر بن مدرك ، وعثمان بن عمر بن فارس ، وأبى النضر

هاشم بن القاسم ، وأبى سعيد مولى بنى هاشم ، ومحمد بن يزيد ، ويزيد بن هارون الواسطيين ، ومحمد بن أبى عدى ، ومحمد بن جعفر غندر ، ويحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدى ، وبشر بن المفضل ومحمد بن بكر البرسانى ، وأبى داود الطيالسى ، وروح بن عبادة ، ووكيع بن الجراح ، وأبى معاوية الضرير ، وعبد الله بن نمير ، وأبى أسامة وسفيان بن عيينة ، ويحيى ابن سليم الطائفى ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، وإبراهيم بن سعد الزهرى ، وعبد الرزاق بن همام . . . الخ الخ .

وكل ذلك يدل على أن حركة العلم كانت على أشدها نشاطا وأعظمها شمولا ! !

وكان الرأى ينتشر فى العراق . فما أسرع ما يصل مداه إلى مصر مع بطء البريد ، وطول الطريق !

وكان العالِمُ مدرسة منهاجية ، ودائرة معارف متكاملة ، وحلقة اتصال دائمة بين المسجد والناس ! !

وكان المساجد ازدهارها وعظمتها فكانت مرجع العلماء . وموطن الفقهاء ، ومجمع الخاصة والدهماء ، ومركز الإشعاع الروحى بأعمق معناه وأقوى دلائله !

ولكن : لا يكمل الصفو فى هذه الحياة أبداً ، ولا يصفو نعيمها طويلا !

فقد انتشرت المذاهب الهدّامة بدخول الفرس ، كالمانوية والمزدكية والفلسفات الإغريقية والهندية والرطانة الأعجمية أو المهجنة ، وواجه العالم الإسلامى موجة من التيارات المتضاربة المتدفقة واقتحمت المشاكل الفلسفية العقل والقلب اقتحاما عنيفاً ؛ وزلزلت عقائد بعض الناس !

ودخل المعتزلة ميدان الجدل دخولا سافراً بيناً ، وكانوا يقصدون

أول الأمر استعمال عقولهم لإفحام الزنادقة الدخلاء ، وإلزامهم الحجة عن طريق العقل ثم تعمقوا فى هذا الميدان حتى وصلوا إلى ذات الله وصفاته وأسمائه وكلامه ، مما أدى إلى البلبلة والاضطراب كما بينا ذلك آنفاً ومن طبيعة العصر الذى تكثر فيه المنازعات ويصطدم باحتكاك المدنيات المختلفة - بعضها ببعض - أن تظهر فيه آراء وأخلاق منحرفة ، ويكثر الشذوذ الفكرى والشذوذ الاجتماعى حتى يصبح الشاذ هو الكثير ، والغريب هو المألوف !

ظهرت كل هذه الأمور فى العهد العباسى من وقت أن استقرت الأمور لهذه الدولة ..

ولما جاء عصر المأمون قويت العناصر الغريبة واشتدت ، وكان للفلسفة الجديدة والعلوم الجديدة من المأمون أعظم ناصر فكثرت الآراء الغريبة على العقل الإسلامى .

واختار الإمام أحمد أن يعيش محلقاً فى سماء السلف الصالح بروحه حتى لقد وصفه بعض معاصريه بأنه تابعى كبير تخلف به الزمن !

ولا شك أن الإمام أحمد لم يكن سعيداً داخل نفسه بهذا الموقف السلبى أول أمره مع المعتزلة .

ولم يكن راضياً به أبداً : وكان يعلن عدم رضاه فى حلقات دروسه وفى رسائله إلى تلاميذه . وكانت فلسفته الخاصة وورعه المكنون فى أعماق نفسه لا يساعد على ثورة على الدولة لانحرافها فى الرأى عن منهاج السلف ، وسنة الأولين .

ذلك المنهاج الذى ينهى كل النهى عن المراء المقصود ، والجدل الممقوت والاجتهاد المغلول أو المبتور ، والخوض فى الأمور خوضاً يؤدى إلى حل

السلاح أو إهدار الدماء . فقد ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتاً فى رَبَض الجنة ، لمن ترك المراء وإن كان محقاً .

وكان نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم يرشد بالسلوك العملى إلى قفل أبواب الجدل من أساسها لأنها لا تؤدى غالباً إلى خير كثير . .

وفى غزوة بنى قريظة أجاز للذين صلوا العصر فى ميعادها المحتوم عملهم ، كما أجاز للذين صلوها فى المكان الذى ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم عملهم ، قطعاً للكلام ، وسداً للذرائع ، وإباحة للاجتهاد ما دام بأصول وفى مواضعه .

واستمر العالم الإسلامى بعيداً عن الجدل والمناظرة فى عهد الشيخين أبو بكر وعمر ، ومن بعدهما : عثمان وعلى رضوان الله عليهم أجمعين .

وفى زمن الفتنة العلوية بذرت الفتنة بذورها العميقة ، ولكنها دفنت رأسها تحت التراب لتنبت خصبة مزهرة حين تسنح لها الفرصة ، ويتهيأ لهـا الزمن . .

إن الأمة الإسـلامية حين ابتعدت عن الجدل ، وواصلت زحفها العقيدى المقدس ، آتت أكلها الطيب وثمرها الحلو ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ونحن فى هذا لا نقول :

إن العقول لم تستفد من حرية الرأى الاعتزالية ، ولا من دعوتهم إلى انطلاق العقل ، ولا من جلوسهم للمناظرات القصيرة والطويلة .

ولـكن الذى نأسف له أن المعتزلة ـ دعاةَ الحرية فى الرأى والعقيدة ـ يحملون غيرهم على رأيهم بقوة السيف والسلاح .

حتى تحدث المحنة ويضطرب الرأى العام الإسلامى .

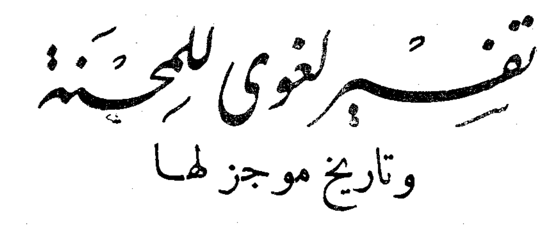
إن المأمون كان يحارب الروم فى وقت المحنة !!

ولكن المأمون والمعتصم والواثق اشتغلوا بالمحنة عن أمور جسام، وكان الإمام أحمد يواصل مدرسة الحديث ويوزع علمه على الناس ، ولكن المحنة عزلته عن هذا الخير وحرمت العالم الإسلامى من جهود عقلية نيرة ، وقلب زكى لبيب !

وقبل أن نغوص فى أعماق المحنة وبواعثها ونتائجها أردنا أن نجول جولة سريعة فى تاريخ المحنة .

ونقدم تفسيراً لغوياً لها لأننا لم نجد هذا الفصل العلمى فى كل الكتب التى كتبت عن محنة الإمام أحمد .




تقرير لغوي للمحنة
وتاريخ موجز لها

المحنة ما يمتحن به الإنسان من بلية !

يقال مَحَن فلان فلاناً : اختبره وجرّبه !

ومحنه عشرين سوطاً : ضربه !

ومَحَن الفضة : صفّاها وخلصها بالنار !

ومحن الثوب : لبسه حتى أخلقه !

ومحن البئر : أخرج ترابه وطينه !

ومحن الناقة : جهدها بالسير !

ومحن القول : نظر فيه وتدبره !

والمَحْن : أن تدأب يومك أجمع فى المشى أو غيره !

والمُحُونة : المحق والبخس !.

وذهب المستشرق (ولتر باتون) إلى أن المحنة خاصة بالاختبار أو الاضطهاد الدينى ! ومن هنا فهو يطلق على المحنة التى تعرض لها العلماء أيام محاكم التفتيش أنها اختبار دينى واضطهاد من المسيحية للأفكار !

ولكن كتب اللغة ، والتاريخ والأدب تعمم اللفظ وتطلقه على كل بلاء يصيب الإنسان .

وللمحنة تاريخ طويل على الأرض وقاتم ، ينبع من أعماق القضاء والقدر وينفذ فى أسرار الملكوت الأعلى والأدنى ، ويجرى بالقوة العليا على من شاء وما شاء كيفما شاء !

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » الأنعام : ١٦

تاريخ لا يعرف الابتسامة الطويلة ، ولا العريضة ، ولا المهاد اللين ، ولا الفراش الوثير .

ولكنه تاريخ لابد منه فى عالم البشر ودنيا الناس .

فلولا المحنة لاضطرب حبل الحياة واختل ميزان القوانين ، وذابت عناصر الصلاح فى عناصر الفساد . ولولا البلاء وتوقعه لازدادت نقمة الإنسان على أخيه الإنسان ولازدادت معصية الإنسان للرحمن ، ولتضاعف من الحكام والظالمين الفجور والطغيان !

وإذا كان الإنسان مع خوفه من الشر ، وارتجافه من المصيبة يقارف الآثام ، ويظلم إخوته بذنب ومن غير ذنب ، ويبغى على عشيرته فى البر والبحر . . . فما بالك لو فرغ باله من هذا الخوف ، وخلت دنياه من هذه الأكدار ؟ ؟

ولذلك ، فنصوص القرآن تؤكد هذه المعلومات بأساليب متنوعة ، وآيات متفرقة !

والتقرير العام للقرآن عن الإنسان عليه لا له ، وضده لا معه :

« إنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ والأرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا »

الأحزاب : ٧٢

« أَوَلَمْ يَرَ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ، فَإذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِين »

يس : ٧٧

وإذا تحدث القرآن عن طبيعة البشر ، كان حديثه حديث العليم الحكيم

« وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » فاطر : ١٤

فإذا كانت هذه الطبيعة مصحوبة بالغموض كأنه جزء منها ، فهذا غموض بالنسبة لنا لا للخالق عز وجل :

« إنَّ اللهَ لا يَخْفَى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء هو الذى

يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » آل عمران ٤، ٥

ولنستعرض بعض نصوص القرآن فيما يتعلق بذلك :

« وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » يونس : ١٢

« وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » النحل: ٥٢، ٥٣

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً » الإسراء : ٨٣

« وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » الروم : ٣٣

« وَإِذَ مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » الزمر : ٨

« لَا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ » فصلت : ٤٩

كل هذه النصوص تثبت أن الإنسان لابد أن يمتحن ولا بد أن يختبر كى تتبخر دوافع الشر فى نفسه ، وكى تذوب سيئاته فى محنتـه ، وكى ترتفع درجته عند ربه .

ولقد ورد فى هذا المقام ، قصة صوفية رمزية تقرب المعنى إلى الذهن وتشير إليه بوضوح .

يقول الصوفية :

إن الله عز وجل خلق النفس البشرية ، ثم غمسها فى النعيم ، وسألها : من أنا ؟ فقالت النفس :

أنت أنت وأنا أنا .

فغمسها الإله فى النعيم مرة أخرى وسألها نفس السؤال فأجابت نفس الجواب .

وفى المرة الثالثة غمسها فى الجحيم وسألها من أنا ؟ فصرخت وقالت : أنت القوى العزيز ، وأنا الضعيفة المسكينة .

لا يهمنى أن هذا الخبر صحيح ، أو غير صحيح والذى عنانى فيه أنه يدل على شَرِّيَّةِ النفس وكمون السوء فيها .

وهناك طائفة تسمى الملامتية ، من الصوفية ، نشأت فى خراسان : كان كل همها أن تؤدب النفس وتتهمها فى كل صغيرة وكبيرة .

ولهذه الطائفة تعاليم قاسية جدا فى هذا الشأن .

* * *

والتكوين الغريزى ، والتحليل الكيماوى لعناصر الأرض الستة عشر التى يتكون منها جسم الإنسان ، دليل قاطع على أن المحنة ضرورية لاستقامة الإنسان فى شِرعته ومنهاجه !!

ويشير إلى ذلك رسولنا الكريم فى الحديث الذى رواه : أبو موسى الأشعرى وأخرجه الترمذى وحسنه « إن الله عز وجل خلق آدم من قبضته فيها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأحمر ، والأسود ، وبين ذلك : والسهل والحزن ، والطيب والخبيث » ويهمنا هنا الجانب المحنى ، فمن النـاس مَن يكون سهْلا أمام المحنة فتمر

عليه وتعصره ، ومنهم من يكون حزنا أمامها فيقاومها وتقاومه ، ويصارعها وتصارعه !

وسنعود إلى ربط هذا الموضوع فى الفصل التالى إن شاء الله !!

وهذه السهولة والحزونة فى دنيا الاختبار هى القول الفصل ، والميزان الدقيق :

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَزُلْزِلوا حَتَّى يَقولَ الرَّسُولُ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ» البقرة ٢١٤ «وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ، وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» آل عمران ١٤١ ، ١٤٢ «أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقولوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؛ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» العنكبوت ٢ ، ٣

* * *

وكان أول ضحية لأول محنة فى عالم البشر : هو أبونا آدم وأمنا حواء ، يوم أن أزلهما الشيطان فأخرجهما مما كانا فيه ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ودلاهما بغرور .

وهبط المخلوقان الممتحنان إلى أرض النعمة والبلاء ، وقد انكشفت سوءاتهما ، وحار دليلهما ، وأخذا يبحثان عن مأوى فى العالم الفسيح الرحب وطفقا يخصفان عليهما من ورق الأشجار ، وكم عاشا أياما من غير أكل أو شراب بعد أن قيل لآدم :

«إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى»
طه : ١١٨ ، ١١٩

وزغردت حواء لولديها هابيل ، وقابيل . . ولـكن القضاء الغـالب لم يتركها لتتم زغرودتها ، ولا لتكمل فرحتها . وكان مسرح المحنة الثانية :

قال قابيل : آترك لي أختي يا هابيل ؟

وقال هابيل : إن الكلمة هنا للشريعة لا لك . وقال قابيل : أنا سيد الموقف .

وكان الجمال والتعصب الأعمى بالرأى هما عنصرا الشر فى هذا الميدان .

وكم فتن الجمال رجالا ، وضعفت أمامه نفوس .

قال هابيل : لنقدم قربانا ..

وتقبل الله من هابيل ولم يتقبل من الآخر .

قال قابيل : لأقتلنك .

وقال هابيل : « لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ » وأتم الله سبحانه القصة فقال : « فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ؛ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ » المائدة : ٢٨ - ٣١

وأريق أول دم على الأرض ، وانقلبت الزغرودة إلى صرخة مدوية وأسدل الستار ؟

وإذا كانت محنة هابيل وقابيل أول محنة فردية وقعت فى الأرض ، فقد كان الطوفان فى عهد نوح أول محنة جماعية وقعت كذلك ؟

ولئن دل هذا الطوفان على شيء ، فعلى أن المعصية لا تنبت فى واد إلا كانت المحنة هى الثمرة المباشرة لهذا النبت المر الخبيث ؟

وتحدث القرآن فى مجال المحنة الفردية أيضاً عن قطروس الإسرائيلى ، وهذه المحنة تصور لنا قوانين القدر فى كل زمان ومكان !! يوم يتحدث أهل الدنيا بلغة المال فيذكرونه وينسون الخالق ، ويتجبرون وينسون أنهم ضعفاء ، ويعملون كأنهم خالدون ، وينسون أنهم هالكون !!

« وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدا ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلِئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ، لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحدًا ، وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ، إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ، فَعَسَى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ، وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ، هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْبًا » الكهف ٣٥ ـ ٤٤

* * *

وإذا كانت المحنة تصلى فرداً من الأفراد ، فقد تصلى الجماعات القليلة والأناسىّ الكثيرين .

فالقضاء لا يخشى بأس أحد ، ولا يرهب سطوة الناس !

هذه جماعة من البشر ، ورثت - حائطا - عن أبيها الشيخ الكبير !!

وكان هذا البستان دانى القطوف ، مزهر الثمرة ، مفتح الأكمام باسق النخل لها طلع نضيد ، عامر السنابل ، مضاعف الحب ، وكان صاحبه الشيخ يقسمه ثلاثة أقسام : قسم له ، ولذريته ، وقسم للفقراء والمساكين ، والقسم الثالث للإنفاق منه على البستان الكبير .

فلما آل الأمر إلى الورثة ضَنُّوا بقسم الفقراء ، ومنحة المساكين ، وبيتوا فى أنفسهم أمراً ، فكانت المحنة فى المال كله ، وكانت العبرة التى قصها علينا القرآن فى سورة القلم فقال : « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ . فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ . وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ » سورة القلم : ١٧ - ٣٢

وإذا كانت هذه المحنة الجماعية تعرض لها أصحابها بسبب الجحود والعقوق ، فإن هناك محناً تتعرض لها الجماعات بسبب العقيدة ، والدين !

وقد قص القرآن علينا فى ذلك قصة أصحاب الأخدود الذين طاردهم ذو نواس اليهودى ملك اليمن ، وأراد منهم أن يرجعوا عن مسيحيتهم التى

اعتنقوها فأبوا ، فأمر بالنار فأوقدت لهم ، وبالأخدود فحفر لهم مكان عميق في الأرض .

وأصحاب العقائد حين يستمسكون بها ، وتُشْرب قلوبهم حلاوة الإيمان لا يخافون النار ولا يرهبون بأسها ، ولا لظاها فقابل أصحاب الأخدود المحنة بالجأش الرابط ، والفؤاد الثابت ، والتسليم الكامل لله رب العالمين !

حتى المرأة التي تضعف أمام العذاب ، وتجبن أمام النار ، وجدت مشجعاً من ابنها الصغير الذي ترددت من أجله فقال لها : اصبري فإننا على الحق يا أماه . . وصبرت حين ألقيت في النار ، فكانت من المؤمنات القانتات !! وأقسم القرآن :

« وَالسَّماءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ، وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ، قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ، الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ ، وَالأَرْضِ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » البروج ١ ـ ١٠

وقد تكون المحنة بسبب تقصير في الطاعة ، أو تخلف عن ركب الجهاد أو قعود عن الخير مع الاستطاعة ؟ ومن هذا القبيل محنة المخلَّفين الثلاثة : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ! حين قعدت بهم عزائمهم عن اللحاق بركب الجهاد مع رسول الله في غزوة العسرة وندموا ندما شديداً . حتى تاب الله عليهم ، ونزل في ذلك : « لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ . وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ »

وعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذينَ خُلِّفوا حتى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَت وَضَاقتْ عَلَيْهِمْ أنفُسُهُمْ وَظَنوا أَنْ لَا مَلْجأَ مِنَ اللهِ إلَّا إليْهِ ثمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليَتوبوا ، إنَّ اللهَ هوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » التوبة : ١١٧ - ١١٨

ومن المحنة الجماعية التى هزت المسلمين فى صدر الإسلام جدْب المسلمين فى العام الثامن عشر للهجرة !! وهو عام الرّمادة ذلك العام الذى امتنع فيه المطر عن السقوط ، وانحبس النبات فى الأرض عن الظهور ، واحتجب لرزق عن البطون ، حتى أجدبت ، وضمرت ، وهزلت الأجسام وضعفت والرمادة فى اللغة الهلكة والشدة !!

وسمى العام بها : لأن الريح كانت تسفى تراباً كالرماد . أو لأن الأرض صارت سوداء كالرماد !!

وقد أيقظت هذه المحنة شعور العالم العربى إيقاظاً عجيباً ، وأقبلت المساعدات من كل فج عميق .

* * *

والمحنة قد تصيب شعباً من الشعوب وهى إما محنة إبادة كما حدث لقوم ثمود وقوم عاد ! « فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ، وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » الحاقة : ٥ - ٨

وإما محنة اضطهادية للتربية والتقويم ، كما حصل لشعب بنى إسرائيل بعد أن ضل الطريق ، وانحرف عن المنهاج السوى ! وكفر بأنعم الله عز وجل ! فقد خصهم الله بالخطاب « يا بنى إسرائيل » وهذه نعمة كبرى ، وأسكنهم مصر ، وحفظهم من استئصال فرعون لهم ، وفَرَق لهم البحر ، وظللهم بالغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وفجر لهم اثنتى عشرة عيناً من الحجر ولكنهم

مع ذلك كله لم يحمدوا الله على هذه النعم ، فعبدوا العجل من دون الله ، «واتخذوا عجلا جسدا له خوار» وتمردوا على نبي الله موسى وطلبوا منه أن يروا الله جهرة وأن يأتيهم بأطعمة نباتية ، وقتلوا النبيين بغير حق ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وكتموا ما أنزل الله من الكتاب ، وكانوا إذا خلوا بالمؤمنين قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون ، وادعوا أنهم ابناء الله وأحباؤه ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة ، وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض ، وأشربوا العجل فى قلوبهم ، وادعوا أن الجنة لهم وحدهم ، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، وفرض عليهم التيه أربعين سنة ، وضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله .

وفى العصر الحديث يمر شعب فلسطين والجزائر وأندونيسيا وما شابههم من الشعوب المضطهدة بمحن طاحنات وفتن سود .

ولكنها على كل حال محن تحرك شعور المؤمنين ، وتوقظ نفوسهم ، وتلهب مشاعرهم ، وتجمع كلمتهم « إن المصائب تجمعن المصابينا » .

* * *

وكثيرا ما تعرضت الدعوات إلى الله للبلاء فى سبيل الله ! والمؤمنون بها ، والداعون إليها لاقوا الأذى المصبوب ، والعنت المحموم من طبقات السادة والعتاة والمترفين ! وفى القِمّة من هؤلاء الدعاةُ الأنبياء والرسل ، فقد ألقى إبراهيم فى النار ، ويوسف فى السجن ، وقد فتن داود وسليمان ، وابتلى أيوب ومسه الضر ، وتعرض المسيح[1] لاضطهاد اليهود ولاقى

---

(١) انظر تفصيل هذا الاضطهاد فى كتابنا الدين والانسان .

سيد الدعاة صلى الله عليه وسلم من البلاء والمحنة ما تعجز الأقلام عن تبيانه، والألسنة عن توضيحه، وتاريخ الإسلام فى أيامه الأولى يحمل فى كل صفحة من صفحاته، أو سطر من سطوره محنة ترينا عزمة المؤمنين، ويقين الثابتين.

نكتفى هنا بذكر مثل واحد هو خُبَيْب الأنصارى، حينما أسره المشركون، على غرة منه بعد غزوة بدر، فتقدم إليه أبو سفيان، وخيره بين الكفر بربه ودينه، والإيمان باللات والعزى أو الموت فيقول خبيب:

ما أحب أن أرجع عن الإسلام وأن لى ما فى الأرض جميعاً، ويقول له أبو سفيان مرة أخرى: لنقتلنك، فيقول خبيب، والله لا أرجع عن الحق أبداً، وإن قتلى فى الله لقليل!.

ورُبط رضى الله عنه بسارية وتقدم إليه أربعون شابا من أبناء قتلى المشركين فى بدر يهبرون لحمه بسيوفهم وهو ثابت الجنان فى هذا الموت البطىء، يسبح بحمد ربه ويردد شعره الخالد وهو فى آخر الأنفاس:

إلى الله أشكو كربتى ثم غربتى ... وما أرصد الأعداء لى عند مصرعى
وما بى حذار الموت إنى لميت ... ولكن حذارى جحم نار مُلَفَّع
فلست أبالى حين أقتل مسلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
ولست بمبد للعدو تخشعا ولا ... جزعا! إنى إلى الله مرجعى

ولقد قابل ياسر وسمية الموت بشجاعة بعد أن طعنهما الكفر واسْتُشهد عمر وهو يصلى، وعثمان وهو يقرأ القرآن، وعلى وهو يسعى إلى قرآنه

الفجر ، والحسين وهو يتجهز لقتال البغاة ، وابن الزبير وهو يعد العدة وكان ذلك كله عنوانا لأحداث ضخمة ..

فإذا قلبنا صفحات أخرى من التاريخ وجدنا أفراداً وجماعات تعرضت للبلاء فى سبيل عقائدها ومبادئها !

نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

غيلان الذى قتله هشام بن عبد الملك ، وجرمه أنه تكلم فى بنى أميّة بسوء ، فاتهموه بالكلام فى القدر وكفّروه ، ثم قتلوه !

وعبد الرحمن بن أبى ليلى الذى ضربه الحجاج حتى مات وجرمه أنه تكلم فى السياسة بحرية وجرأة !

وخبيب بن عبد الله بن الزبير الذى أمر الوليد بتعذيبه حتى الموت ، لأنه كان يتناقش مع علماء عصره على مستوى عال فى مشكلات الدولة وسياسة الحكم !

والإمام الجليل مالك بن أنس ، ذلك الطود الشامخ لم تتركه « دنيا المحنة » بل زارته زيارة قاسية مفاجئة فى عهد جعفر بن أبى سليمان عم أبى جعفر المنصور ، وكل جرمه أنه أفتى فتوى ترضى ربه ودينه وضميره ، فقيل له : تنازل عنها ، قال الإمام مالك : لا ، فضرب بالسوط حتى دمى جسمه ، وأرادوا التشهير به ، وأراد الله سبحانه رفع قدره ..

فكان الناس فى المدينة إذا رأوا مالكا قدّروه وهابوه وكان الضرب وسام شرف مجانى لا يعرفه إلا أهله وذووه !

ولقد لقى أبو يعقوب البويطى محنة خلق القرآن فمات وهو مغلول فى

القيد ، بعيداً عن أهله وعياله .

وقد قتل العالم الجليل ، والمحدث الكبير ابن حبان البستى من طبقة البخارى بدعوى أنه يعرف بعض العلوم الرياضية !

وكثيراً ما قتل الأمويون والعباسيون بالجملة « والقطّاعى » - باسم الدين - لا لشىء إلا لخوفهم على السلطان والصولجان وفى عهد الفاطميين قتل أبو بكر ابن هذيل ، وأبو إسحاق من فقهاء السنة وسحبوهما فى أذناب الخيل ، لعدم إفتائهما بمذهب جعفر بن محمد . .

ولقى الصوفية فى عهد الأمراء من المحن ما لا يخطر لك على بال .

واتهم محمد بن مسرة القرطبي سنة ٣١٩ هـ بالزندقة ، وما كانت عنده إلا جرأة فى الحق ، وأوذى أبو بكر بن العربى لأنه كان جريئاً فى الحق وجريئاً فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فعزل عن القضاء ، وصودرت جميع أمواله . .

وتعرض سيف الدين الآمدى بسبب ذكائه الخارق إلى حسد الفقهاء واتهامه بفساد العقيدة ، فهرب إلى حماه بالشام ونجا من العطب بالهرب .

وتعرض لسان الدين ابن الخطيب عالم الأندلس الأوحد للبلاء ، حيث حاكمه قاضى غرناطة بحضرة الفقهاء وسجلوا عليه « زندقة » حسداً وبغياً ، ونكل به وعذب ، وأفتى بعض الفقهاء بسجنه وقتله ، فخنقه الأعداء وأخرجوا جسده وأحرقوه ! !

وتعرض الحلاج لذلك ولقى نفس المصير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكان من الفتن الكوالح هذه الفتنة التى نشبت بنيسابور عاصمة خراسان

بين الحنفية ، والشيعة ، وأمر السلطان بلعن المبتدعة على المنابر ، وصدرت الأوامر بنفى الشافعية .

فهاجر من تلك البلاد أربعمائة من قضاة الشافعية ، والحنفية وخفتت أصوات الحق فى خراسان والشام والحجاز وبقية أنحاء الأمة الإسلامية !

فإذا ماوصلنا إلى ما لاقيه المسلمون عامة من التتر والاستعمار فى العصر الحديث من البلاء والاختبار علمنا أن الإسلام والمسلمين لاقوا عنتاً شديداً واضطهاداً كبيراً .

* * *

ومع هذا الحرمان وهذا الاضطهاد ، للأفراد والجماعات خرج الإسلام صافياً منصهرا . . محفوظ القرآن بعناية الرحمن ، ظاهر المبادئ ، واضح المعالم ، عظيم المنهاج .

إن تاريخ المحنة تاريخ قاتم كما قلت :

فإذا تعرض بعض الناس للبلاء فى سبيل الله ، فليعلموا أن هناك مئات وآلافا لاقوا مصارعهم ، وأوذوا فى سبيل الحق والدين . .

إن للمحن فلسفة رائعة فى عالم الأفراد والجماعات ، والشعوب والأمم .

سبحانك اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير .

والمؤمن الحقيقى هو الذى يكون أقوى من المصيبة ، وأجلد من الأحداث ، وأحدَّ من الخطوب ! !

ولن يقوى على ذلك إلا باليقين فى الله ، وقوة الوثوق فيه ، وحسن الصلة به ! !

إن هذه الصلة توسع آفاق النفس ، وتجلب لنا الخير والعافية !

آفاق النفس فى استقبال المحنة

وتختلف النفوس البشرية فى استقبال المحنة اختلافاً كثيرا . .

فبعض الناس يذوب أمامها ولا يتماسك !

ولعل خِلْقَةَ هذا الصنف من « الحمأ المسنون » تغلبت على عنصر الروح فيه ! !

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا والآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » الحج : ١١

وهذا الصنف كثير جدا فى الناس ! !

يلعب بعواطفه الخبر البسيط ، ويطير فؤاده للنبأ الخفيف ! !

« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » يوسف : ١٠٣

« وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » إبراهيم - ٤٣

وهؤلاء يعيشون موزَّعين بين هموم الحياة ومفاجآت الزمن لا تطمئن إلى قولهم ، ولا تثق فى تصرفاتهم !

بصرهم زائغ ، وعقولهم فارغة ، وأفكارهم تافهة .

حتى مغلوبون على أمرهم ، لا ينفعون فى سياسة ولا سيادة ، ولا يعتمد عليهم فى مراكز أو رياسة .

أولئك هم الجبناء المفتونون ، والفرَّارون الغرَّارون ! .

* * *

وهناك صنف آخر من الناس لا يتميز فى حقيقته عن الصنف الأول .

ولكنه يزيد عليه الجعجعة والادعاء ! وكأن خلقته « من صلصال كالفخار » خَطَّطَتْ معالم حياته وجعلت تصرفاته كصلصلة الجرس صوت ولا عمل وجعجعة ولا طحن ، وظاهر ولا باطن ، ولسان ولا قلب .

وهؤلاء هم المنافقون الأدعياء .

يحسنون العبارة والطلاء .

فإذا فاجأتهم المحنة انخلعت نفوسهم فطار لُبُّهم وتلجلج لسانهم .

« وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ . يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » المنافقون : ٤

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » الحشر : ١٤

وهذه الجماعة كالسوس ينخر فى جسم الأمة .

ما تحل فى شعب إلا أذلَّتْه ، وما تصاحب جيشاً إلا هزمته .

وكلنا يذكر حادثة عبد الله بن أبيّ ، رئيس المنافقين يوم أن رجع بثلث الجيش فى غزوة أحد بالحجة الواهية والمظهر الفاضح .

وهناك صنف ثالث يفهم الحياة نعمة ونقمة ، ومنحة ، ومحنة ، ويسراً ، وعسراً .

فعمل موازنة حسابية فوجد أن الدهر يومان وأن الكون سماء وأرض وأن الزمان لا يعطى إلا بقدر . ولا يأخذ إلا بقانون .

فضبط نفسه فى الحالين ، وذكر فى إحداهما الأخرى :

« لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » الحديد : ٢٣

لا يختال إذا غنى ، ولا يحزن إذا افتقر .

ولا يبطر إذا رأس الدولة ، ولا يتكدر إذا لزم بيته .

وهذا الصنف المتوازن قيم وكريم ، ولكنه قليل .

« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً » الأحزاب : ٢٣

وهؤلاء هم عُدة الأمة ، وميزانها الصحيح ، وساعدها الأيمن ، ورواسيها الشماء « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » آل عمران : ١٧٢، ١٧٣

هؤلاء يقلقون من الدنيا لا عليها ، ويستعجلون الباقية لا الفانية . .

ومنهم ـ فى نظرى ـ ذلك الرجل المؤمن الذى كان يحدث قومه فجاءه نبأ موت ولده فما قطع حديثه ـ بل أتمه ثم قال : « إن لله وإنا إليه راجعون »

ثم نهض ليستقبل مصيبته بنفس الهدوء الذى يقابل به الخبر الآخر : جاءك مولود .

وهذه نفوس تعمقت فى فهم المخبوء ، ونظرت إلى المكنون نظرة عميقة مؤمنة ، فآمنت بالله ورضيت عنه .

وسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستقبل المحنة بخير ما تستقبل به .

العين تدمع ، والقلب يحزن ولا نقول ما يغضب ربنا .

ودمع العين ضرورى لأنه دليل الرحمة الموجودة ، فمن الشقاء جمود العين .

وحزن القلب ضرورى لأنه إقرار بالعاطفة الإنسانية ، واعتراف بالشفافية الوجدانية .

ولا نقول ما يغضب ربنا لأن القول تعبير عما فى القلب ، والقلب

موصول بالله ، ولأنه نبى ولأنه عظيم ولأنه مُرَبٍّ لكل كائن على وجه الأرض ، مهما عظم قدره وجل شأنه .

* * *

ومن هذه الآفاق الواسعة العميقة استقبل الإمام أحمد بن حنبل محنته الكبرى راضى النفس . مطمئن الفؤاد كما سنحدث عن ذلك فيما يأتى إن شاء الله .

متى بدأت مشكلة خلق القرآن

ذكر ابن الجوزى أن السلف لم يكونوا يعرفون الكلام عن خلق القرآن حتى ظهرت المعتزلة فتكلموا فيه وأطالوا الكلام !.

ولعل ابن الجوزى يقصد الكلام الجماعى الشائع، أو الجهر بالرأى !. لأنه قد حصل كلام فى خلق القرآن قبل ذلك، ولكنه لم يلبس ثوب الجهرية أو الإصرار !.

بل كان متسترا بستار كثيف حصين !. فقد جاء فى كتاب سرح العيون أن فكرة « خلق القرآن » نبتت أولا من الجعد بن درهم ولعل ذلك بتأثير من أفكار يهودية كان يذيعها طالوت اليهودى، وأخذها عنه أبان ثم الجعد !.

وكان الجعد بن درهم ذا مكانة علمية كبيرة فى الدولة الأموية أهّلته لأن يُختار مؤدبا للخليفة الأموى «مروان».

ولكن إذاعته للخبر جعلت الدولة تسقطه من نظرها، وتطرده من شامها وتتعقبه فى كل مكان يذهب إليه ! وسواء صح القول باقتباس الفكرة من طالوت اليهودى أو لم يصح، فإن الذى أكدته الأخبار أن الجعد هو الذى نشر هذا الرأى على الناس فى وقت لم تكن الأفكار مطيقة له، ولم يكن المجتمع الإسلامى قابلا له لا من قريب ولا من بعيد !

ولا ندرى : هل كان الجعد يقصد بإذاعة فكرة «خلق القرآن» بلبلة الأفكار، واضطراب العقول، أم هو كان يتكلم بالرأى طرافة واستملاحا ! كشأن الجديد دائما أم أنه كان يتكلم به فهما وعقيدة كما تكلم به المعتزلة فيما بعد ؟.

هناك شاهد قوى يشير إلى ترجيح الفهم الثالث !. ذلك أن الجعد حين صدر القرار بنفيه، وهاجر إلى الكوفة. وعلم أن الدولة أعلنت

الحرب عليه ، واستقربه الْمُقَام فى الكوفة لم يعلن توبته ولا رجوعه ، بل زاد فى إصراره ولَقَّنَ ما علم لِجَهم بن صفوان ، وطالبه أن يكون ابقا فى إذاعة الرأى بين الناس ! .

وكانت نهاية الجعد على يد خالد بن عبد الله القسرى والى بغداد الذى أقسم لَيُضَحينَّ فى عيد الأضحى بالجعد . . . وضحى به ! . وكذلك كانت نهاية جهم على يد سالم بن أحوز بمرو سنة ١٢٨ ﻫ .

ولكن الأفكار لا تموت بموت أصحابها بل تسرى فى أعماق الحياة وتعيش فى الانزواء إلى حين ! .

وفى عهد هارون الرشيد رفعت الفتنة رأسها على لسان بشر المريسىّ ، فتوعده الرشيد وأعلن أنه إن أظفره الله به ليَقْتُلَنَّهُ قتلة ما قُتِلها أحد من قبل . ودفنت الفتنه رأسها فى التراب ، وغطّت فى نوم عميق ، تنتظر من يوقظها ، أو يهئ الجو لها ! .

وفى خلال ذلك أخذ علم الكلام يبسط نفوذه بين الناس وينشر سلطانه على العقول ! .

وكانت الأفكار قد تهيأت كثيرا لاستقبال الآراء الخارجية والمناظرات المختلفة .

وابتدأت آيات العقل فى القرآن تظهر وتسلط عليها الأضواء .

وأخذ التحليق فى كون الله وآفاقه يأخذ «كرسيا» رسميا فى أماكن الدروس وكليات العلم . .

* * *

وجاء المأمون واستتبّ له الأمر بعد قتل الأمين وفتح لمبادئ الاعتزال عقله وقلبه ومدارس العلم ومنابع الفكر فى الدولة كلها وقدم (ثمامة بن

الاشرس) و (ابن أبى دواد) فى مجلسه حتى كان ابن أبى دواد الوحيد الذى يفتتح على الخلفاء ـ كما ذكرنا من قبل ـ . .

وكان المعتزلة يتحرقون شوقا إلى نشر أصولهم و تعميم مذهبهم وينظرون إلى ذلك كما ينظر مصلح اسلامى يبغى الدعوة إلى الإسلام .

فوجدوا فى المأمون الركن الشديد ، والمأوى الحصين . وبهذا الوصول إلى حاشية المأمون ، سفرت فكرة خلق القرآن سفورا بينا وتكلم بها السلطان فى مجالسه ، ودُرِّسَت فى الكتاتيب . .

ولكن العامة كرهوا هذه المسألة ولم يتقبلوها . .

(١) فهى قادمة عليهم من بيت الخلافة . . وما يخرج من بيت الخلافة يكون موضع شك وريبة دائما من العامة .

(٢) ولأن العلماء . أهلَ السنة المختلطين بالعامة ، لا يتكلمون فى هذه المسائل ، وينكرون الكلام فيها ويرون أنه بدعة ، وذلك له شأن كبير فى التأثير على العامة . .

(٣) فكرة خلق القرآن يتبناها المعتزلة ، والمعتزلة لا يحبون الاختلاط بالدهماء ، ولا يتبسطون معهم ، فهم من الناحية العقلية (ارستقراطيون) والعامة لا يحبون هذا الصنف ولا يقبلون عليه كثيرا ، ويردون أفكاره غالبا ، أو يستشيرون فيها ـ أولا ـ علماءهم القريبين منهم . .

(٤) القرآن بصفة عامة محل تقديس وإجلال ، وكلمة (خلق) فلسفة لا تطيقها عقولهم ؛ وما لهم وشأنها . . ؟

يكفى أن يعلموا (العموم) من القرآن ؛ ولا يتعمقوا تحت السطح كثيرا . . فذلك أمر أكثر راحة لعقولهم وأعصابهم . .

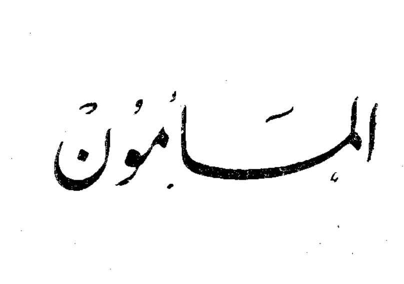
(٥) عاطفة العامة ـ عاطفة جارفة ، فهم لا يحسنون الأخذ والرد ، بل هم جامدون على أفكار وموروثات من الصعب تحويلهم عنها فى زمن يسير .

لهذا ـ مجتمعاً أو متفرقاً ـ رفض العامة فكرة خلق القرآن ، ولم يبيحوا لعلمائهم القريبين منهم أن يتكلموا فى هذه المسألة ، حتى لأنهم مرة شغبوا على البخارى شغباً شديداً لمجرد أنه قال : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة .

ولهذا كله ، فقد وجد المأمون صعوبة كبيرة فى حمل الناس على هذه الفكرة .

وقبل أن نتكلم عن عمل المأمون نلق لمحة خاطفة وضوء يسيرا على شخصية المأمون .




المأمون

هو عبد الله أبو العباس بن هارون الرشيد .

ولد سنة سبعين ومائة فى ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول ، وهى الليلة التى مات فيها الهادى واستُخلف أبوه .

وأمّه أمّ ولد ، اسمها : مراجل ، ماتت فى نفاسها به .

سمع الحديث من أبيه وهشيم وعبّاد بن العوام ويوسف بن عطية وأبى معاوية الضرير وإسماعيل بن عليّة ، وحجاج الأعور !

وأدّبه اليزيدى وجمع من الفقهاء ، وبرع فى الفقه والعربية وأيام الناس .

ولما كبر عُنى بالفلسفة ومهر فيها .

روى عنه ولده الفضل ويحيى بن أكثم وجعفر بن أبى عثمان الطيالسى وغيرهم . قال السيوطى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » :

وله محاسن وسيرة طويلة لولا ما أتاه من محنة الناس بالقول بخلق القرآن .

ومع كونه تربى فى بيئة سُنّيّة ، فإنه لم يتقيد بما نشأ عليه ! فأباح لنفسه الاجتهاد فى الدين ، ومناقشة العلماء فيما يقتنع به من الرأى ، وكان يحمل الناس على ما يراه الحق فإذا ظهر له الخطأ أعلن ذلك فى الناس كما فعل فى مسألة المتعة !!

فلما ظهر على المسرح مسألة « خلق القرآن » . اندفع المأمون فى حمل لوائها بتأثير « ثمامة وابن أبى دواد » المعتزليين بدافع من حرية الرأى التى انطبع عليها .

وأحب أن يفرضها على الناس بادئ ذى بدء ، ولكن يحيى بن أكثم ، ويزيد بن هارون وقفا فى طريقه وقالا له :

اترك العامة على معتقداتها ، ولا تتدخّل فى شئون دينها ، واستمع المـأمون لرأيهما ، حتى مات يزيد بن هارون فتجهز المـأمون لإعلان الرأى وفرضه على الناس بقوة السلطان والجاه !

والسؤال الآن :

هل نعتبر المـأمون مسئولا عن إشعال هذه الفتنة ؟

والجواب عندى — كما يظهر — أن المـأمون لم يكن يقصد شراً بالناس ، ولا إزعاجاً للأمة !

وإنمـا هو الرأى قد اقتنع به ، ورآه الحق ، ورأى أن المسألة خاصة بالعقيدة ، وأن المؤمن الصادق فى نظره هو الذى يقول بخلق القرآن ، والذى لا يقول بذلك هو مشرك فى عقيدته ، معدّد فى توحيده ، وكان من عادة المـأمون أنه إذا اقتنع برأيٍ أنه الحق فرضه على الناس !!

فجرى على عادته ، وساير طبيعته !

والمـأمون لم يضرب أحداً ، ولم يفتّن أحداً ، والسبب فى ذلك أن منيته قد عاجلته !!

ولولا منيته لعذّب واضطهد وفتّن !!

والمسئول عندى — كما قلت وكما سأقول — هو ابن أبى دواد !

لقد كان فى استطاعته أن يدير قانون المناظرة ، ويرسم خطوطها دون أن يسلك هذه الطريق المحفوفة بالمكاره والمحاطة بالمخاطر والأشواك !

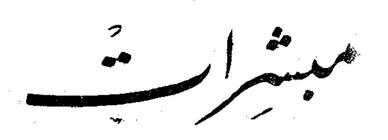
إن المعتزلة سَقَوُا المـأمون من آرائهم حتى ثَمِل ، وملأوا عقله بأفكارهم حتى ثقـل ، وضَلَّعوه بأصولهم حتى أسلس لهم القيـاد ، فأصبح مكرهاً

كالمختار ، اختياراً فى حقيقته اضطرار !!

ومع ذلك فنحن لا نعتبر المأمون داخلا تحت تأثير ابن أبى دواد لدرجة إلغاء عقله ! !

ولكنه تشبع بالفكرة فرأى ما رأى واجتهد ما اجتهد !

مرض المأمون وهو يحارب الروم ، ومات يوم الخميس لاثنتى عشرة بقيت من رجب سنة ثمانى عشرة بالبدندون من أقصى الروم ونقل إلى طرسوس فدفن بها .


مبشرات

الرسول يبشر بالمحنة الحنبلية

جاء فى كتاب المقفى للمقريزى أن الإمام الشافعى رضى الله عنه وهو فى مصر ، رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فأخبره (أن المحنة ستكون ، وأن الإمام أحمد بن حنبل سيمتحن) . قال الربيع بن سليمان فكتب الشافعى كتابا وختمه ، ثم قال لى يا أبا سليمان انحدر بكتابى هذا إلى العراق واذهب بكتابى هذا إلى الإمام أحمد وأعطه له ولا تقرأه ، فحملت الكتاب إلى العراق ووجدت الإمام أحمد يصلى سنة الفجر فلما انتهى من الصلاة قدمت له الكتاب فعرفنى وقرأه . فلما جاء عند موضع فيه ، بكى ، قلت له ما يبكيك يا أبا عبد الله . قال لى : الشافعى يذكر لى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشره أنى سأمتحن !! وأنا أسأل الله سبحانه وتعالى أن يحقق ذلك قريبا قال الربيع فقلت للإمام : هذه بشرى فأين جائزتى ؟ فخلع الإمام أحمد ثوبه الذى يلى جلده وأعطاه لى . فلما رجعت إلى مصر رويت ما حدث للإمام الشافعى فوجدت الشافعى يتمنى لو ظفر بثوب الإمام أحمد .

كانت هذه الرؤيا قبل أن تقع المحنة بسنوات وبذلك رصدت الأقدار السعيدة الإمام أحمد لهذه المحنة العاتية .

وقلنا : (الأقدار السعيدة) . لأن المؤمن الصادق يجد فى المحنة المنحة ، ويجد فى السجن الخلوة والرياضة ما دامت المحنة لله وفى الله .

ولقد فعلت هذه الرؤيا فعل السحر فى نفس أحمد ، كما فعلت رؤيا أخرى رآها هو بنفسه وحكاها لنا ابن عمه حنبل بن إسحاق بن حنبل فقال :

« رأيت فى المنام صديقا اسمه على بن عاصم » واستبشر الإمام بهذه الرؤيا الثانية استبشارا كبيراً وقال : إن عليا تفيد علو المنزلة ، وعاصما تفيد العصمة فى الفتنة .

وللرؤيا فى المنام لطائف ودقائق تَدِقُّ عن الكثيرين وتجل عن التعبير وما يعقلها إلا العالمون وقد تشتمل على رموز وإشارات وأسرار هى أشبه شىء عندى « بالشَّفرة » فى الاصطلاح الحديث .

ولذلك هشَّ الإمام أحمد وبشَّ لهاتين الرؤيتين العظيمتين واستعد نفسيا وعقليا للنّزال وللنضال .

ونحب أن نكرر هنا ما ذكرناه آنفا ، وهو أن الإمام أحمد يقصد بكلام الله غير المخلوق « الكلام الأزلى القديم » لا القرآن المنطوق المتْلُوّ المطبوع ، فالنطق بالقرآن حادث ، والطباعة والكتابة له أمران حادثان . ونحن نتمسك بذلك ، وإن ورد فى كلام الإمام أحمد ما يفيد ظاهره غير ذلك كما جاء فى رسالته إلى مسدّد بن مسرهد بن مسربل ، وقد أشرنا فى ذلك الموضع إلى أن الإمام أحمد أصدر حكمه هذا فى ظروف غير طبيعية ، فقابل عُنف المعتزلة وغُلوّ السلطان بعنف أكثر منه من زاويته الخاصة ، ليقطع أسباب الفتنة ، ويوَهّى حبالها !

فقد رأى الإمام أحمد « سُعْرَ » ألسنة المعتزلة وحِدّتهم وهيامهم « بخَلق القرآن » وتوقُّف بعض الطوائف الأخرى عن الكلام بتاتا ، فأراد رضى الله عنه ، أن يغيّر الاتجاه العام ، وأن يقف مجرى هذه التيارات العنيفة فى هذا الموضوع ! فأعلن ما أعلن ، وذهب إلى ما ذهب إليه . حرصا على كرامة القرآن ، ووحدة الأمة ، وسلامة مصادر الشريعة . وجدير بالتسجيل هنا أن الإمام أحمد واجه هذه العاصفة

العاتية بعاصفة أشد منها وأكثر عُتُوًّا ، فلما هدأت الفتنة وانتصر الحق وأبلج ، عاد الإمام إلى هدوئه ، وقال للمتوكل حين سأله « إن القرآن كلام الله وفقط » ومن قال بغير هذا فإنه كلام غير محمود .

وهذا هو شأن الكبار فى جميع مواقفهم يعنُفون عندما يقابَلون بالعنف ، ويهدأون حين يجدون للهدوء مكانا . .

وهم فى هدوئهم وعنفهم متمسكون بالحق مرتبطون أشد الارتباط وأوثقه باتجاهاته .

والإمام أحمد ينظر إلى العالم الإسلامى على أنه قسمان :

خاصة الفقهاء والمحدثين ، وهؤلاء يجب أن يستعملوا عقولهم فيما ينفع ، وأن يفتحوا قلوبهم لما يجدى ويفيد .

وعامة ، وهؤلاء يجب أن يعيشوا فى المدى الذى تسمح به عقولهم وفى المجال الذى تطيقه نفوسهم . وعلى هذا فالأوجب والأكمل أن ينصرف الناس انصرافا كليا عن البحث فى مسألة خلق القرآن .

وهل فهم العقل كل ما حوله حتى يبحث فيما وراء الطبيعة وماوراء المادة ؟

وسبب آخر فى نظرنا جعل الإمام أحمد يلتزم هذا المنهاج فى مسألة خلق القرآن وهو أن الإمام أحمد كان على علم باللغة الفارسية وكان يعرف أن علم الكلام اختلط بالآراء الفارسية والتراجم الغريبة فأراد أن يبعد القرآن المقدس والكتاب المحكم عن هذا الجدل العقيم والأساليب السوفسطائية ، ولذلك كان ينصح ولده عبد الله دائما أن يلتزم النّص فيما يتعلق بصفات الله وألا يتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وهو منهاج ـ لعمرك ـ مستقيم .

ولعل حادثة الكرابيسى تلقى علينا بيانا وافيا لرأى الإمام أحمد : فقد سمع الإمام أحمد أن الكرابيسى سئل عن القرآن فقال : كلام الله غير مخلوق ، ثم سئل عن التلفّظ به فقال : مخلوق ، فقال الإمام أحمد : هو بدعة . فلما سمع الكرابيسى بردّ الإمام أحمد رجع عن جوابه الأول وقال : تلفُّظى بالقرآن غير مخلوق ، فقال الإمام أحمد عن هذا الجواب : هو أيضا بدعة !.

وظاهر هنا أن الإمام أحمد « بَدّع » الكرابيسى لتكلمه فى أصل الموضوع ، لا للكلام الذى تفوّه به !.

وقد وافقنا على ماذهبنا إليه من السّلَفِيِّين ابن تيمية ، ومن العقليِّين الشيخ محمد عبده !.

قال الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد :

« يَجِلّ مقامُ مثل الإمام أحمد بن حنبل عن أن يعتقد أن التلفظ بالقرآن قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيّفه بصوته » .

وبعد أن وضح لنا رأى الإمام أحمد فى هذه المشكلة — كما فهمناه وأبَنّاه — ندخل فيما ترتب على هذا الرأى من كتب مأمونية وابتلاءات سلطانية ، وسجن واعتقال للإمام العظيم أحمد بن حنبل ...

وسنفتح الآن الباب الأول لندخل على المحنة ...

فقد اعتزم المأمون أن يحمل الناس على رأيه الذى ارتآه ، بقوة السلطان ! . ولكنه رأى من الأقوم فى نظره أن يمهد للحَمْلة بكتب دورية يشرح فيها « نظريته » على الطبيعة ، و « فلسفته » بإسهاب ووضوح !.



الكتب المأمونية

كتب المأمون كتباً متعددة إلى عامله ببغداد وإلى ولاة الأمصار .

وقد كان الكتاب الأول من هذه الكتب لشرح الفكرة وبسط الرأى ، والكتاب الثانى لإشخاص المحدثين السبعة إليه فى طرسوس لمحاجّتهم ومناقشتهم والكتاب الثالث يؤكد فيه نصح الخليفة للرعية واجتهاده فى الرأى وإصراره فى حمل الناس عليه .

والكتاب الرابع يوبخ فيه الممتنعين عن الإجابة بخلق القرآن ويتوعّدهم والكتاب الخامس ينكر فيه أشد الإنكار على من أجابوا تقيّة ، وفيما يلى سنورد نصوص الكتب الأول والثالث والرابع لأهميتها ، كما رواها الطبرى .

ونشير إلى الثانى والخامس ، مبينين نتائج هذه الكتب .

وهاك الكتاب الأول الذى أرسله المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم عامله ببغداد ، وأمر أن توزع منه نسخ على بقية الأمصار :

« أما بعد فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم ، الاجتهاد فى إقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريث النبوة التى أورثهم ، وأثر العلم الذى استودعهم ، والعمل بالحق فى رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والإقساط فيما ولاه الله من رعيته ، برحمته ومنّته . وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حَشو الرعية وسِفْلة العامة ، ممن لا نظر له ولا رويّة ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه فى جميع الأقطار والآفاق . أهل جهالة بالله ، وعمًى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا

بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكر والتذكر ، وذلك أنهم ساوَوْا بين الله تبارك وتعالى ، وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ، ويُحْدثه ويخترعه . وقد قال الله عز وجل فى مُحْكم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » سورة الزخرف : ٢ . فكل ما جعله الله ، فقد خلقه .

وقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » سورة الأنعام : ١ . وقال عز وجل : « كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ » سورة طه : ٩٩ فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها ، وتلا به متقدمها : وقال : « أَلَرَ . كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ . ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » سورة هود : ١

وكل مُحْكم مُفصَّل ، فله مُحْكِمٌ مُفصِّل . والله مُحْكِمُ كتابه ومُفصِّله ، فهو خالِقُه ومُبْتدِعه . ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فَدَعَوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنَّة . وفى كل فصل من كتاب الله ، قصص من تلاوته مُبْطِلٌ قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونِحْلَتَهُمْ ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفُرْقَة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرُّوا به الجهّال ، حتى قال قوم من أهل السَّمْت الكاذب ، والتخَشُّع لغير الله ، والتقشف لغير الدين ، إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيِّئ آرائهم ، تَزَيُّنا بذلك عندهم ، وتَصَنُّعاً للرياسة والعدالة فيهم . فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا من

دون الله وليجة إلى ضلالتهم ، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم ، على دَغْل دينهم ، ونَغْل أديمهم ، وفساد نياتهم ويقينهم . وكان ذلك غايتهم التى إليها جَرَوْا ، وإياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصَمَّهم الله ، فأعمى أبصارهم ، (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرْآنَ أَمْ على قلوبٍ أَقْفَالُهَا) سورة محمد : ٢٤ .

« فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورءوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظا ، والمخسوسون من الإيمان نصيباً ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق فى أوليائه ، والهائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحق من يتهم فى صدقه ، وتطرح شهادته ؛ ولا يوثق بقوله ولا عمله . فإنه لا عمل إلا بعد يقين ؛ ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد . ومن عَمِى عن رشده وحظه من الإيمان بالله وبتوحيده ، كان عما سوى ذلك من عمله والقصد فى شهادته أعمى وأضل سبيلا .

ولَعَمْرُ أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب فى قوله ؛ وتَخَرُّص الباطل فى شهادته ، من كذب على الله فى وحْيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وإن أولاهم برد شهادته ، فى حكم الله ودينه ، مَنْ رَدَّ شهادة الله على كتابه ، وبَهَت حق الله بباطله .

فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون ، فى خلْق الله القرآن وإحْداثِه . وأعْلِمْهُم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ،

ولا واثق فيما قلَّده الله واستحفظه من أمور رعيته ، بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه . فإذا أقروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فَمُرْهُم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس . ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ؛ وترك اثبات شهادة من لم يُقِر أنَّه مخلوق مُحْدث ولم يَره ، والامتناع من توقيعها عنده . واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرِف عليهم وتفقّد آثارهم ؛ حتى لا تُنَفَّذ أحكام الله ؛ إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين ؛ والإخلاص للتوحيد ؛ واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله» اه .

كان هذا الكتاب من الناحية الزمنية فى ربيع الأول سنة ٢١٨ ﻫ وأول ما يلفت النظر فى هذا الكتاب أسلوبه الأدبىّ ، وتعبيره الدقيق ، وأدلته المنظمة ولهجته القاسية ، وخصومته العنيفة .

وذلك كله يجعلنا نرجح أن الكتاب أملى على المأمون إملاءً ولم يكن له نصيب فيه إلا التوقيع .

قد يكون الكتاب من أسلوب ابن أبى دواد وقد يكون بإشرافه .

والذى يهمنا هنا أن هذا الكتاب كان هو «النشرة الدورية» والوثيقة الرسمية المعبرة عن رأى السلطان والمعتزلة تعبيرا دقيقا .

وقد كان أثره فى الأمصار عامة وبغداد ومصر خاصة كبيرا .

ولكن الذى نجزم به أن علماء الأمصار وعامتهم واجهوا الأمر بشىء كبيرمن الإنكار ؛ وشىء كثير من الاستغراب ؛ وشىء كثير من التحفظ يعبر عن ذلك قول العالم الكوفى أبى نعيم الفضل الذى قاله بعد كتاب المأمون هذا .

«لقيت ثمانمائة شيخ ونيفا وسبعين منهم الأعمش فمن دونه فما

رأيت أحدا يقول بهذه المقالة يعنى خلق القرآن» .

وأهل بغداد كانوا هم «المحل المباشر لهذه التجربة الجديدة ؛ ولهذه الحملة المأمونية المركزة .

والإمام أحمد رضى الله عنه لم يفاجأ بهذه الآراء . فقد كان سمع بها من قبل ؛ ولكنه - فيما أظن - فوجئ بهذه الحملة تلبس لباسا رسميا وتشتمل على الوعيد والتهديد .

ولذلك لم يكن قد كون أو رسم الخطة التى يواجه بها الموقف .

كل ما عرف عنه أنه ضمن المعارضين، بل لم تكن قد برزت معالم معارضته بروزا بينا

كان يعلن رأيه على تلامذته فى المسجد وبين أصدقائه وعشيرته ، وكان المأمون يطمع فى إجابته عن طريق الرَّغَب أو الرَّهب ، وأخذت المؤتمرات العلمية تجتمع لتكون رأيا فى المسألة ، وأخذت التعليقات تتناثر من هنا وهناك حتى فهم المأمون البعيد عن بغداد والذى يتجهز لغزو البيزنطيين فى آسيا الصغرى أن الرأى العام فى بغداد لا يقر مسألة خلق القرآن وأن الإمام أحمد يتزعّم معارضة شديدة فى صمت وهدوء .

فكتب كتابا ثانيا إلى عامله ببغداد يأمره فيه بإشخاص سبعة من المحدثين المشهورين لكى يمتحنهم على انفراد ، ولكى يضغط عليهم ضغطاً يجعلهم يستسلمون ويجيبون .

وكانت هذه خطة بارعة من المأمون !

فإن ذهاب المحدثين السبعة إليه بهذه الطريقة يجعلهم يضطربون ويرتعدون . وقد كان الإمام أحمد فى قائمة هؤلاء السبعة ولكن ابن أبى دواد رأى كياسة أو دهاء أن يرفع الإمام أحمد من القائمة ، لكيلا يرى العلماء صلابته فيتشجعوا به فرفع اسمه .

المحدثون السبعة

هم : محمد بن سعد ، كاتب الواقدى ، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب أبو خيثمة ، وإسماعيل بن داود ، وإسماعيل ابن أبى مسعود ، وأحمد بن إبراهيم الدورقى .

وكانوا ينتظرون من والى بغداد أن يرسلهم إلى الخليفة المأمون مكرمين معزّزين لِمَا لَهُمْ من مكانة علمية ، ومنزلة شعبية ولكن والى بغداد حملهم فى عنف ، وأرْسلهم فى صورة لا تليق بكرامة العلماء ، ولا بهيبة المحدثين .

وكان المقصود من طريقة إرسالهم أَن تكون نوعاً من الرّهب ، ومقدمة لما سيلقونه من بلاء .

ولم يحدثنا التاريخ ـ فيما وصل إلينا ـ عن وداع عام من أهل بغداد لهم .

ويبدو أن علماءنا هؤلاء قد تأثروا بمقابلة السلطان لهم تأثراً كبيراً ، ولم يتحملوا تهديده ووعيده ، فأجابوه بخلق القرآن ، ووافقوه على رأيه .

وفى رأينا أن رجوع علمائنا المحدّثين عن آرائهم الأولى كان سبباً كبيراً فى هِزَّة الرأى العام ، وبلبلة العقول ، واضطراب حبل العزائم ! !

ولم يكتف المأمون برجوع هؤلاء عن رأيهم ، بل أصدر أوامره إلى إسحاق بن إبراهيم والى بغداد أن يجمع فقهاء بغداد وعلماءها ومحدثيها ليستمعوا جميعاً إلى ما انتهى إليه أمر هؤلاء المحدثين السبعة ! !

وهنا أرسل الإمام أحمد زَفرة حارّة من أعماقه أسفاً على هؤلاء وقال : لو كانوا صبروا وقاموا لله ، لكان انقطع الأمر ، وَحَذِرَهُمْ الرجل ، أى المأمون .

وكان كثيراً ما يقول عنهم :

« هم أول من ثلموا هذه الثلمة » !

وهذه عبارة قصيرة ، ولكنها تمثل الموقف أعظم تمثيل !

فكم كنا نحب من علمائنا السبعة أن يثبتوا أمام سلطان المأمون على رأيهم ، وأن يتمسكوا بما اعتقدوه !

إنهم لو كانوا فعلوا ذلك ، لحملوا المأمون على أن يعمل للمحنة حسابها ، وأن يفكر فى البلاء !

ولكن البلاء كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم موكل بالمنطق ..

فلما نطق علماؤنا المحدثون بما نطقوا به ، هانت كفة المحدثين فى نظر المعتزلة وأولى الأمر !!

وذلك ما حزَّ فى نفس الإمام أحمد رضى الله عنه !

قد يكون علماؤنا رأوا من المأمون وإصراره ونواجذ الشر البادية عليه ما جعلهم يجيبون .

ولا ندرى : أكانت إجابتهم تقية أم غير تقية .

ولكن الذى ندريه أنهم سلكوا الطريق المرجوح لا الراجح والمفضول لا الفاضل .

وكانت هذه الإجابة من الأسباب التى جعلت الإمام أحمد يجهر بمخالفته للسلطان ، ويعمل على عصيان أمره ، ومقابلة عنفه بعنف مثله .

ثم ورد كتاب ثالث من المأمون فيه امتداد لخطته ، وتأكيد لعزيمته ، وتوضيح لصرخته .

الكتاب الثالث للمأمون

أرسل الخليفة المأمون كتاباً ثالثاً إلى إسحاق بن إبراهيم ، عامله على بغداد ، ونصه فيما يلى :

(أما بعد) فإن من حق الله على خلفائه فى أرضه ، وأمنائه على عباده ، الذين ارتضاهم لإقامة دينه وحمّلهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسننه ، والائتمام بعدله فى بريته ، أن يُجهدوا لله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلّدهم ، ويدلوا عليه ، تبارك اسمه وتعالى ، بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفة التى جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سَمت نجاتهم ، ويقفون على حدود إيمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم ؛ ويكشفوا لهم عن مُعْضلات أمورهم ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبيّنة على كافتهم ، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم . إذ كان جامعاً لفنون مصانعهم ، ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم . ويتذكروا (أى الخلفاء) ما الله مُرْصِد من مساءلتهم عما حُمّلوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه ، وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به .

ومما بيّنه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ؛ فتبيّن عظيم خطره ، وجليل ما يرجع فى الدين من وكفه وضرره ؛ ماينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن ، الذى جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفيّه محمد صلى الله عليه وسلم ، باقياً لهم ، واشتباهه (أى القرآن) على كثير منهم حتى حَسُن عندهم ، وتَزّين فى عقولهم ألا يكون مخلوقا ، فتعرضوا بذلك ، لدفع خَلْق الله ، الذى بان عن خلقه ، وتفرد بجلالته ، من ابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته ، التى لا يبلغ أولاها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شىء دونه ، خَلقا من خَلْقه ، وحدثاً هو المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقاً به ، ودالا عليه ، وقاطعاً للاختلاف فيه ، وضاهوا به قولَ النصارى ؛ فى ادعائهم

فى عيسى ابن مريم ، أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول : «إنّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا» . سورة الزخرف : ٣ . وتأويل ذلك إنا خلقناه ، كما قال جل جلاله : «وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» . سورة الأعراف : ١٨٩ .

وقال : «وَجَعَلْنَا اللَّيْل لِباساً ، وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً» . سورة النبأ : ١٠ ، ١١ «وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» . سورة الأنبياء : ٣٠ فسوّى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التى ذكرها فى شِبْهِ الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيد فى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » . سورة البروج : ٢١ ، ٢٢ . فقال ذلك ، على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يُحاط إلا بمخلوق . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » . سورة القيامة : ١٦ والآية التى تليها : ١٧ : (إن علينا جمعه وقرآنه) . وقال : « مايَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِن رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ » . سورة الأنبياء : ٢ . وقال : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ، أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » . سورة الأنعام : ٩١ وأخبر عن قوم ذمّهم بكذبهم أنهم قالوا : «ما أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» . سورة الأنعام : ٩١ . ثم كذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى» . نفس الآية السابقة . فسمّى الله تعالى القرآن قرآناً ، وذِكْرا وإيماناً ونورا وهدى ومُبارَكاً وعربيا وقصصا ، فقال : «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ» . سورة يوسف : ٣ . وقال : «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ» . سورة الإسراء : ٨٨ . « قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ

سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » . سورة هود : ١٣ . وقال : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » . سورة فصلت : ٤١ - ٤٢ . فجعل له أولا وآخرا ، ودل عليه أنه محدود مخلوق .

وقد عَظَّم هؤلاء الجهلة ، بقولهم فى القرآن الثَّلْمَ فى دينهم ، والحرج فى أمانتهم ، وسَهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خَلْقَ الله وفِعْله ، بالصفة التى هى لله وحده ، وشبَّهوه به . والأشباه أولى بخَلْقه . وليس يرى أمير المؤمنين ، لمن قال بهذه المقالة ، حظا فى الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ولا يرى أن يحِل أحداً منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق فى قول ، ولا حكاية ، ولا تولية لشىء من أمر الرعية ، وإن ظهر قصدُ بعضهم ، وعُرف بالسداد مُسَدد فيهم . فإن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها . ومن كان جاهلا بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن إسحق القاضى ، كتاب أمير المؤمنين ، بما كتب به إليك ، وأنْصِصْهما عن علمهما فى القرآن . وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شىء من أمور المسلمين ، إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يُقِر بأن القرآن مخلوق . فإن قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك ، فَتقدم إليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونَصِّهم عن قولهم فى القرآن . فمن لم يقل منهم : إنه مخلوق ، أبطل شهادته ، ولم يقطع حكما بقوله . وإن ثَبَت عفافُه بالقصد والسداد فى أمره . وافعل ذلك بمن فى سائر عملك من

القضاة ، وأشرِف عليهم إشرافا ، يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المُرتاب من إغفال دينه . واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك ، (إن شاء الله) اه .

* * *

فلما وصل الكتاب الثالث إلى والى بغداد ، جمع كثيرا من العلماء منهم أحمد بن حنبل ، وبشر بن الوليد ، وأبو حسان الزيادى ، وعلى بن أبى مقاتل ، والحسن بن حماد ، والزياد بن الهيثم ، وقتيبة بن سعيد ، وأبو عثمان الواسطى ، وابن علىّ الأكبر . ومحمد بن نوح ، ويحيى بن عبد الرحمن العمرى وأبو معمر القضيعى ، وقاضى الرّقة . وعبد الرحمن بن إسحاق ، وأحمد بن يزيد بن العوام ، وأبو العوام البزاز . وابن شجاع ، ومحمد بن الحسن بن على بن عاصم .

وحين اجتمع هؤلاء العلماء كانوا يتفاوتون فى الإجابات حسب تفاوتهم فى الأفهام والإيمان ، وكان أكثرهم يحرص على أن يجيب إجابات مجملة ؛ أو غامضة . كما كان يحرص بعضهم على أن يتستَّر بالعبارات الحرفية الواردة فى القرآن .

أما بطلنا الإمام أحمد فقد أعلن رأيه أمام والى بغداد إعلاناً صريحا بنفس الجرأة التى عرفت عنه فى كل مكان .

ولنقص عليك نماذج[1] من الأسئلة والأجوبة كما وردَ ، فى كتب التاريخ :

---

(١) اكتفينا بذكر هذه الامثلة لانها تكفى فى إعطاء صورة واضحة عن الموضوع

(١)

إسحاق بن إبراهيم : ماذا تقول فى القرآن ؟

بشر بن الوليد : القرآن كلام الله .

إسحاق : لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟

بشر : الله خالق كل شىء .

إسحاق : هل القرآن شىء ؟

بشر : هو شىء .

إسحاق : فمخلوق هو ؟

بشر : ليس بخالق .

إسحاق : لا أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟

بشر : ما أُحْسِنُ غير ما قلت لك .

(٢)

إسحاق : هل القرآن مخلوق ؟

على بن أبى مقاتل : القرآن كلام الله .

إسحاق : لم أسالك عن هذا ، هل هو مخلوق ؟

على : هو كلام الله ، وإن أَمَرَنا أمير المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا .

(٣)

إسحاق : هل القرآن مخلوق ؟

أبو حسان الزيادى : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شىء وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وقد سمع مالم نسمع ، وعلم مالم نعلم ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا .

إسحاق : هل القرآن مخلوق ؟

أبو حسان : يعيد عليه مقالته .

إسحاق : هذه مقالة أمير المؤمنين .

أبو حسان : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ، ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها ، وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول : قلت ما أمرتنى ، فإنك الثقة المأمون .

إسحاق : ما أمرنى أن أبلغك شيئاً ، وإنما أمرنى أن امتحنك .

(٤)

إسحاق : ما تقول فى القرآن ؟

أحمد بن حنبل : هو كلام الله .

إسحاق : أمخلوق هو ؟

أحمد : هو كلام الله لا أزيد عليها .

إسحاق : ما معنى أنه تعالى سميع بصير ؟

أحمد : هو كما وصف نفسه .

إسحاق : فما معناه ؟

أحمد : لا أدرى ، هو كما وصف نفسه .

(٥)

إسحاق : ما تقول فى القرآن ؟

ابن البكاء : القرآن مجعول لقول الله تعالى : « إنَّا جعلناه قرآنا عربيا » والقرآن محدث لقوله : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » .

إسحاق : فالمجعول مخلوق ؟

ابن البكاء : لا أقول مخلوق ولكن مجعول .

إسحاق : فالقرآن مخلوق ؟

ابن البكاء : لا أقول مخلوق ولكن مجعول .

* * *

وبعث إسحاق بن إبراهيم بهذه النماذج من الإجابات إلى المأمون فثارت ثائرته ، وهاج هياجه وأرغى وأزبد ، وكتب الكتاب الرابع المملوء بالعنف والتقريع ، والزجر والتوبيخ .

وهاك نص الكتاب الرابع :

الكتاب الرابع للمأمون

وبعد أيام ، دعا إسحاق الفقهاء ليسمعهم رد الخليفة وفيما يلى نسخته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد : فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك ، جواب كتابه ، كان إليك فيما ذهب إليه مُتَصَنِّعة أهل القبلة ، وملتمسو الرئاسة فيما ليسوا له بأهل الملة من القول فى القرآن ، وأمَرَك به أمير المؤمنين من امتحانهم ، وتكشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالهم . تذكر إحضارك جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أحضرت ممن كان ينسب إلى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام (بغداد) ، وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين ، ومساءلتك إياهم عن اعتقادهم فى القرآن ، والدلالة لهم على حظهم ، وإطباقهم على نفى التشبيه ، واختلافهم فى القرآن وأَمْرك من لم يقل منهم إنه مخلوق ، بالإمساك عن الحديث ، والفتوى فى السر والعلانية ، وتقدمك إلى السندى ، وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم إلى القاضيين ، بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين من

امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود وبث الكتب إلى القضاة فى النواحى من عملك بالقدوم عليك ، لتحملهم وتمتحنهم على ماحَدَّه أمير المؤمنين ، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم . وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت . وأمير المؤمنين يحمد الله كثيراً كما هو أهله ويسأله أن يصلّى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ويرغب إلى الله فى التوفيق لطاعته ، وحُسن المعونة على صالح نيته برحمته .

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن وما رجع إليك فيه كل امرئ منهم وما شرحت من مقالتهم ، فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد ، فى نفى التشبيه ، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق ، وادعى من تركه الكلام فى ذلك ، واستعهاده أمير المؤمنين ، فقد كذب بشر فى ذلك وكفر ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ، ولا فى غيره عهد ولا نظر ، أكثر من أخباره . أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص . والقول بأن القرآن مخلوق .

فادعُ به إليك ، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك ، وأنصِصْهُ عن قوله فى القرآن ، واستَتِبْه منه فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح ، والشرك المحض عند أمير المؤمنين فإن تاب منها ، فأشهر أمره ، وأمسك عنه وإن أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه ، وكذلك إبراهيم بن المهدى ، فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشراً فإنه كان يقول بقوله ، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ ؛ فإن قال : إن القرآن مخلوق فأشهر أمره واكشفه وإلا فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه .

وأما على بن أبى مقاتل ، فقل له : ألست القائل لأمير المؤمنين إنك تحلل وتحرم ، والمتكلم له بمثل ماكلمته به ، مما لم يذهب عنه ذكره .

وأما الذّيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الأنبار وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبى العباس مايشغله وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه . وسالكا مناهجهم ومحتذياً سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه .

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العوام ، وقوله إنه لايحسن الجواب فى القرآن . فأعلمه أنه صبى فى عقله لا فى سنه ، جاهل ؛ وأنه إن كان لا يحسن الجواب فى القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها . واستدل على جهله وآفته بها . وأما الفضل ابن غانم فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ؛ وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة ؛ وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله فى ذلك . فإنه من كان شأنه شأنه وكانت رغبته فى الدينار والدرهم رغبته ؛ فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما ، وإيثاراً لعاجل نفعهما وأنه مع ذلك القائل لعلىّ بن هشام ما قال ؛ والمخالف له فيما خالفه فما الذى حال عن ذلك ونقله إلى غيره ؟

وأما الزيادى فأعلمه أنه كان منتحلا لأول دَعِىّ كان فى الإسلام ، خولف فيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان جديراً أن يسلك مسلكه ، ولكن أنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد ، أو يكون مولى

لأحد من الناس ، وذكر أنه إنما نسب إلى زياد (بن أبيه) لأمر من الأمور . وأما المعروف بأبى نصر التمّار ، فإن أمير المؤمنين . شبّه خساسة عقله ؛ بخساسة متجره .

وأما المفضل بن الغزخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن ، أخذ الودائع التى أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحق وغيره تربصاً بمن استودعه وطمعاً فى الاستكثار لما صار فى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الأيام به . فقل لعبد الرحمن بن إسحق : لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا ، وإيمانك إياه ؛ وهو معتقد للشرك منسلخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم وابن نوح ، والمعروف بأبى معمر فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد وأن أمير المؤمنين ؛ لو لم يستحل محاربتهم فى الله ، ومجاهدتهم لإربائهم ؛ وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم ، لاستحل ذلك . فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا وصاروا للنصارى مثلا ؟

وأما أحمد بن شجاع ؛ فأعلمه أنك صاحبته بالأمس والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذى كان استحله من مال على بن هشام وأنه ممن الدينار والدرهم دينه . وأما سعدويه الواسطى ؛ فقل له : قبّح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث ، والتزين به والحرص على طلب الرياسة فيه ، أن يتمنى وقت المحنة ، فيقول بالتقرب بها منى ؛ يمتحن فيجلس للحديث .

وأما المعروف بسجادة ، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه ، القول بأن القرآن مخلوق فأعلمه أنه فى شغله بإعداد النوى ، وحكه لإصلاح سجادته وبالودائع التى دفعها إليه ، على بن يحيى وغيره ، ما أذهله عن التوحيد وألهاه . ثم اسأله عما كان يوسف بن أبى يوسف

ومحمد بن الحسن يقولانه ، إن كان شاهدهما وجالسهما .

وأما القواريرى ؛ ففيما تكشف من أحواله وقبوله الرشا والمصافعات ما أبان عن مذهبه . وسوء طريقته وسخافة عقله ودينه . وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى الحسنى مسائله . فتقدم إلى جعفر ابن عيسى فى رفضه وترك الثقة به والاستقامة إليه . وأما يحي بن عبدالرحمن العُمرى فإن كان من ولد عمر بن الخطاب ، فجوابه معروف . وأما محمد ابن الحسن بن على بن عاصم ، فإنه لو كان مقتديا بمن مضى من سلفه ، لم ينتحل النِّحلة التى حكيت عنه وأنه بعدُ صبى يحتاج إلى تعلُّم .

وقد كان أمير المؤمنين ، وجه إليك المعروف بأبى مُسْهِر ، بعد أن نصَّه أمير المؤمنين عن محنته فى القرآن فجمجم عنها ولجلج فيها . حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف فأقر ذميما . فأنصصه عن إقراره فإن كان مقيما عليه ، فأشهر ذلك وأظهره (إن شاء الله)

ومن لم يرجع عن شركه ممن سَّميت لأمير المؤمنين فى كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا ، ولم يقل إن القرآن مخلوق ، بعد بشر بن الوليد ، وإبراهيم بن المهدى ، فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، ويسلمهم إلى من يُؤْمن بتسليمهم إليه . لينصهم أمير المؤمنين . فإن لم يرجعوا أو يتوبوا حملهم جميعاً على السيف (إن شاء الله ولا قوة إلا بالله)

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا ، فى خريطة بندارية ، ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية ، معجلا به ، تقرباً إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد ؛ وإدراك ما أمَّل من جزيل ثواب الله عليه

فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجل إجابة أمير المؤمنين ، بما يكون منك فى خريطة بندارية ، مفردة عن سائر الخرائط لتُعرِّف أمير المؤمنين ما يعلمونه (إن شاء الله . كتب سنة ٢١٨ هـ) .

* * *

ويلاحظ أن المأمون عَنُف كثيراً فى لهجة هذا الكتاب ، وحاول أن يُجَرِّح كل عالم لم يوافق هواه ، وذكر عبارات ما كانت تليق من ذى سلطان .

ولكننا نؤكد هنا مرة أخرى أن هذه الخطابات كتبت بلغة اعتزالية وبإشراف ابن أبى دواد .

وساءنا كثيراً أن المأمون قد تجرأ فى هذا الكتاب على الإمام الجليل أحمد بن حنبل ، ووصفه بالجهل وقد كان يحرص على إجلاله واحترامه من قبل .

ولكن وقفة الإمام فى وجهه ، ومعارضته الشديدة لفلسفته أثارت حفيظته وقوّت موْجدته ، وهذا الكتاب يدل دلالة صريحة على أن المأمون كان ينوى سفك الدم الجماعى ، وإعمال السيف فى العلماء لولا أن المنية عاجلته .

ولكن الإمام أحمد لم يُخِفْهُ هذا الوعيد . ولم يرهبه هذا التهديد ، فاستمر فى إصراره ، والمجاهرة برأيه .

ولقد وافقه بعض العلماء ، وأعلنوا عدم خوفهم وهم سجادة ، والقواريرى ، ومحمد بن نوح ، ولكنهم عند ما عرضوا على التهديد مرة أخرى لم يثبت منهم إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ورجع الآخران تحت الضغط ، والتهديد .

وهناك كتاب خامس كتبه المأمون إلى عامله ببغداد عند مابلغه الخبر أن بعض الممتحنين أجابوا تقيَّة فغضب وزجر ، وكتب مُسَفِّهًا لتقيتهم غير معترف بها .

وذهب إلى أن هناك فارقا جوهرياً بين تقيَّة عمار بن ياسر . وتقيَّتهم هم فقال :

إن تقيَّة عمار كانت منه حين أُكْرِهَ وقلبه مطمئن بالإيمان أما هم فقد أبطنوا الشرك وأظهروا الإيمان .

ولا يخفى ما فى هذا المنطق من مغالطة مكشوفة ؛ وقلب للمقاييس .

* * *

ولما استعصى على المأمون أن يؤثر على الإمام أحمد فى ميدان الحجة والإقناع ، لجأ إلى أساليب الإرهاب المكشوف ، والضغط الصريح فأمر بإشخاصه هو ، ومحمد بن نوح إلى طرسوس .

إلى طرسوس

برز اسم الإمام أحمد على رأس المعارضين لفكرة خلق القرآن بروزا شغل المأمون وهو فى ميدان الحرب ، وعكر صفوه . وهو الذى لا يعكر صفوه إلا الجليل من الأمور .

وقد كان هو وابن أبى دواد يعملان «ألف حساب» لمعارضة الإمام أحمد لما يعلمان عنه من التفاف الناس حوله ، وإكبارهم إياه .

وكانا يعرفان فيه صلابة وحِدَّة ، فأرسلا النُّذُرَ تلو النُّذر والرَّهب بعد الرَّهب ليخاف الإمام من بعيد ، ولكن الإمام لم يخف .

فصدرت الأوامر إلى والى بغداد بإشخاص أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح والممتنعين من الفقهاء إلى الخليفة بطرسوس[1] لعل الإشخاص يلقى فى قلوبهم الرعب أو يزلزل كيان عقائدهم ولكن الإمام أحمد ومحمد بن نوح توكلا على الله وشدَّا الرحال إلى المأمون غير هيَّابَيْن ولا وجلين . ونقلا من بغداد محمولين على بعيرين مقيدين بالقيد الثقيل محاطين بشىء من العنف والإرهاب ولعل هذا الطور من حياة الإمام أحمد كان من الأطوار الشديدة عليه ، لأنها مبدأ المحنة .

والمحنة فى أولها على عكس الأشياء تولد كبيرة ثم تصغر وهذا إذا قوبلت بصبر واحتساب . يا تُرى : ماهى الخواطر التى كانت تَرِد على الإمام أحمد وهو فى هذه الرحلة الرهيبة ؟

لا شك أنها خواطر كئيبة على أى حال وهذا لا ينافى أن الإمام

---

(١) طرسوس تقع على الحدود التركية العراقية ، وهى غير طرطوس ، فإن الثانية تقع فى حدود الشام قريبا من اللاذقية وعلى بعد مائتين وخمسين كيلو مترا من دمشق .

أحمد كان مهيّأً نفسه ، معداً أعصابه لهذا البلاء . ولكنه مع هذا كله كان مشغول البال : فهل سيصبر على المحنة حتى النهاية ؟ ، أم سيكون البلاء أقوى من طاقته فتخور قواه ، وتعنو الجباه .

سؤال لاشك أنه يدور بالخَلَد ويترك فى النفس أثراً أى أثر .

فالإمام أحمد كان ينظر إلى المشكلة من نواح عديدة ! فهو يرى أن قِلَاع العلماء تسقط قلعة قلعة . أمام سيف المأمون ، وهو يرى أن عامة الناس تفقد ثقتها فى علمائهم الذين أجابوا يوما بعد يوم ، وهو يرى أن حبل الرأى يمتد ويطول ساعة بعد ساعة ، وهو يرى أن المأمون قد يزيده التجبر والطغيان ويجره ذلك إلى مسائل أخرى لا تخطر على البال .

فهل يقف هو مكتوف الأيدى أمام هذه الأمور كلها ؟ لعل ذلك أو بعضه أو أكثر منه كان يشغل بال الإمام وهو فى طريقه إلى المأمون .

على أن التعبُّد وقراءة القرآن وترديد المحفوظ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له الأثر الأكبر فى تخفيف المشقة وتهوين الصعاب .

ذكر ابن الجوزى عن أبى جعفر الأنبارى أنه قال :

« لمَّا حُمل أحمد بن حنبل إلى المأمون أخبرتُ فعبرت الفرات ، فإذا هو جالس ، فسلمت عليه فقال :

يا أبا جعفر : تعنّيت !

فقلت : ليس فى هذا عناء !

فقلت له : أنت اليوم رأس ، والناس يقتدون بك ، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خَلْق من خلق الله .

وإن أنت لم تجب ليمتنعَن خلق من الناس كثير .

ومع هذا فإن الرجل يعنى المـأمون ـ إن لم يقتلك ـ تموت ، ولا بد من الموت ، فَثِقْ بالله ولا تجبهم إلى شىء !

قال : فجعل أبو عبد الله يبكى ويقول :

ما شاء الله ، ما شاء الله » .

ولقد استمر الإمام أحمد فى طريقه إلى طرسوس هو وزميله محمد بن نوح ! ولـكنه كان يدعو ربه ـ فى سره وجهره ـ أن لا يريه وجهْ المـأمون فاستجاب الله دعاءه ، لأنه سبحانه قريب من المتقين .

وبينما يسير الإمام أحـمد فى الطريق التفت إلى أحمد بن غسان وقال له ـ كما جاء فى الحليـة ـ قلبى يحـدثنى بأن رجاء الحضّارى ـ أحـد أعوان الخليفة سيقبل علينا الليلة ، وما كاد يتمّ مقالته حتى قال رجاء : أين هؤلاء الأشقياء ؟ فقال الإمام أحمد : يا عدو الله ، تقول : القرآن مخلوق وتزعم أننا أشقياء ! ولـكن رجاء الحضّارى اعترف للإمام بخطئه وقال له صدقت يا أبا عبد الله : القرآن كلام الله قديم غير مخلوق !

فلما وصلوا « أذنة » قابلهم رجل وقال لهم

البُشْرَى قد مات الرجل ـ يعنى المـأمون ـ .

فمـا أقرب ما كانت استجابة دعاء الإمام أحمد فى ذلك !

* * *

ولمـا مات المـأمون رُدّ الإمام ومحمد بن نوح فى أقيادهما إلى الرّقة .

وأخرجا من الرقة فى سفينة مع قوم محبّسين .

وفى الطريق مرض محمد بن نوح مرضاً شديداً ، فتولى تمريضه الإمام أحمد وهو المعنّى المكدود .

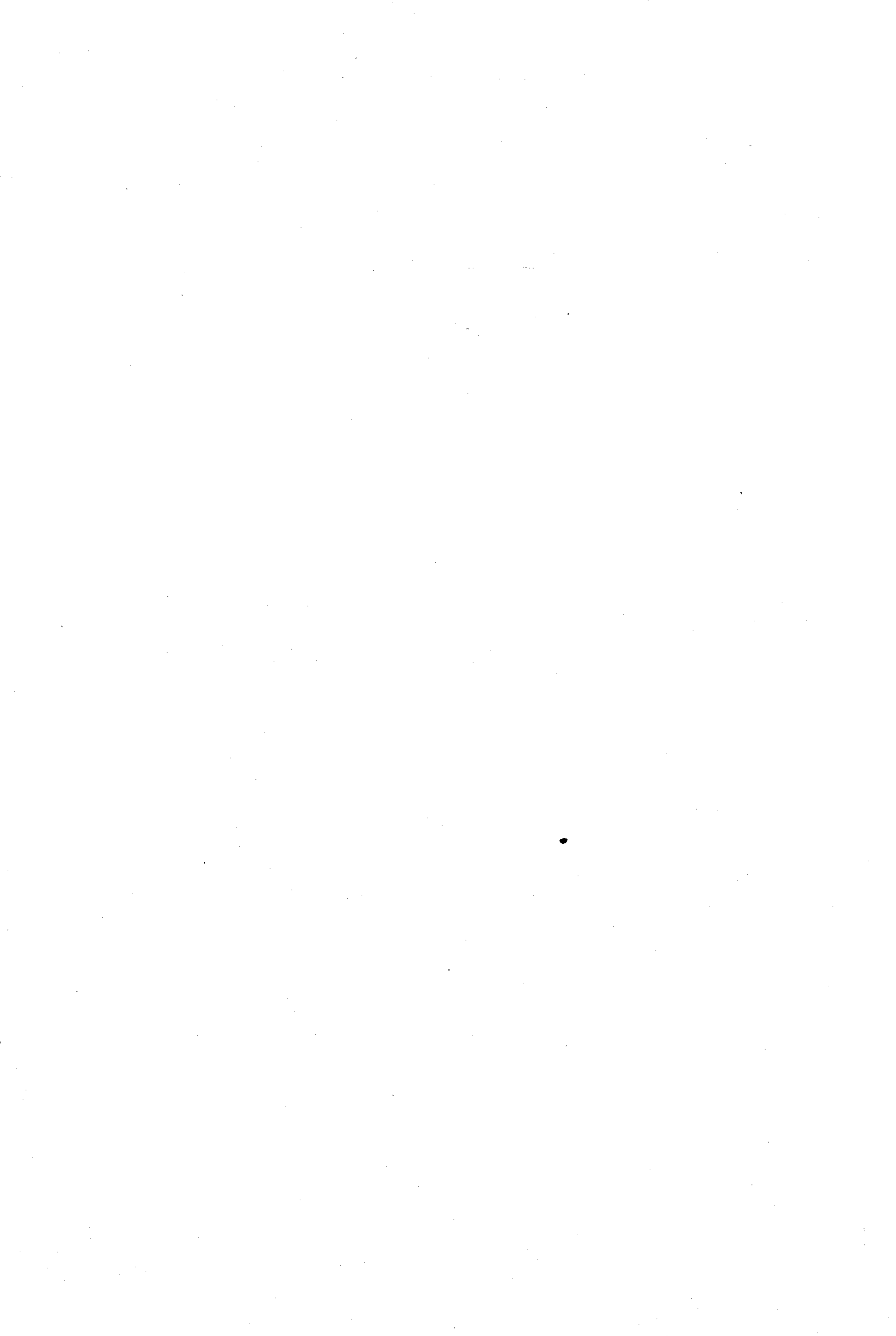
حتى إذا وصلا إلى عانات ، لفظ ابن نوح آخر أنفاسه ، وعاد الإمام إلى بغداد وحيدا حزيناً ، بعد أن صلى على ابن نوح ودفنه بعانات !!

قال أبو الفضل صالح :

« ثم سار أبى إلى بغداد وهو مقيّد ، فمكث بالياسرّية أياما ثم صُيّر إلى الحبس فى دار اكتُريت له عند دار عمارة ، ثم نقل بعد ذلك إلى حبس العامة فى درب الموصلية » .

ونترك الإمام أحمد فى سجنه ، لنرى ماذا تم بعد وفاة المأمون !

هل انجلت المحنة ، أم ازداد سعيرها ؟



وفاة المأمون

وتنصيب المعتصم

مات المأمون بعد أن جاهد فى ميدانين متناقضين : الميدان الأول : ميدان جهاد الروم فى سبيل الله . فالتاريخ يشهد أن المأمون قد مات غريباً عن وطنه حاملا سيفه ضد العدو معبّئاً أمته لانتصار كلمة الإسلام وتوسيع رقعته وامتداد أطرافه .

والميدان الثانى : ميدان حمل الناس على القول بخلق القرآن وشتان بين نزال السيف هناك فى أطراف الروم يحصد كفراً وشركا وبين نزال السيف هنا يحصد علماً وفقها وورعا .

ومع ذلك كله فهو قد أفضى إلى ربه بمكنون نفسه ومبثوث فؤاده . وإن كان التاريخ يجزم بأنه مات وهو مُصِرٌّ على المحنة مطالب بالاستمرار فيها .

فقد روى لنا المسعودى أن المأمون أوصى المعتصم بشيئين :

١ — الاستمرار فى المحنة .

٢ — الاهتمام بابن أبى دواد وإشراكه معه فى الأمور كلها ، لا يحل أمراً بدونه .

وقد عاشت هذه الوصية فى عقل المعتصم ووجدانه ما عاش .

وبهذه الوصية تربّع ابن أبى دواد على منصب قاضى القضاة ، وتبوأ مكانته الرفيعة وأصبحت له اليد الطولى فى كل ما حوله .

ونحن نورد هنا كلمة موجزة عن المعتصم :

المعتصم

هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد .

ولد سنة ثمانين ومائة فى رواية الذهبى ، وسنة ثمان وسبعين فى رواية الصولى .

وأمه أم ولد ، من مولّدات الكوفة ، اسمها : ماردة . وكانت محظوظة عند الرشيد ! !

وكان كما وصفه السيوطى « عَرِيًّا من العلم » .

وكان يقال له « المثمّن » لأنه ثامن خلفاء بنى العباس ، وثامن أولاد الرشيد ، وتولّى سنة ثمانى عشرة ، وملك ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، ومولده سنة ثمان وسبعين فى رواية الصولى ، وعاش ثمانياً وأربعين سنة ، وطالعه العقرب وهو ثامن برج ، وفتح ثمانية فتوح ، وقتل ثمانية أعداء ، وخلّف ثمانية أولاد وثمان بنات ، ومات لثمان بقين من ربيع الأول .

قال الذهبى :

« كان المعتصم من أعظم الخلفاء وأهيبهم لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن » .

مات سنة سبع وعشرين ومائتين ! ! بعد أن بنى « سُرَّ من رأى » ، وذلّل الروم ، وفتح عَمُّورية ! !

لم يكن المعتصم مثقفاً ثقافة واسعة كما كان المأمون ، بل كان - كما وصفه الصولى - يقرأ قراءة ضعيفة ! ! والسبب فى ذلك أن أباه الرشيد رأى منه كراهيته للكُتّاب ، فقطعه عنه ! !

وكان يغلب عليه طابع الجندية والفروسية ! !

وكان ابن أبى دواد يستغل فيه الطابع العسكرى ، فيشير عليه بما يدعو إلى استمرار المحنة ، ويوسّع سلطانها ، ويزيد فى استعارها !

فصدرت الأوامر بسجن الإمام أحمد ، وقال قولة يوسف : « ربِّ السِّجن أحبُّ إلىّ مما يدعوننى إليه » . ورحّب به ، وأصبح إمام الحديث والفقه بين عشية وضحاها فى عداد المسجونين ! !

الإمام أحمد في السجن

روى حنبل بن إسحاق بن حنبل عن الإمام أحمد أنه قال :

« السّجن كره ، والقيد كره ، والضرب كره ، والوعيد كره » .

ولكن هذا الكره كله كان مُحَبَّبًا لدى الإمام أحمد ، لأنه كان لله وفى الله !

والسجن ليس غريبا فى ميدان الدعوات إلى الله ، فكم من داعية قد سجن ، وكم من صِدّيق قد فتن !

ولكن الذى زاد فى النّكاية بالإمام أن سجنه كان مع العامة ، وأنه قد طال أياما وشهورا . قال حنبل [1] :

« كان سجنه فى دار اكتُريت له بجوار دار عمارة ببغداد ، وكان مقيّدا ، فحُبس فى ذلك الحبس قليلا ، ثم تحوّل إلى سجن العامة فمكث فى السجن نيّفا وثلاثين شهرا » .

هل أظهر الإمام ضيقا لهذه الفترة الحرجة فى حياته ؟

التاريخ يجيب بلا من ناحية ، وبنعم من ناحية أخرى !

والميزان الصادق يحمل فى كِفّتيه هذين الجوابين فى مساواة تامة ! دون كلفة أو حرج !

أما مضايقته ، فلأن الحبس يحول بينه وبين الدعوة إلى الله وصلاة الجمعة والجماعة فى المساجد ، ونشر العلم والحديث !

وأما عدم مضايقته ، فلأن طعامه فى بيته يساوى طعامه فى سجنه ، وفراشه هناك يعدل فراشه هنا !

وربّما رجّح هذه الكِفّة أن السجن خلوة تعزله عن الخلق ، وتصله بالحق تبارك وتعالى !

قال حنبل : « وكنت أنا وأبى وأصحاب أبى عبد الله ندخل عليه .

---

(١) هو ابن عم الإمام احمد بن حنبل .

فسأله أبي أن يحدثني ويقرأ عليّ .

فقرأ عليّ في السجن كتاب « الإرجاء » وغيره . ورأيت أبا عبد الله ـ أي الإمام أحمد ـ يصلي بأهل الحبس ، وعليه القيد .

وكان قيده واسعا !

وكان في وقت الصلاة والوضوء والنوم يخرج إحدى الحلقتين من إحدى رجليه ويشدها على ساقه ، فإذا صلّى ردّها في رجله .

فقلت له : يا عَمّ ، أراك تصلي بأهل الحبس ، قال : ألا تراني وما أصنع ؟ قلت : بلى !

ثم ذكر أبو عبد الله « حُجْرا » وأصحابه ، فقال :

أليس كانوا مقيّدين ؟

أليس كانوا يصلون جماعة على الضرورة ؟

لا بأس بذلك !

قلت : فالذي في رجله القيد لا يمكنه أن يقعد في الصلاة على ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في الركعة الأخيرة ، يمنعه القيد ذلك !

قال : كيفما تيسر وأطاق ..!

فالحمد لله على معونته وإحسانه ، وسبحان الله لهذا الأمر الذي أبلى الله به العباد » ..

وهذه الصلاة المقيّدة ، على هذا الحال من العنت والإرهاق أفضل عند الله من الصلوات الأخرى ، لأنها صلاة العزائم التي لا تعرف الرخص ، والمشقة التي لا تعرف الهوادة ، والإيمان الذي لا يعرف التفريط .

دخل على الإمام أحمد عمه إسحاق وهو في السجن فأخذ يحاجُّه في التقية وينصحه بقبولها قائلا له :

إن أصحابك قد أجابوا ، وقد أعذرتَ بينك وبين الله !! وبقيت فى الحبس والضيق !!

فقال الإمام أحمد :

رحم الله الأولين ، كانوا توضع المناشير على أجسامهم ويُشَقّون ، فلا يتأوهون ! .

فاستمر عمّه فى نصحه ! فقال له الإمام قولته المشهورة : «إذا أجاب العالِم تقيّة والجاهل يجهل ، فمتى يظهر الحق» .

عزائم المؤمنين أقوى من العذاب ، ورضاهم بالبلاء يخفف الكثير من الصعاب ! .

إن السجن هو سجن النفوس لا سجن الأجسام !

قد تضيق الدنيا الرحيبة على فقراء الإيمان حتى تكون فى نظرهم أضيق من سَمِّ الخياط .

وقد تتسع حجرة ضيقة مظلمة على المؤمن ، فيراها أفقا رحيبا ، وعالما متكاملا !

وصدق القائل :

«لا يستوحش مع الله عبد إلا أحمق» .

والإمام أحمد لم يستوحش من وحدته ، ولم يضجر من طول مكثه ! بل حول السجن إلى ساحة الرياضة النفسية ، ومكان للعبادة الروحية ، ومعهد يتخصص فيه المسجونون تخصصا علميا عظيما .

إن المصطفَيْن الأخيار هم وحدهم الذين يتحكمون فى شهواتهم ومطامحهم ، وهم يرون أن فَطْم النفس هو أول درجات العز ومنازل الرقى :

وهذا الصنف من الناس لا يكون السجن غريباً عليه ولا تكون المحنة غريبة على جوهره فالمؤمن كله غريب فى هذه الحياة . غريب

بطبائعه وبسجاياه . غريب بأخلاقه ومزاياه . .

إن تربة الأرض تجذب إلى أسفل . . أما المؤمن فهو دائماً طموح إلى العلا . . إلى السماء . . إلى روح القدس . . إلى رب العالمين . .

ما أروع هذه الصفحة من صفحات التاريخ الإنسانى ، أو التاريخ الإسلامى لأنه فى نظرنا هو التاريخ الأمثل للإنسانية على اختلاف عصورها وأزمانها ! !

إنه تاريخ يهبط عليك من مستوى أرفع ، وقمة عالية ، عالية جداً تجعلك تحس وأنت تقرأ هذا التاريخ بأن عظماء العصر فى العالم لا زالوا تلامذة على عظماء عصورنا الخالية وبطولاتنا السالفة :

ولقد روى أحد الذين كانوا معه فى السجن أنه عطش مرة فطلب من صاحب الشراب ماء فجىء بماء وثلج . وأمسك الإمام بالماء المثلج ونظر إليه ثم تركه بدون شراب فقال له السجان : لماذا لا تشرب ؟

فقال له : أعندك شراب يكفينى ومن معى فى السجن ؟ قال : لا فقال الإمام :

فكيف أشرب ومن معى فى السجن لا يشربون ؟ فيا أقدار الحياة !

ماذا أعددت فى سجل الخلود لهذا الرجل العظيم إنسان عصره ، وإمام المسلمين فى زمانه وفى كل زمان بعد زمانه .

قال الإمام أحمد : دخل علىّ حاكم بغداد فى سجنى فقال لى : أتعبْتَنا يا أحمد وأتعبناك . أجبنا إلى خلق القرآن ، فلم أجبه .

قال لى : لقد أجاب إخوانك ، فلم أجب ! فتميز من الغيظ ثم قال للجلاد : أَكِبَّه على وجهه واطرحه على ظهره واجعل قدمك فوقه قال الإمام أحمد : وفعلوا بى ذلك ، ولم يوقظنى من هذا كله إلا مؤذن الظهر

عند ما نادى بالأذان فقمت أصلى ، والدم يسيل منى فقال لى بعضهم : أتصلى وأنت على هذه الحال ؟

قلت : لقد صلى عمر رضى الله عنه وجرحه يثعب[1] دماً .

ثم قال الإمام أحمد :

« ما سمعت كلمةً منذ وقعتُ فى الأمر الذى وقعتُ فيه أقوى من كلمة أعرابى كلمنى بها فى رحبة « طوق » قال :

يا أحمد ، إن يقتلك الحق مِتَّ شهيداً ، وإن عشت عشت حميداً » .

قال الإمام : فقوى قلبى ! !

المناظرة

وقد حدث للإمام أحمد وهو فى السجن مناظرة هامة ، أو محاكمة مؤلمة ، حضرها المعتصم وكبار المعتزلة وعلى رأسهم ابن أبى دواد .

وقد جاء فى المخطوطة التى سننشرها فى نهاية الكتاب إن شاء الله وصف لهذه المناظرة ، ولما لاقاه الإمام أحمد فى السجن ، ولكننا أوردنا هنا هذا الوصف مرة أخرى ، لكى لا نقطع حبل التأليف ، وربما أخذنا من المصادر الأخرى إضافات ليست واردة فى المخطوطة ، لأن هذه الإضافات تعطينا صورة متكاملة عن الموضوع :

ولندخل الآن فى أعماق المناظرة - كما رواها صاحب الحلية[2] - عن أبى الفضل صالح عن الإمام أحمد :

« فلما أصبحت جاءنى رسول فأخذ بيدى ، فأدخلنى الدار ، وإذا هو

---

(١) يثعب أى يسيل أو يتفجر .

(٢) مع زيادات أخرى وردت فى كتاب المقفى للمقريزى .

أى الخليفة المعتصم ، وابن أبى دواد حاضر وقد جمع أصحابه والدار غاصّة بأهلها ، فلما دنوت منه سلّمت ، فقال لى :

أدْنِه ، أدنه . فلم يزل يدنينى حتى قربت منه . ثم قال لى : اجلس فجلست وقد أثقلتنى الأقياد .

فلما مكثت هنيهة قلت : تأذن فى الكلام . فقال : تكلّم ، فقلت : إلامَ دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقال الخليفة : إلى شهادة أن لا إله إلا الله .

فقلت : أنا أشهد أن لا إله إلا الله .

ثم قلت له : إن جدّك ابن عباس يحكى أن وفد عبد القيس لمّا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرهم بالإيمان بالله ، فقال : أتدرون ما الإيمان بالله ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم :

فقال الخليفة :

لولا أنى وجدتك فى يد من كان قبلى ما تعرضْت لك ، ثم التفت إلى عبد الرحمن بن إسحاق فقال له :

ياعبد الرحمن : ألم آمرك أن ترفع المحنة !.

فقال الإمام فى نفسه :

الله أكبر ، إن فى هذا لفرجا للمسلمين ..

ويبدو أن الخليفة المعتصم لم يكن مقتنعا كل الاقتناع بما أعلنه ، أو أنه كان مقتنعا فى داخل نفسه ولم يجهر به خوفا من ثورة ابن أبى دواد وغيره من قضاة المعتزلة .

ودليلنا على أن المعتصم لم يقتنع تمام الاقتناع برفع المحنة ، ما أمر به - فيما بعدُ - من المناظرة ، وما أقدم عليه من ضرب الإمام أحمد ثم التفت المعتصم إلى عبد الرحمن بن إسحاق وقال : ناظره ، فسأل عبد الرحمن بن إسحاق :

ما تقول فى القرآن ؟

الإمام أحمد : وما تقول أنت فى علم الله ؟

فسكت !.

قال الإمام : فجعل يكلمنى هذا وهذا من قضاة المعتزلة فأرد عليه ، ثم أقول : يا أمير المؤمنين : أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله .

وهنا زمجر ابن أبى دواد ، ولكن الإمام أحمد لم يعره اهتماما . . . وأخذ يحاجهم ويعزهم[1] .

قال الإمام أحمد :

فكان إذا انقطع الواحد منهم اعترض ابن أبى دواد فتكلم . فلما قارب الزوال قال الخليفة : قوموا .

وخلا الخليفة بعبد الرحمن بن إسحاق وبالإمام ، وأخذ الخليفة يخوّف الإمام ويهدده فقال له :

هل تعرف صالحا الرشيدى ؟ لقد كان مؤدبى ، وكان فى هذا الموضع جالسا ، وخالفنى ، فأمرتُ به فسُحب ووُطئ . . . ولكن الإمام لم يهتم بهذا التهديد !.

وأعجب الخليفة بثبات الإمام وطلب شيئا أى شىء مما يدل على إذعان الإمام ، فلا يغيّر الإمام هذا الجواب :

أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) يعزهم أى يغلبهم .

فلما طال المجلس ضجر وقام .

فرُددتُ الموضع الذى كنت فيه . . . وبذلك انتهى اليوم الأول من أيام المناظرة أو المحاكمة .

وفى اليوم الثانى أُحضر الإمام أمام الخليفة ، وابن أبى دواد ، ومع أنه لم يكن قد ذاق طعاما قطّ إلا أنه كان بنفس القوة والحجة التى كان بها فى اليوم الأول .

وكان الإمام أحمد ـ كطريقته دائما ـ يحاول أن يربط خصومه العقليين بالنّص القرآنى أو النّص النبوى ، حتى تضايقوا من ذلك وشكوا للخليفة قائلين له : إذا كانت له الحجة وثب علينا ، وإذا كلمناه بغير القرآن قال لنا لا أفهم ما تقولون .

فأراد الإمام أن يحاجهم من جنس حجتهم ، فسألهم عن قول الله تعالى :

يوصيكم الله فى أولادكم ، للذكر مثل حظ الأنثيين الخ ، فقالوا : خصّ الله بها المؤمنين ، فقال الإمام لهم : فما بالكم لو كان الرجل قاتلا أو عبدا أو يهوديا أو نصرانيا ؟ وهنا وقف المعتزلة أمام هذا السؤال .

وقال الإمام أحمد : إننى اتبعت هذا الأسلوب فى المناظرة لأنهم اتبعوا مثله معى ! .

وكانوا يصيحون كلما شعروا بالهزيمة :

أرحنا منه يا أمير المؤمنين ، إنه شيخ ضال مبتدع ! .

والإمام هادئ رزين كأنه لم يسمع ولم ير شيئا ، إنما هو يحبس حججه فى جعبته ويخرج منها بقدر .

قال معتزلى آخر :

إن الله كان فى الأزل ولم يكن القرآن معه .

فأجاب الإمام :

إن القرآن من علم الله ، فإذا قال قائل : كان الله ولا قرآن معه ، فكأنه قال : كان الله ولا علم معه .

أحد المعتزلة : ما تقول فى قول الله :

ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء ! . والقرآن شىء ، فهو إذا مخلوق ! .

قال الإمام : إن هذه الآية أريد بها التخصيص ، كقوله تعالى عن الريح التى أهلكت عادا تدمّر كل شىء بأمر ربها ، فهل دمّرت كل شىء حقا ، أم دمّرت ما أراد الله ؟

معتزلى آخر : إن الله يقول : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث فهل يكون محدث إلا مخلوق ؟

الإمام : إن الذكر الذى هو فى القرآن جاء فى قوله : والقرآن ذى الذكر ، فهو هنا معرّف بالألف واللام وفى الآية بدون ألف ولام فهذه غير تلك .

قال بعضهم : روى لنا عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله خلق الذكر ! !

فقلت : هذا خطأ !

حدثنا غير واحد أن الله عز وجل كتب الذكر !

قال الإمام أحمد : وكان يتكلم هذا فأرد عليه ، ويتكلم هذا فأرد عليه !

فإذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن أبى دواد فيقول :

يا أمير المؤمنين ، هو والله ضال مضل مبتدع !

فيقول المعتصم : كلموه وناظروه .

قال الإمام أحمد فيكلمنى هذا فأرد عليه ويكلمنى هذا فأرد عليه .

فإذا انقطعوا يقول المعتصم : ويحك يا أحمد : ما تقول :

فأقول : أعطونى شيئاً من كتاب الله عز وجل أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقول به .

قال ابن أبى دواد : يا أمير المؤمنين : والله لئن أجابك لهو أحب لى من مائة ألف دينار ومائة ألف دينار ، وأخذ يعدد من ذلك ما شاء الله تعالى .

قال المعتصم : فوالله لئن أجابنى لأطلقن عنه بيدى ، ولأركبن إليه بجندى ، ولأطأن عتبته .

ثم قال : يا أحمد إنى عليك لشفيق .

وإنى لأشفق عليك كشفقتى على هارون ابنى .

قال الإمام أحمد : فأقول : أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما طال المجلس : ضجر ، فقال :

قوموا عنى

وبهذا تقريبا انتهت المحاكمة فى اليوم الثانى وحدثت مداولة مثل ما حدث فى اليوم الأول . ثم أعيد الإمام إلى السجن وطُلب فى اليوم الثالث من جديد ، ودارت المناقشة والمحاورة .

معتزلى آخر : إن تمسكك بأن القرآن غير مخلوق معناه أن الله له جوارح يتكلم بها ولسان يتكلم به وهذا محال على الله عز وجل .

الإمام : أنا أومن بأن الله أحد صمد لم يلد ولم يولد ، ولا عدل له ولا شبيه وهو كما وصف نفسه . حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن سالم عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الله كلم موسى بمائة

ألف كلمة وعشرين ألف كلمة ، وثلاثمائة كلمة ، وثلاثة عشرة كلمة فكان الكلام من الله والاستماع من موسى فقال موسى : أى ربى أنت الذى تكلمنى أم غيرك قال الله تعالى يا موسى إنى أكلمك لا رسول بينى وبينك فهذا ما يخبر به رسول الله عن ربه) . وأنا ما أقول إلا ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أحد المعتزلة : كذبت على رسول الله !

الإمام : إن يك هذا كذبا منى على رسول الله فقد قال الله تعالى : (وكلم الله موسى تكليما) وقال : (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) فهو قول منه سبحانه وتعالى وليس خلقا .

عالم آخر : إن ابن مسعود يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسى) وهذا صريح فى أن آية الكرسى مخلوقة وهى من القرآن .

الإمام : إنى لست أجد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ذكرته أى دليل على أن الخلق وقع على آية الكرسى بل إن الحديث بأن الخلق وقع على الجنة والنار والأرض والسماء ولم يقع على القرآن) .

كانت هذه الإجابات كلها والإمام يرسف فى الأصفاد .

* * *

ولما رأى المعتصم صدق لهجة الإمام ، وعظم حججه ، وقوة إقناعه وثباته ، كادت الرأفة تعرف طريقها إلى قلبه ، وكاد يأمر مرة أخرى برفع المحنة ، لولا أن تدخل ابن أبى دواد مرة أخرى ، وحرض المعتصم على الاستمرار فى المحنة ، وطالب بالقتل للإمام صراحة هو والقضاة المعاصرون ، ولكن الإمام أحمد ذكّر المعتصم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا يحلّ دم امرئ إلا بإحدى ثلاث) وبحديث : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم)

ثم قال الإمام :

وأنا يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وليس فىّ واحدة من الثلاث ، فبم تستحلّون دمى ؟

ولان المعتصم مرة أخرى ، ولكن ابن أبى دواد قال له :

يا أمير المؤمنين : إن تركته قيل : إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله ، وأنه غلب خليفتين ، فهاجه ذلك وطلب كرسيا وجلس عليه ثم قال للجلادين : علىّ بالعُقابَيْن والسياط .

وكانت هذه المناظرة فى العشر الأواخر من رمضان سنة ٢١٩ هـ ثم كان ضرب الإمام أحمد .

* * *

ولقد قَصَّ علينا إمامنا الجليل جانبا من المحنة بلغته الخاصة ، فرأينا أن نقتطف هنا شذرات :

« لما كان شهر رمضان سنة تسع عشرة حُوّلت إلى دار إسحاق ابن إبراهيم ، فوجّه إلىّ فى كل يوم برجلين : أحدهما يقال له أحمد بن رباح ، والآخر : أبو شعيب !!

فلا يزالان يناظرانى ، حتى إذا أرادا الانصراف دعى بقيد فزيد بقيودى ! فصار فى رجلىّ أربعة أقياد !.

فلما كان اليوم الثالث دخل على أحد الرجلين فناظرنى فقلت له :

ما تقول فى علم الله ، قال : علم الله مخلوق ! فقلت له كفرت !.

فلما كان فى الليلة الرابعة وجه المعتصم إلىّ إسحاق فأمره بحملى إليه فأدخلت إلى إسحاق !. فقال : يا أحمد !.

إنها واقه نفسك ! . إنه لا يقتلك بالسيف ! . إنه قد آلى إن لم تجبه أن يضربك ضربا بعد ضرب ، وأن يلقيك فى موضع لا ترى فيه الشمس !

ثم قال : اذهبوا به ! !

قال أحمد :

فلما صرنا إلى الموضع المعروف بباب البستان أخرجت وجىء بدابة فحملت وعلىّ الأقياد ، ما معى أحد يمسكنى ! !

فكدت غير مرة أَخِرُّ على وجهى لثقل القيود ، فجىء بى إلى دار المعتصم فَأُدخلت حجرة ، وأدخلت فى بيت ، وأقفل الباب علىّ وذلك فى جوف الليل ، وليس فى البيت سراج !

فأردت أن أتمسح للصلاة فمددت يدى فإذا أنا بإناء فيه ماء وطست موضوع فتوضأت للصلاة وصليت ! !

فلما كان من الغد أخرجت « تكتى » من سراويلى وشددت بها الأقياد أحملها ، وعطفت سراويلى فجاء رسول المعتصم ، فقال : أجب !

فأخذ بيدى وأدخلنى عليه ، والتكة فى يدى أحمل بها الأقياد !

فإذا هو جالس ، وابن أبى دواد حاضر ! وقد جمع خلقاً كثيراً من أصحابه ! ومعهم أبو عبد الرحمن الشافعى !

قال إبراهيم بن محمد الحسن :

فأجلس بين يدى ! وكانوا هوّلوا علىّ ، وقد كانوا ضربوا عنق رجلين ! فنظرت إلى أبى عبد الرحمن الشافعى ! فقلت أى شىء تحفظ عن الشافعى فى المسح ؟

فقال ابن أبى دواد : أنظروا رجلا هو ذا يقدم لضرب العنق يناظر فى الفقه ! !

وقال المعتصم :

أدنه ، أدنه ، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ، فجلست وقد أثقلتني الأقياد !

ثم كانت المناظرة . فكنت أرد على كل واحد منهم ، فكان إذا انقطع الكلام عنه أجاب ابن أبي دواد هو والله ضال مضل أرحنا منه يا أمير المؤمنين .

فلما كان بعد المغرب وجّه إلى أي الخليفة برجلين من اصحاب ابن دواد يبيتان عندي ويناظرانني ويقيمان معي ، حتى إذا كان وقت الإفطار جيء بالطعام ويجتهدان بي أن أفطر ، فلم أفعل !

قال الإمام أحمد :

وجاءني ابن أبي دواد بليل وقال :

إن أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك ضرباً بعد ضرب ، وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس . ثم انصرف !

فلما أصبح اليوم الثاني جاءني رسوله فأخذ بيدي حتى ذهب بي إليه ، فقال لهم ناظروه وكلموه !

فجعلوا يناظرونني فأرد عليهم ، فإذا جاءوا بشيء مما ليس في كتاب الله عز وجل ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا فيه خبر ، قلت ما أدري ما هذا ؟ . .

فلم يزالوا كذلك إلى أن قرب الزوال .

فلما ضجر قال لهم : قوموا . .

ورُددت إلى الموضع الذي كنت فيه .

فلما كان الليل نام من كان معي من أصحابي ، وأنا متفكر في أمري . فإذا أنا برجل طويل يتخطى الناس ، حتى دنا مني ؛ فقال : أنت أحمد بن حنبل ؟ فسكتّ . فقالها ثانية ، فسكتّ ، فقالها ثالثة : أنت أبو عبد الله أحمد بن

حنبل ؟ قلت نعم . قال : « إصبر ولك الجنة »

ولما مسّني حر السوط ذكرت قول ذلك الرجل .

قال أحمد : فلما كانت الليلة الثالثة قلت : خليق أن يحدث غداً فى أمرى شىء .

فقلت لمن كان معى - الموكل بى - أطلب لى خيطا . فجاءنى بخيط ، فشددت به الأقياد ، ورددت التكة إلى سراويلى مخافة أن يحدث من أمرى شىء فأتعرّى .

فلما كان الغد من اليوم الثالث وُجّه إلىّ فأدخلت . فإذا الدار غاصّة ، فجعلت أدخل من موضع إلى موضع وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط ، وغير ذلك . فلما انتهيت إليه قال : أقعد .

ثم قال : ناظروه وكلموه .

فجعلوا يناظروننى وجعل صوتى يعلو أصواتهم . فجعل بعض من على رأسى قائم يومئ إلىّ بيده .

فلما طال المجلس . نحّانى . ثم خلا بهم . ثم نحّاهم وردنى إليه ، وقال : ويحك يا أحمد . أجبنى حتى أطلق عنك بيدى .

فرددت عليه نحواً مما كنت أرد .

فقال لى : عليك (وذكر اللعْنَ) .

ثم قال : خذوه واسحبوه . وأخلعوه .

فسُحبت ثم خلعتُ .

وكان قد صار إلىّ شَعر من شَعر النبى صلى الله عليه وسلم فصررته فى كُمّ قميصى .

فوجه إلىّ إسحاق بن إبراهيم . ما هذا مصروراً فى كُمّ قميصك .

فقلت : شعر من شعر النبي صلى الله عليه وسلم . فسعى بعض القوم إلى القميص ليخرقه عليّ . فقال لهم المعتصم : لا تخرقوه . فنزع القميص عني . وجلس المعتصم على كرسى ثم قال :

العُقابين والسياط .

فجيء بالعقابين والسياط . فمدّت يدى فقال بعض من حضر خلفي : خذ ثاني الخشبتين بيديك وشدّ عليهما . فلم أفهم ما قال . فتخلّعت يداى .

وكاد يرجع المعتصم لولا إغراء ابن أبي دواد له ..

قال الإمام أحمد :

ثم تقدم الجلادون ، فجعل يتقدم الرجل منهم فيضربني سوطين . فيقول له المعتصم : شدّ ، قطع الله يدك ...

ثم يتنحى ، ثم يتقدم الآخر فيضربني سوطين ...

فلما ضربت تسعة عشر سوطا ، قام إليّ فقال :

يا أحمد : علام تقتل نفسك ؟ إنى واللهِ عليك شفيق ! وجعل عجيف ينخسني بقائم سيفه ويقول : تريد أن تغلب هؤلاء كلهم .

وجعل بعضهم يقول : يا أمير المؤمنين ، دمه فى عنقى . اقتله !

وجعلوا يقولون : يا أمير المؤمنين : أنت صائم ، وأنت فى الشمس قائم !

فقال لى : ويحك يا أحمد ما تقول ؟

فأقول : أعطونى شيئاً من كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقول به .

ثم قال للجلاد : تقدم أوجع ، قطع الله يدك ...

ثم قال الثانية وقال : ويحك يا أحمد ، أجبنى ...

أجبنى إلى شيء فيه أدنى فرج أطلق عنك بيدى .

فأقول : أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم حتى أقول به .

فرجع وجلس ، فقال للجلادين : تقدموا فجعل الجلاد يتقدم ويضربنى سوطين ثم يتنحى .

قال الإمام أحمد :

فذهب عقلى .

فأفقت بعد ذلك . فإذا الأقياد قد أطلقت عنى .

وأتونى بسويق . فقالوا لى : (اشرب وتقيأ . فقلت : لست أفطر .

ثم جيء بى إلى دار إسحاق بن إبراهيم ، فحضرت صلاة الظهر ، فتقدم ابن سماعة فصلى .

فلما انفتل من الصلاة ، قال لى :

صليت والدم يسيل فى ثوبك .

فقلت : لقد صلى عمر وجرحه يثعب دما » .

* * *

هكذا لقى أمامنا الجليل فى سجنه ، وهكذا عانى من ضربه .

ولقد قصصنا عليك ما قصصنا بلغة الإمام أحمد لكى ترى بشاعة الإيذاء من ابن أبى دواد وأعوانه السفهاء .

طـــرائف

وهنا طرائف كثيرة ، ولكنها طرائف حزينة نسجّل شيئاً منهـا :

(١) لمّـا حدّث الإمامَ أحمد عمُّه إسحاق عن السّجن وضيقه وعن التقيّة قال الإمام :

أنا لا أخاف السّجن ، وإنمـا أخاف الضّرب ، فسمع الحديثَ رجل جرّب الضرب فى الله ، فقال : لا تفزع ! إنك تحسّ بالسوط الأول والثانى ثم لا تشعر بعد ذلك بشىء .

(ب) وروى المقريزى فى كتابه المقفى أن الإمام لمـا ضُرب السوط الأول قال : بسم الله ، فلمّا ضرب الثانى قال : لا حول ولا قوّة إلا بالله ، فلما ضُرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، فلما ضُرب الرابع قال . قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

وروى البيهقى أنه قال فى السـوط الأول : بسم الله ، وفى الثـانى قال : توكلت على الله وهذا فى رضا الله ، وفى الثالث قال : ما شاء الله كان وكل شىء عنده بمقدار ، وفى الرابع قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وفى الخامس قال : يا أمير المؤمنين ، إنك موقوف ومساءل عنى بين يدى ربّ لا يظلم ويأخذ للمظلوم من الظالم ، وفى السادس قال : سألتك بالله والدار الآخرة ، وفى السابع قال : يا أمير المؤمنين آذكر الوقوف بين يدى الله كوقوفى بين يديك ، لا تستطيع منعاً ولا عن نفسك دفعا . فلما ضربه الثامن اضطرب المئزر فى وسطه .

قال المروزى وعباس بن مسكويه الهمذانى : لقد رأينا أحمد يرفع رأسه إلى السماء وحرّك شفتيه فمـا استتم الدعاء ، حتى رأينا كفا قد خرج من تحت مئزره ، فردّ المئزر إلى موضعه بقدرة الله تعالى . .

وذكرنا هذه الرواية تحت الطرائف ، لأننا لا نجزم بصحتها كل الجزم ، فإن بعض العقول قد يطيقها ، والبعض الآخر قد لا يطيقها .

ونحن لا نستبعد على الإمام أن يقول ما قال ، لأنه كان متمتعاً بثبات الأطواد الشوامخ ، كما لا نستبعد إكرام الله له بإرسال هذه الكف التى سترت عورته ، وربطت سراويله .

(ج) ومن الطرائف أيضا أنه سُئل عما كان يحرّك به شفتيه عند اضطراب المئزر فقال فيما رواه ميمون بن الأصبع :

« اللهم إنى أسألك باسمك الذى ملأت به العرش ، إن كنت تعلم أنى على الصواب ، فلا تهتك لى سترا » .

وأخبر الراشدى أنه كان يقول عند الضرب :

« بك أستغيث يا جبار السماء والأرض »

(د) ومن الطرائف ما ذكره عبد الله بن الإمام أحمد قال :

كنت كثيراً ما أسمع والدى يقول :

رحم الله أبا الهيثم ، غفر الله تعالى لأبى الهيثم ، عفا الله عن أبى الهيثم ، فقلت : يا أبت : من أبو الهيثم ؟

فقال : هو أبو الهيثم الحداد ! فى اليوم الذى أُخرجتُ فيه للسياط ! ومدَدْت يدىّ للعقابين إذا أنا بإنسان يجذب ثوبى من ورائى ويقول لى : ألا تعرفنى ؟ قلت : لا . قال : أنا أبو الهيثم اللص ، مكتوب فى ديوان أمير المؤمنين أنى ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق ـ أى مفرّقة ـ وضُربت فى ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا ، فاصبر أنت على طاعة الرحمن للدين . قال الإمام : فضُربت ثمانية عشر سوطا بدل ما ضرب ثمانية عشر ألفا .

ولعل التحديد بالثمانية عشر ألفا فيه مبالغة ، ولكنها تدل على أى حال على كثرة الأسواط التى ضربها .

(ه) كان الإمام أحمد يستفتح كل يوم من الأيام التى حُرم فيها من صلاة الجماعة بالمسجد والجمعة والدعوة إلى الله بهذا الدعاء :

« اللهم إنى أبرأ إليك من حرمانى من صلاة الجماعة والجمعة والفتوى والدعوة إلى الله » .

وهذا يدل على تضايق الإمام رضى الله عنه من هذا الحرمان . وقد أشرنا إلى ذلك آنفا .

ثورة الرأى العام الإسلامى

ولقد ثار الرأى العام الإسلامى ثورة كبرى لحرمان المسلمين من دروس الإمام وفتاواه . ولسجنه وضربه ، فاجتمع الناس بالألوف على باب الخلافة حين ضُرب الإمام ، حتى خاف المعتصم على ملكه وعلى نفسه ، فأمر بما يأتى :

(١) إيقاف الضرب فوراً

(٢) إطلاق سراح الإمام من السجن

(٣) أن يخرج إلى الناس إسحاق بن حنبل عمّ الإمام أحمد ويطمئن الناس على أن إمامهم بخير ولم يحدث له شىء .

(٤) أن يتولى تمريضه طبيب خاص حتى يتم برؤه وشفاؤه

(٥) أن يُخلع على الإمام أحمد خلعة سنية ، وهى كما روى البيهقى مبطنة وقميص وطيلسان وخف وقلنسوة . ولكن الإمام باعها وتصدق بها

(٦) أمر والى بغداد أن يذهب كل يوم إلى الإمام أحمد يستفسر عن صحته ويخبره بالحالة عقب الاستفسار .

وأخرج الإمام أحمد على دابة عند غروب الشمس ووصل إلى بيته مكرما معززاً .

ولسنا ندرى :

هل يعتبر هذا العمل من المعتصم تكريما للإمام أحمد بدافع من نفسه بعد أن أهانه ، أم هو رد فعل لثورة الرأى العام ؟

والاحتمال الراجح عندنا أن السببين معا هما اللذان حملاه على ذلك .

فلقد قال المعتصم عن ثورة الرأى العام :

« لو لم أفعل ذلك بأحمد لوقع شر عظيم »

وروى المقريزى عنه أنه أبدى أسفا على ضرب الإمام أحمد لما ظهر له من صدق الإمام .

والحق أن ضرب الإمام أحمد يثير الشفقة ، ويستخرج الرحمة من نفوس الأعداء قبل الأصدقاء لأن هذا الضرب ترك فى جسم الإمام أحمد ندوبا وجروحا لم يشف منها إلى أن لقى ربه . وأعجب العجب أن ابن أبى دواد كان لا يزال متحجر القلب حتى لقد طلب من المعتصم أن يأمر باستمرار حبس الإمام ولكن المعتصم عارضه فى هذا .

واستمر الإمام أحمد معتقلا فى بيته ثم واصل المحنة من جديد فى عهد الواثق إلى أن تُوفى المعتصم فى عام ٢٢٧ هجرية .

المحنة في عهد الواثق

الواثق

هو هارون أبو جعفر ، أو أبو القاسم بن المعتصم بن الرشيد .

أمه رومية وهى أم ولد واسمها قراطيس .

ولد لعشر بقين من شعبان سنة ست وتسعين ومائة .

وولى الخلافة بعهد من أبيه .

وبويع له فى تاسع عشر من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين . وفى سنة إحدى وثلاثين جدد الكلام فى محنة القرآن ، وفى هذا العام قُتل أحمد بن نصر كما سنروى ذلك قريبا .

وروى السيوطى فى كتابه (تاريخ الخلفاء) أنه كان وافر الأدب ، مليح الشعر . ولقد عدّه بعضهم المأمون الأصغر ، بل فضّله البعض عن المأمون . وكانت ثقافة الواثق سببا فى أنه نظر للإمام أحمد نظرة فيها شيء من العطف والرفق . ولذلك لم يؤثر عنه أنه عذّب الإمام أو ضربه ، على ما عُرف به من شدّة الطبع ، وعنف الخصومة .

كل الذى قاله للإمام أحمد : لا تساكنّى بأرضى ! فكان الإمام طيلة حياة الواثق مختبئا ما بين داره ودار أصدقائه !

ولقد حدث فى أيام الواثق سنة ٢٣١ هـ كما جاء فى كتاب (التنبيه والأشراف) للمسعودى أنه فَكّ من الروم ألفا وستمائة أسير مسلم ، فقال ابن أبى دواد : من قال من الأسارى : القرآن مخلوق فخلصوه وأعطوه دينارين ، ومن امتنع فدعوه فى الأسر .

ويسجل التاريخ حادثة تتميز بالبشاعة وغلظة القلب ، وقعت فى

أيام الواثق ، تلك هى حادثة أحمد بن نصر الخزاعى ، العالم المتبوع والرجل العظيم .

لقد سأله الواثق عن رأيه فى خلق القرآن بعد أن أخبره والى بغداد بأنه ينكر القول بخلق القرآن ، فاستمر أحمد بن نصر فى إنكاره وتطورت المناقشة فسأله عن رؤية الله فأقرها ، والمعتزلة يمنعونها ، فثارت ثائرة الواثق ، ودعا بالسيف وقال : إنى أحتسب خطاى إلى هذا الكافر الذى يعبد ربا لا نعبده ولا نعرفه بالصفة التى وصفه بها . ثم مشى إليه فضرب عنقه وأمر به فحمل رأسه إلى بغداد فنصب بالجانب الشرقى شهورا وبالجانب الغربى شهورا ، ولما صلب كتب الواثق ورقة وعُلّقت فى أذنه نصها :

« هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك دعاه عبد الله الإمام هارون « وهو الواثق » إلى القول بخلق القرآن ونفى التشبيه فأبى إلا المعاندة ، فعجله الله إلى ناره ووكل بالرأس من يحفظه ويصرفه عن القبلة » .

وربما كانت هذه الحادثة أشنع ما ارتكبه الواثق فى عهده القصير الذى مكث من سنة ٢٢٧ إلى ٢٣٢ هـ .

والإمام أحمد لم يخرج من بغداد كما أمره الواثق ولكنه كان يختبئ من دار إلى دار وينتقل من حى إلى حى .

بل إن ابن حنبل فى أول خلافة الواثق كان قد خرج إلى الناس وانبسط فى الحديث حتى جاءته الأوامر بالكف[1] عن الحديث ونستخلص مما تقدم أن المحنة فى عهد الواثق كانت شديدة جداً بالنسبة لغير الإمام أحمد وكانت هينة بالنسبة للإمام أحمد .

---

(١) تذكر بعض المصادر أن الإمام أحمد كف عن الحديث دون أن يُمنع ، ولكننا لا نستريح لذلك .

رجوع الواثق عن المحنة قبل وفاته

وهناك حادثة على جانب كبير من الأهمّية تسبّبت فى أن الواثق غيّر عقيدته فى مسألة خلق القرآن .

ذلك أن شيخا من « أَذنة » طلب المناظرة ، فتصدّى له ابن أبى دواد فأعرض الشيخ عن مناظرته بحجة أنه من الصابئة ، وأنه واهن الرأى ، وطلب من الخليفة الواثق أن يُصغى إليه بنفسه ، فاستجاب الخليفة لطلبه .

وهذه المناقشة ـ كما جاءت فى كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى :

قال الشيخ مستفسرا من أحمد بن أبى دواد :

يا ابن أبى دواد : أخبرنى عن مقالتك هذه ؟ أهى مقالة واجبة داخلة فى عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه ما قلت .

قال ابن أبى دواد : نعم .

فقال الشيخ : أخبرنى عن رسول الله فى حين بعثه الله : هل ستر شيئاً مما أمر به ؟

فلم يردّ أحمد .

قال الشيخ : يا أمير المؤمنين واحدة . فقال الواثق : واحدة .

ثم قال الشيخ :

أخبرنى عن الله تعالى حين قال : اليوم أكملت لكم دينكم ، أكان الله هو الصادق فى إكماله دينه ، أم أَنت الصادق فى نقصانه حتى تقال مقالتك ؟

فسكت ابن أبى دواد .

فقال الشيخ : ثِنْتان ، فقال الواثق : نعم .

ثم قال الشيخ : أخبرنى عن مقالتك هذه ! أَعَلِمَهَا رسول الله صلى الله عليه وسلم أم جهلها ؟

فقال ابن أبى دواد : علِمها .

فقال الشيخ : فدعا الناس إليها ؟

فسكت .

فقال الشيخ : ثلاث ، فقال الواثق . نعم .

ثم قال الشيخ : فاتّسع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن علمها أن يمسك عنها ولم يطالب أمته بها .

فقال ابن أبى دواد : نعم .

فقال الشيخ : واتسع لأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ذلك .

قال ابن أبى دواد : نعم .

قال الشيخ : أفلا وَسِعك ما وسعه ووسع الخلفاء بعده ؟

فسكت ابن أبى دواد .

قال المهتدى أحد شهود هذه المناظرة :

إن الواثق رجع عن مسألة خلق القرآن منذ هذا الحين وأمر بإطلاق سراح الشيخ ومكافأته ، واحتقر ابن أبى دواد بعد ذلك .

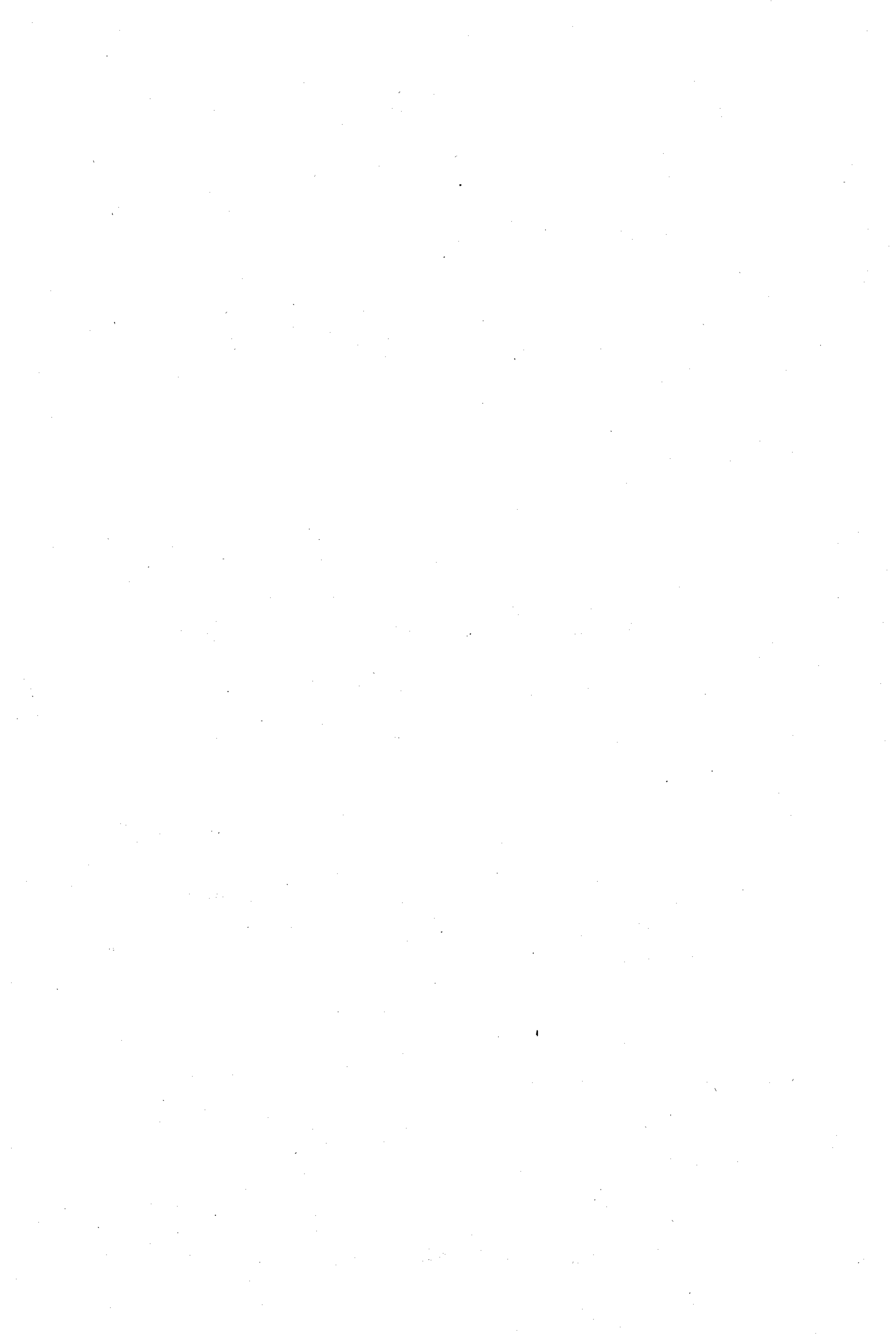
وذهب السيوطى فى تاريخ الخلفاء إلى أن اسم هذا الشيخ هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأذرمى شيخ أبى دواد ، والنسائى .

وقد ابتدأ نجم المعتزلة يأفل منذ ذلك الحين .

وسبحان المعز المذل ، الرافع الخافض !

وننتقل الآن إلى عهد المتوكل ، عهد الفرج واليسر !

وقد مات الواثق كما ذكرنا سنة اثنين وثلاثين ومائتين .



المحنة في عهد المتوكل

المتوكل

هو جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد .

أمه أم ولد اسمها : شجاع .

ولد سنة خمس وقيل سبع ومائتين ، وبويع له فى ذى الحجّة سنة اثنين وثلاثين ومائتين بعد الواثق .

قال السيوطى :

«فأظهر الميل للسنّة ، ونصر أهلها ، ورفع المحنة ، وكتب بذلك إلى الآفاق وذلك فى سنة أربع وثلاثين واستقدم المحدّثين إلى سامرا» .

وروى لنا المسعودى أن المسلمين فرحوا بتعطيل المحنة وألحقوا المتوكل بالخلفاء ذوى التاريخ الأبيض والمواقف المشهورة .

أما غيره من المؤرخين فقد روى أن الخلفاء ثلاثة :

أبو بكر يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى ردّه المظالم ، والمتوكل فى إبطاله المحنة !.

وجدير بالمسلمين أن يفرحوا بإنهاء هذه المحنة الطاحنة ، التى عرضت العالم الإسلامى للتنكيل والتشريد ، وعرضت الكثير من الفقهاء للحرمان والتعذيب !.

فهل ترك دعاة السوء الإمام أحمد يفرح بهذا الفرج ، ويستريح مما هو فيه من عناء ؟

لا !!

إن محنة خلق القرآن اسْدِل عليها السّتار لينكشف عن محنة أخرى يلدها الحقد الأعمى ، ويشعلها البُغض الدفين !.

إن المتوكل كان يكره العلويين وينظر إليهم نظرته إلى المنبوذين وكان يعلن الحرب عليهم وعلى من يؤويهم !.

فهل من مانع أن يدسّوا للأمام أحمد ويدخلوه فى الكير مرة أخرى !!؟

فإذا لم تكن المحنة الأولى قد قضت عليه ، فلتقض الثانية !.

قالوا للخليفة :

إن الإمام أحمد يؤوى فى بيته عَلَويا ، وإنه بذلك يعمل ضدّك فى الخفاء !. وكان ذلك سنة ٢٣٧ هـ .

وجُن جنون المتوكل !.

وعلى الفور أصدر أمره إلى عبد الله بن إسحاق حاكم بغداد ، أن يحقق مع الإمام ويفتش داره ويخبره الخبر !. وبينما الإمام جالس ببيته فى جوف الليل ، يتجافى جنبه عن المضجع ، ويتلو كلام ربه إذ طرق بابه مظفّر حاجب الوالى وصاحب البريد ابن الكلبى وامرأتان لتفتيش النساء وهذا يشبه ما نسميه اليوم بنظام البوليس النسائىّ !.

وفوجئ الإمام بهذا الموقف !.

أناس يقتحمون داره ليلا !.

نساء يفتشْن نساء البيت !.

رجل منهم يقول للإمام :

أنت متهم بإيواء عَلوى قادم من خراسان ، فاحلف أنه ليس عندك أحد !.

يا لله !!

إن الإمام لا يحلف بالله فى الأمور الجليلة اكتفاء بكلمة الصدق المجردة .

فكيف يخاف أمام جندى ، وهو الأمر الذى يكرهه أشد الكره ويمقته أشد المقت ؟

لحظات حرجة أنهاها أن تفتيش الدار انتهى دون أن يوجد فيه أحد . فاكتفى بهذا عن الحلف !. وكفى الله المؤمنين القتال . روى صاحب الحلية عن أبى الفضل صالح بن الإمام قال :

«وكان قد نام الناس ، فدُفع الباب ، وكان على أبى رحمه الله إزار ، ففتح لهم الباب فقعدوا على بارية ومعهم نساء ، فلما قرئ الكتاب قال لهم أبى : ما أعرف هذا : وإنى لأرى طاعته فى اليسر والعسر ، والمنشط والمكره وإنى أتأسف عن تخلّفى عن الصلاة وعن حضور الجماعة ودعوة المسلمين ، وقد كان عبد الله بن إسحاق وجّه إلى أبى أن الزم بيتك ولا تخرج إلى جمعة ولا جماعة ، وإلا نزل بك ما نزل فى أيام أبى إسحاق !. إلى آخر ما ذكره أبو نعيم» .

فلما ظهرت براءة الإمام أحمد مما اتُّهم به ، فرح المتوكل فرحا كثيرا ، وظهرت عليه أمارات الارتياح !.

وجاءت الأوامر من جديد ، بلغة جديدة ، ووجوه جديدة .

انفراج محنة الدين

وإقبال محنة الدنيا

هذا فصل جديد يظهر لنا الإمام أحمد بعد أن أقبلت عليه الدنيا ، وتطامن له الجاه ، وعنَتْ له الجباه ، الجباه العالية ، والوجوه الوجيهة !

لقد جاءه كتاب البراءة مسبوقا بريح يوسف ، ومكتوباً بلغة على بن الجهم . ومحمولا مع يعقوب المعروف بقوصرة !

وهذا هو نص الكتاب :

« إن أمير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قرفت به ، وقد كان أهل البدع - أى المعتزلة - قد مدُّوا أعناقهم ، فالحمد لله الذى لم يشمّتهم بك .

وقد وجّه إليك أمير المؤمنين يعقوب المعروف بقوصرة ومعه جائزة ويأمرك بالخروج .

فالله الله أن تستعفى أو ترد الجائزة !

✡ ✡ ✡

كانت الجائزة صُرّة فيها عشرة آلاف درهم ! ! ووضعها يعقوب بين يدى الإمام ، ثم قال له :

موعدنا الصبح ، لتتجهز ونرحل على المركب الفارهِ ، وإلى الجاه العريض !

✡ ✡ ✡

كيف استقبل الإمام هذا الأمر ؟

هل سال ريقُه ؟ هل هَشّ وبَشَّ ؟ ما كان شىء من هذا !

بل كان الأمر على عكس ذلك !

أرِق هذه الليلة أَرَقاً لم يأرقه فى السجن ، وأنّ أنيناً ما أنّه فى وجع ولا مرض ! وزفر زفرات حَرَّى ! !

ماذا يعمل بالعشرة آلاف؟! هذا المبلغ الضخم الذى لم يتعود أن يقبضه أو يتسلمه !

وأخيراً اهتدى إلى الحل الوحيد الذى لا ينفع معه غيره، ولا يريحه سواه !
قام سَحَرًا وأصدر أوامره إلى ولده صالح بأن يفرق هذا المال كله بين أولاد المهاجرين والأنصار وبين الفقراء عامة !

فلما توزّع المال كله قبل أن يطلع الفجر، أحسّ بالارتياح البالغ، والهدوء والسكينة !

ولكن توزيع المال أثار الخليفة وأحفظه ، فقال له على بن الجهم : إن الإمام أحمد لا يقصد شيئا !

وإذا كان الإمام أحمد قد تخلص من المال بما يناسب مزاجه وطبيعته !
فماذا يعمل فى دعوة الخليفة ؟

هذا أمر آخر أقضّ مضجعه ، وربَكَ عقله ووجدانه !

ولكنه لم يجد بدًّا من المسير !

* * *

ها هو الإمام يسير وئيد الُخطا ، مثقل التفكير ، حزين النفس ! حتى وصل إلى العسكر ونزل فى دار « إيتاخ » وهنا أرسل الخليفة إلى أولاد الإمام أحمد مبلغاً قيمته عشرة آلاف درهم بدلا من المبلغ الذى وزّعه الإمام فى بغداد ، وقيل لصالح : لا تعلم أباك بهذا المبلغ فيغتمّ !

وجاء رسول المتوكل يحمل إليه تحية المتوكل وسروره وتهنئته بسلامة الوصول !

وسيأتى فى آخر مخطوطة صالح وصف تفصيلى لما كان من الإمام فى هذه الحال ! !

* * *

ظهر للإمام أحمد أن الغرض من هذه الزيارة :

(١) التبرّك بدعائه .

(٢) أن ينتفع الخليفة بحديثه

(٣) أن يتولى الإمام أحمد تأديب ولده المعتزّ البالغ من العمر ست سنين

(٤) أن يقول الكلمة الأخيرة فى ابن أبى دواد !

(٥) وقبل ذلك وبعد ذلك يعوّض الإمام عن حياة السجن والبؤس ، حياة فيها يسر ونُعمى !

وكان رد الإمام أحمد رداً مرتبا مفصّلا :

(١) هو لا يحبّ السلطان آمراً أو مؤتمراً ! لأن الخليفة تعوّد الملق وهو لا يستطيعه ، ولأن الخليفة يكره المواجهة والمكاشفة وهو لا يرى إلا المواجهة والمكاشفة !

(٢) والحديث ! هو يريد أن يحدث العامة ، وما يريد أن يجالس الأمراء ، هو راغب أن يجلس على حصير المسجد وترابه ، لا على النمارق المصفوفة ، والزرابىّ المبثوثة !

وماله والحديث إلى الخليفة .

(٣) وتربية المعتز : أمر لا تطيقه نفسه ، لأنه خَشِن التربية والمعتز يرفل فى ثياب العزّ .

فبين الطبيعتين تناقض لا يأتلف ، وخطّان متوازيان لا يلتقيان .

(٤) وابن أبى دواد سنفرد له فصلا خاصا نبين فيه موقف الإمام أحمد المفصل فى هذا الموضوع .

أما الفخفخة التى أُرِيدَتْ له فقد بلور الردّ عليها فى كلمة موجزة مبللة بالدموع ، رواها لنا ولده أبو الفضل صالح :

« لما جاء كتاب المتوكل نادانى أبى فى جوف الليل فقمت إليه فإذا به يبكى ، فلما رآنى قال : ما نمت ليلتى هذه ! »

« سلمتُ من هؤلاء حتى إذا كان آخر عمرى بُليت بهم » قال هذه الكلمة قبل أن يرحل !

فلما استقر به المقام على مرأى ومسمع من الخليفة ، تضايقت نفسه ، وتكدّر خاطره !!

إنه يعيش فى عالم غير العالم الذى يحبه !

لا ترف الموائد يعجبه ، ولا أناقة الفراش تناسبه .

وزاد الأمر سوءاً استدعاء الخليفة له لكى يدخل القصر .

ولدخول القصر تقليد خاص ، وتعليمات معينة .

هذا يحيى بن خاقان يقبل خاصة ليعمل « بروفة » خاصة بملابس الإمام أحمد التى سيدخل بها القصر .

ولكن الإمام رجا فى إلحاح أن لا يلبس هذا اللباس الوثير . فلم يجب لطلبه . فلبسها على كره منه . حتى إذا عاد من هذه الزيارة الخاطفة ألقاها فى زهادة ، وأمر ولده صالحاً أن يبعث بها إلى بغداد حيث تباع ويتصدق بثمنها على الفقراء ، وحظر على أفراد أسرته أن يحتفظوا بشىء من هذه الثياب قصد استعمالها .

لم يشعر الإمام أحمد بهناءةٍ يوماً واحداً ولا ساعة واحدة .

بل إنه صام حتى أنهك جسمه النحيل ، وبصره الكليل .

ومرض حتى لازم الفراش ، وازدادت صحته سوءاً على سوء .

إن طعام القصر مبغّض إليه ، فإن معدته تهضم الكِسر اليابسة المأدُومة بالخل ! ولكنها لا تهضم فالوذج الخلفاء ! وخير ما يقال فى ذلك أنه طعام لم يأكله بأرض قومه !

وبلغ الخليفة مرضه !

فأرسل إليه طبيبه الخاص يوحنا بن ماسويه النصرانى السريانى !

ولكن الطبيب لم يجد به علةً إلا قلة الزاد ، وطول السُّهاد !

فنصحه بالكفّ ، وهيهات أن ينفتح قلب الإمام لنصح الطبيب !

إن علاجه الوحيد أن يرحل من القصر المنيف ، إلى البيت الخفيف ، ومن اللُّقمة الهنية إلى الكسرة العادية ، ومن الثياب المزركشة إلى الصوف والكِتّان !

ذلك هو ما يريد ! فهل أجيب ؟

بكل أسف لم يُجب أول الأمر لطلبه !

فاعتزل الغُرف الوثيرة ، واكتفى بحجرة بسيطة الأثاث اتخذها معبداً له ، مسِرًّا فى نفسه ما تضمره من كره ومقت ولكن أمراً آخر يفاجأ به يخرجه عن طور السكوت ويجعله يجهر بما يشاء ! !

لقد أباح الخليفة للإمام أحمد أن يتخفف من تقاليد القصر ، وأن يقابل الخليفة بما يحب من أردية قطنية أو صوفية ، وأن يعتزل من أراد من حاشية السلطان ، وأن تهيأ له الفرصة الزمنية لعبادة ربه ، ومناجاة مولاه !

كل ذلك فى مقابل أن يقبل مُقامه فى دار يشتريها له المتوكل يقضى فيها عمره بين سمعه وبصره !

وهذا أمر تهفو إليه النفوس الطامعة ، وتشرئبّ له الأعناق !

ولكن الإمام يرفض الفكرة دون تردد !

ويروى لنا صاحب الحلية ما يلى :

« قال أحمد : وأمر المتوكل أن تشترى لنا دار ، فقلت يا صالح : قال : لبيك ! قلت : لئن أقررت لهم بشراء ذلك لتكونن القطيعة بينى وبينكم .

إنما يريدون أن يصيّروا لى هذا البلد مأوى ومسكناً . »

وكان يعتقد أن القرب من السلاطين ومجالستهم مفسدة للدين ، ومحق للضمير .

وأقام الإمام أحمد فى حجرة ضيقة . واشترط أن لا يُسرج له فيها سراج .

وكانت إقامة كلها توجع وأنين .

قال الإمام أحمد :

« والله لقد تمنيت الموت فى الأمر الذى كان ، أى المحنة التى مرت ! وإنى لأتمنى الموت فى هذا وذاك . إن هذا فتنة الدنيا وكان ذاك فتنة الدين .

ثم جعل يضم أصابع يده ويقول :

« لو كانت نفسى فى يدى لأرسلتها ثم يفتح أصابعه » .

وجرت الأمور فى القصر على بعض ما يحب الإمام .

ولكن شجاراً يدبّ من جديد بين الإمام أحمد وعمه إسحاق .

بدأ هذا الشّجار بطلب إسحاق : أن يدخل الإمام على الخليفة فيأمره وينهاه ، كما يدخل إسحاق بن راهويه على عبد الله بن طاهر فيأمره وينهاه .

ولكن للإمام رأى لا يتغير .

روى لنا المقريزى فى كتابه المقفى عن المروزى أنه سمع المشاجرة بين الإمام وعمّه وسجل لنا ما قاله الإمام :

« تحتجّ علىّ بإسحاق وأنا غير راض بفعله ، ما له فى رؤيتى خير ، ولا لى فى رؤيته خير . يجب علىّ إذا رأيته أن آمره وأنهاه . الدنوّ منهم فتنة ، والجلوس

معهم فتنة ! نحن متباعدون منهم ، ما أرانا نسلم ، فكيف لو قربنا منهم » .

وهكذا عاش الإمام أحمد فى قمّة زهده وعفته ، ينظر إلى الخليفة نظرة الحذِر المحتاط ، لا يقبل بل يدبر ، ولا يرغب بل يحجم .

والإمام أحمد فى إقدامه وإحجامه عزيز غير ذليل ، وأصيل فى طبعه غير دخيل .

وهنا أمر لاحظه الإمام وهو جدير بالتسجيل .

هذه الحاشية الغادية الرائحة تقبّل الأيدى ، وتعظم وتقدس . .

أليست هى الحاشية الضاربة الساجنة له بالأمس ؟

ما الذى غيّرها وبدلها .

إن الإمام لم يتغيّر ، ولم يتبدّل .

ولكن الحاشية هى التى تصْدُر فى طباعها عن النفاق المبطن والدهاء المكنون .

ولذلك فما أشد ما كان يحتقرها الإمام ويزدريها . وكان ينظر إليها نظرة المبتئس من وجوهها الكالحة ، وخلالها المغشوشة .

وشغل الإمام بمسألة أخرى هامة :

من أين يعيش أولاده ؟

هل عصموا أنفسهم كما عصم أبوهم ؟

هل زهدوا فى الدنيا كما زهد والدهم !

إذن فليسأل عنهم !

وسأل عنهم فوجدهم قد استباحوا لأنفسهم بعض ما أحل الله ، وقبلوا

بعض المكافآت التى وصلت إليهم من قبل الخليفة ، فكتب إلى ولده أبى الفضل :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أحسن الله عاقبتك ، ودفع عنك السوء برحمته ، كتابى إليك وأنا فى نعم الله متظاهرة ، وأسأله إتمامها والعون على أداء شكرها .

قد انفكّت عنى عُقَد : إنما كان حُبس مَن ههنا لَمّا أُعطوا فقبلوا ، وأُجرى عليهم فصاروا فى الحد الذى صاروا إليه ، وحدّثوا ودخلوا عليهم فهذه كانت قيودهم . فنسأل الله أن يعيذنا من شرهم ويخلّصنا !

فقد كان ينبغى لكم لو فديتمونى بأموالكم وأهليكم لهان ذلك عليكم للّذى أنا فيه . فلا يكبُر عليكم ما أكتب به إليكم ، فالزموا بيوتكم ، فلعل الله أن يخلّصنى . والسلام عليكم ورحمة الله .

لم يكن هذا أول كتاب ولا آخر كتاب !

وكانت كلها تحملهم على التزهيد فى الدنيا ، والتحقير لعطايا الخلفاء !

وكم كانت عطايا الخلفاء سببا فى وقوع الشحناء بين الإمام الوالد والأبناء ! وسنقص طرفا من ذلك عند الكتابة على أحمد بن حنبل الفقير .

وأخذت صحة الإمام فى التأخر رغم عناية الخليفة وحاشيته ، وازداد تضجّره من كثرة الكرم ، وزيادة العناية

وكتب إلى الخليفة يستأذنه فى أن يعود إلى بغداد ، ولم يجد الخليفة بدا من إجابة رجائه ، فأجاب آسفا ، وأذن له أن يسافر ، وأمر أن تعدله سفينة جميلة وأن تكون عودته بحرا للنزهة والتمتع ، ولكن الإمام اعتذر عن النزهة البحرية متعللا بصحته وأنه لا يتحمل برودة البحر ،

وأمر الخليفة أن يعطى الإمام ألف دينار ليقسمها فى الناس ، فاعتذر الإمام عن قبولها وقال : أعفانى أمير المؤمنين مما أكره ، ثم أمر الخليفة بأن يسكن الإمام فى بيت ببغداد على نفقة الخليفة فاعتذر عن ذلك .

* * *

وهكذا نقف مبهوتين أمام خلق هذا الرجل العظيم .

وننتقل الآن إلى خُلق آخر من هذا القبيل .

أحمد بن حنبل وابن أبى دواد

ماذا كان من الإمام أحمد بعد أن أعزه الله ونصره ؟

هل نشب أظفاره فى ابن أبى دواد كما فعل هو من قبلُ ؟

هل حرض الخليفة على الثأر منه والنَّيْل ، كما يفعل العادون من البشر ؟

إن التاريخ يحنى رأسه أمام الإمام إكبارا له وتقديرا لهذا الموقف الإنسانى العظيم .

انظر : إن ابن أبى دواد أصبح المذءوم المدحور فى الدولة ، المريض بالفالج ، المصادرة أمواله ، المنبوذ لدى الخليفة والحاشية ، المعزول عن الوظائف الكبيرة والصغيرة .

ومع ذلك كله ، فهو يدخل على الخليفة والإمام أحمد جالس عنده ، ويقال له : إن هذا هو ابن أبى دواد ، فيسأل الإمام أحمد : وماذا جرى له حتى ساءت صحته ، وتغيّرت حاله . وكان مع هذا السؤال أسف عميق ، وآهة حزينة .

وانتظر الخليفة كلمة واحدة من الإمام أحمد أو إشارة لينكّل بابن أبى دواد ، ولكن الإمام أحمد يقول : معاذ الله أن آمر بشىء من هذا . وينتهى الموقف عند هذ الحد .

ثم يسأل الإمام مرة أخرى : ما رأيك فى أموال ابن أبى دواد ؟

فيسكت : فيعاد عليه السؤال ، فلا يتكلم .

إنه يعيش فى عالم من الخلق الرفيع لا يعرف حقدا ولا حسدا ، ولا ضغناً .

ولعل القارئ يذكر ما فعله ابن أبى دواد بالإمام ، لقد نسى الإمام كل ذلك ... بل إنه دعا ربه أن يغفر لابن أبى دواد كما ذكرنا فى ثنايا الكتاب .

وقد صوّر لنا أحد الكتّاب المحدثين فى مشهد روائى تاريخى موقفا جليلا من مواقف الإمام أحمد مع ابن أبى دواد ، ونحن نقدمه فيما يلى ، لما فيه من طرافة علمية لا تتعارض مع التاريخ .



مشهد تاریخی

نحب أن نسجل مشهداً تاريخياً بين الإمام وبين ابن أبى دواد يشهد بسيادة الخلق الحنبلى ، وعظمة النفس الكبيرة ، التى لا تصغر أمام التشفى والأحقاد .

المتوكل ينادى وهو جالس على عرش الخلافة :

ما وراءك يا يعقوب ؟

يعقوب : هذا أحمد بن أبى دواد يا أمير المؤمنين قد جاءوا به محمولا إليك كما أمرت .

المتوكل : فليدخلوا بالمخذول هنا .

يعقوب : سمعاً يا أمير المؤمنين .

(وخرج يعقوب ثم عاد بابن أبى دواد ، يحمله اثنان من الشرطة تتوجه الأبصار إليه) .

المتوكل : ضعوه على الأرض وأسندوه إلى هذا الجدار .

(وضعوا ابن أبى دواد على الأرض وسند إلى جدار فى أحد الأركان وهو مريض بالفالج لا يستطيع الحركة) .

ابن أبى دواد : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

المتوكل : وعلى غيرك السلام . هيه يا ابن أبى دواد ، هل لك أن تحدثنا عما فعلتموه بأحمد بن حنبل ؟

ابن أبى دواد : ما أخال أمير المؤمنين يجهل ذلك .

المتوكل : أحقاً جىء له بالجلادين فضربوه حتى غُشِى عليه .

ابن أبى دواد : نعم يا أمير المؤمنين .

المتوكل : هل تعتقد أنه كان يستحق كل ذلك العذاب .

ابن أبى دواد : . . . ؟

المتوكل : ماذا كانت جريرته ؟

ابن أبى دواد : أبى يا أمير المؤمنين أن يقول : إن القرآن مخلوق ؟

المتوكل : أكنت ترى أنه يكيد للدين ويبغى به شراً ؟

ابن أبى دواد : لا ياأمير المؤمنين ، ولكنه أخطأ .

المتوكل : وكيف علمت أنه أخطأ ؟ أأنت أعلم بالدين وأَفْقَه بالسنة من هذا الإمام الكبير ؟

ابن أبى دواد : ياأمير المؤمنين ، ما كنت أنا وحدى فى هذه السبيل . لقد كنت مع أبيك المعتصم أمير المؤمنين فى ذلك .

المتوكل : أفكان المعتصم أفقه وأعلم من أحمد بن حنبل ؟

ابن أبى دواد : وكان على ذلك أيضاً عمك المأمون أمير المؤمنين .

المتوكل : ويلك ، لأن المأمون قد شدا شيئا من فلسفة يونان يكون أعلم بكتاب الله وسنة رسوله من ابن حنبل ؟

ابن أبى دواد : كانت سياسة الدولة ياأمير المؤمنين تقتضى ذلك .

المتوكل : أى دولة تعنى ، دولتنا أم دولة خصومنا العلويين ؟

ابن أبى دواد : بل دولتكم ياآل عباس .

المتوكل : أفلم يكن المأمون من الساعين فى هدمها ؟ ألم يرد أن ينزعها من أيدينا ليجعلها لآل أبى طالب ؟

ابن أبى دواد : إنك تعلم ياأمير المؤمنين ألا يَدَلى فى تلك السياسة .

المتوكل : فإنى لن أعاقبك عليها ، ولكنى سأعاقبك على ما ظلمت هذا الإمام الجليل وعرضته للعذاب ، طوال حكم المأمون عمى والمعتصم أبى والواثق أخى .

ابن أبى دواد : إنه كان يتشيع لآل على ياأمير المؤمنين .

المتوكل : قد فتشوا داره فلم يجدوا فيها أحداً من أعدائنا العلويين كما ادعيت عليه زوراً منك وبهتاناً .

ابن أبى دواد : لعله كان قد هربه يا أمير المؤمنين .

المتوكل : كذبت أيها المجرم الآثم . والله لأستصفين ما بقى من أموالك حتى لا يبقى عندك دانق واحد .

ابن أبى دواد : حنانيك يا أمير المؤمنين ابق شيئاً لأهلى وأولادى أما كفى ما أخذت من مالى حتى أصابنى هذا الفالج ، عافاك الله .

المتوكل : تلك عقوبة الله وبقى أن تذوق عقوبتى .

ابن أبى دواد : يا أمير المؤمنين ليس من العدل أن تعاقبنى وحدى فيما حل بابن حنبل .

المتوكل : ويلك أأنبش قبور شركائك : المأمون والمعتصم والواثق ؟ أهذا ما تريد منى يا لكع .

ابن أبى دواد : معاذ الله يا أمير المؤمنين . ولكنى أطمع فى عفوك أنت ، كما أطمع لهم فى عفو الله وغفرانه .

ودخل يعقوب .

يعقوب : يا أمير المؤمنين هذا أحمد بن حنبل قد وصل .

المتوكل : أهلًا به فليدخل .

خرج يعقوب .

المتوكل : أتقبل يا هذا أن أحكّم أحمد بن حنبل فى أمرك ليقضى عليك بما يشاء ؟

ابن أبى دواد : يا أمير المؤمنين أنت أرحم وأعدل من أن تكل أمرى إلى خصمى !.

المتوكل : ألا تريد أن تحتكم إليه ؟

ابن أبى دواد : إليك وحدك . إليك وحدك أحتكم ياأمير المؤمنين .

المتوكل : فابق حيث أنت ولا تنطق بكلمة حتى يؤذن لك .

(دخل الإمام أحمد بن حنبل فيقوم له الخليفة وجلساؤه إعظاماً ثم يجلسه المتوكل إلى جانبه) .

المتوكل : مرحباً بك ياأبا عبد الله أنت عندنا على الرحب والسعة .

أحمد : أصلحك الله يا أمير المؤمنين . هاأنذا قد حضرت اليوم إلى قصرك امتثالًا لأمرك فماذا يريد أمير المؤمنين منى .

المتوكل : عندى لك عتب يا أبا عبد الله ، أريد أن أسمعك إياه .

أحمد : فيم العتب يا أمير المؤمنين ؟

المتوكل : أنت تكره أن تغشى مجلسى يا أبا عبد الله !

أحمد : إنما أكره أن أجىء لغير حاجة يا أمير المؤمنين حتى لا أشغلك عن ذوى الحاجات من رعيتك .

المتوكل : بل كرهت الرحلة إلينا من بغداد .

أحمد : إنما أشفقت من مشقة الرحلة يا أمير المؤمنين ، فإنى كما ترى شيخ هرم .

المتوكل : سحقاً لهم ، لقد بلغونى أنك تكره لقائى وتتنصل ، وإلا لأعفيتك من هذه المشقة .

أحمد : هذا يا أمير المؤمنين مثل الذى بلغك عن دارى ، أنى آوى فيها أحد أعدائك !

المتوكل : أجل . . سامحنى يا أبا عبد الله إذ أمرت بتفتيش دارك .

أحمد : قد سامحتك يا أمير المؤمنين من قبل .

المتوكل : والهدية التى أرسلتها إليك بلغنى أنك استنكفت منها ففرقتها على الفقراء والمساكين .

أحمد : يا أمير المؤمنين لقد وجدت هؤلاء أحوج منى إليها فتصدقت بها عليهم وقصدت والله ألا أغضبك .

المتوكل : (يبتسم ضاحكا) صدقت يا أبا عبد الله · والله لا أسمع فيك مقالة واش بعد اليوم .

أحمد : حياك الله يا أمير المؤمنين وبياك ·

المتوكل : إنك سامحتنى فيما كان منى فى حقك فهل لك أن تسامح المعتصم أبى وتجعله فى حل !

أحمد : قد فعلت يا أمير المؤمنين .

المتوكل : (فرحاً) أحقا يا أبا عبد الله ما بقى فى قلبك من شىء عليه .

أحمد : ولا أحداً ممن آذانى قد جعلتهم جميعا فى حل ·

المتوكل : حتى هذا المجرم اللعين . (يشير إلى ابن أبى دواد) ·

أحمد : ينظر إلى حيث أشار المتوكل . ومن يكون هذا يا أمير المؤمنين ؟

المتوكل : ألا تذكر ؟ هذا عدوك أحمد بن أبى دواد ·

أحمد : ما هو لى بعدو يا أمير المؤمنين . لقد سامحته وعفوت عنه .

المتوكل : يعقوب .

يعقوب : لبيك يا أمير المؤمنين ·

المتوكل : احملوا هذا المخذول إلى أهله .

ابن أبى دواد يحمله الشرطيان ليخرجاه : يا أمير المؤمنين حكّم أبا عبد الله فى أمرى .

المتوكل : هيهات . قد رفضت ذلك من قبل فليس لك غير حكمى أنا

ابن أبي داود : حنانيك يا أمير المؤمنين اجعل حكمى إليه .

وخرج وهو يصيح ويستغيث .

أحمد : ما خطبه يا أمير المؤمنين . ما خطب ابن أبي دواد .

المتوكل : كنت أردت أن أنتقم لك منه ، ولكنك عفوت فأمرتهم أن يعيدوه إلى أهله .

أحمد : أكرمك الله يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى يقول : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) .

المتوكل : هذا الذى عذبك يا أبا عبد الله واضطهدك هذا الذى دفع أبى وعمى وأخى إلى عذابك .

أحمد : رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم اغفر لابن أبى دواد اللهم تب عليه .

المتوكل : وتدعو له يا أبا عبد الله ؟ وتدعو للعصاة المجرمين ؟

أحمد : ماضيا فى دعائه اللهم إن قبلت عن عصاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم فاجعلنى فداء .

(استولى على الحاضرين خشوع عميق وتندت عيونهم بالدمع ، ويسود بينهم الصمت برهة) .

المتوكل والدمع فى عينيه : أبا عبد الله : لا غنى لنا عن صحبتك أفلا تقيم عندنا إلى ما شاء الله .

أحمد : لو أعفيتنى يا أمير المؤمنين وأذنت لى بالرجوع إلى دارى فى بغداد . كنت لك من الشاكرين .

المتوكل : أترغب عن جوارى يا أبا عبد الله . أم تشكو من تقصير فى حقك ؟

أحمد : سأصدقك القول يا أمير المؤمنين . إنى لا أحب أن تكون أقسى على من المعتصم أبيك .

المتوكل : كيف يا أبا عبد الله ؟

أحمد : سامنى أبوك فتنة الدين أمس ، وأنت اليوم تسومنى فتنة الدنيا بما تغدق علىَّ وعلى أهلى من عطاياك وقد نجوت من الأولى يا أمير المؤمنين وأخشى ألا أنجو من الثانية .

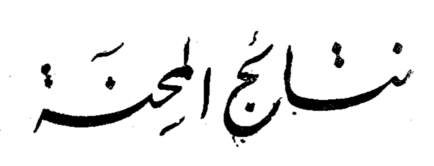
المتوكل : فهمت قصدك يا أبا عبد الله ، ولك عندنا ما تحب .

أحمد : فرحا . أَبقاك الله يا أمير المؤمنين ووفقك لكل خير .

المتوكل : عظنى يا أبا عبد الله قبل أن ترحل عنى . عظنى موعظة أحفظها عنك ما حييت .

أحمد : يا أمير المؤمنين . السفر قريب ، والطريق طويل ، والزاد قليل .

المتوكل : تمتم باكيا . يا أَبا عبد الله . السفر قريب ، والطريق طويل ، والزاد قليل .



(١٤)

نحب أن نلخص هنا فى إيجاز نتائج هذه المحنة القاسية التى عاناها الإمام أحمد زهاء سبعة عشر عاما تقريبا ، لأن المحنة ابتدأت فى عهد المأمون سنة ٢١٨ هـ وانفرجت فى عهد المتوكل سنة ٢٣٤ هـ . وهذه النتائج فردية وجماعية .

ونقصد بالفردية النتيجة المباشرة التى عادت على ابن أبى دواد ، والإمام أحمد .

وقد عرفنا ـ فيما سبق ـ أن ابن أبى دواد ، انتهى أمره إلى الذلّة بعد العزّة ، والهزيمة بعد الانتصار . .

أما الإمام أحمد فقد حفر له المعتزلة حفرة ، وأرادوا أن يلقوه فى غيابت الُجبّ ! فوقعوا هم . ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله .

لقد رفع الله ذكره ، وشرح الله صدره ، ونشر علمه ، وجعل الجاه يتطامن له من سؤدده ، والولاة يطلبون رضاه فى خشوع وإكبار !

ولعل الأهواء هى التى سقطت بابن أبى دواد عن المنزلة التى كان يريدها ، والمقام الذى كان يبتغيه .

واتّباع السنّة والتقيد بالشريعة والحرص على كرامة القرآن وسلامة مصادر التشريع ، هو الذى أحلّ الإمام أحمد هذه المنزلة ، وأنزله ذلك المكان .

أما النتائج الجماعية للمحنة ، فقد انفرجت الأزمة بأفول نجم المعتزلة ، وسقوط دولتهم . وارتفاع لواء أهل الحديث وتبوء المكانة الرفيعة .

ونسجّل هنا لأهل الحديث ـ بعد انتصارهم ـ حرصهم على إقامة السنّة ، وتنفيذهم لحدود الله ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل .

فكانوا إذا قابلوا سكّيراً ضربوه ، وإذا وجدوا مغنّية منعوها وكسروا مزاميرها ، وإذا صادفهم خمر أراقوه ، وهكذا حتى سادت السنة فى العالم

الإسلامى فترة كبيرة من الزمن .

ولعل ذلك كله يشفع للحوادث الفردية التى حدثت من بعض أفراد الحنابلة كضربهم لابن جرير الطبرى حين امتنع عن ذكر الإمام أحمد فى عداد الفقهاء ، وغير ذلك من الأحداث الفردية التى لا تخلو منها جماعة انتصرت بعد ظلم ، وعزّت بعد ذلّ ! !

أما العالم الإسلامى فى بغداد وغير بغداد ، فنستطيع أن نقول : إنه لم يستفد فائدة ذات بال من هذه المحنة ، بل روّع ترويعا عظيما ، وابتلى فى علمائه ، وفقد بعض شخصياته الكبيرة كأحمد بن نصر الخزاعى ، ونعيم ابن حماد ، وأبى يعقوب البويطى ، ومحمد بن نوح وغيرهم .

يضاف إلى ذلك أن الإمام أحمد قد شغله السجن والضرب عن مزاولة الحديث فترة من الزمن تبلغ سبعة عشر عاما ، وهى فترة تكفى لإخراج موسوعات علمية حديثية غير المسند وفقهية !

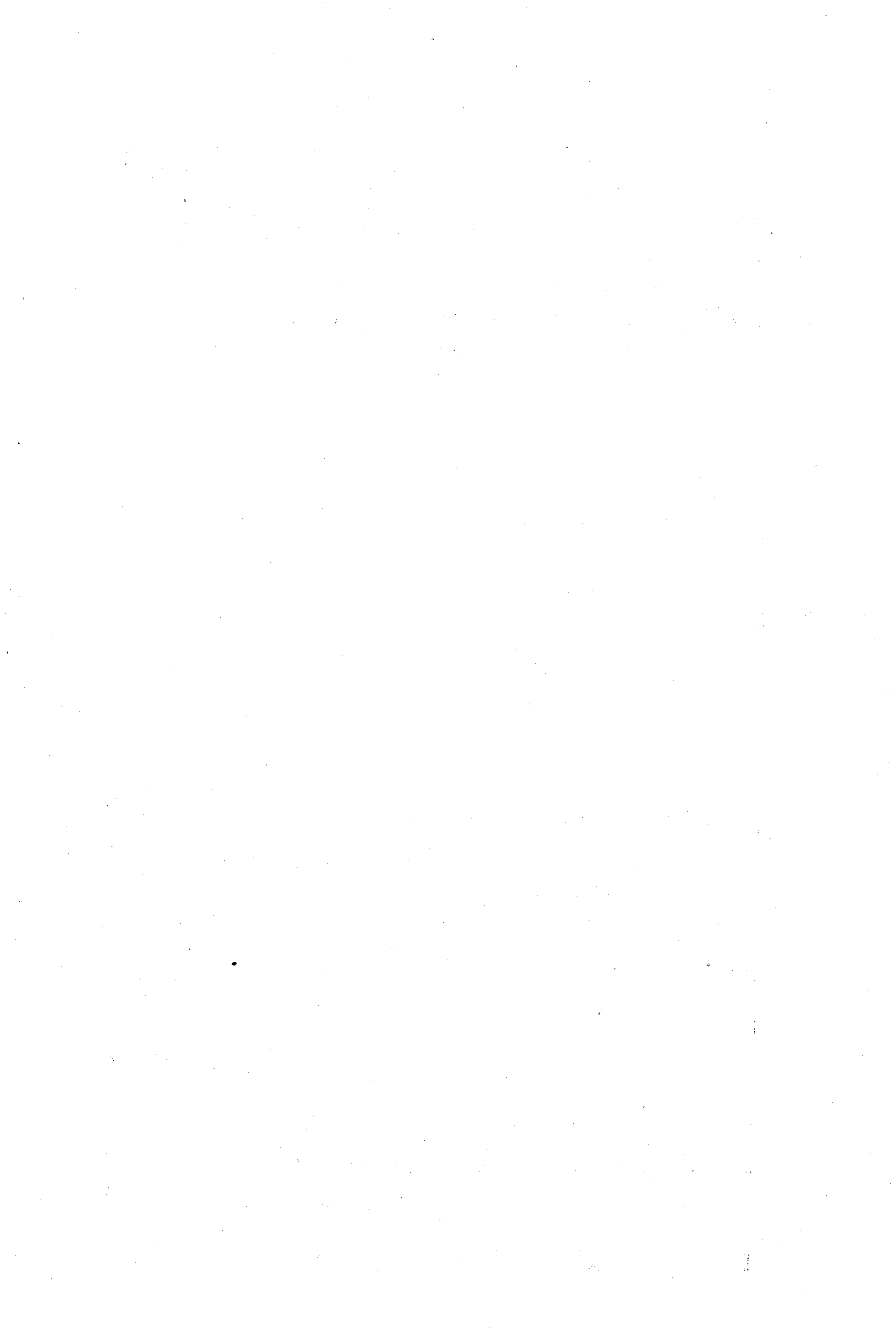
وحتى المناظرات التى دارت بين الإمام أحمد والمعتزلة ، مناظرات لا تفيد العقل ولا القلب كثيراً ، لأنها مناظرات دارت حول نقطة ما كان أغنى العالم الإسلامى عنها كل الغناء .

والإمام أحمد كان يُضطر إلى هذه المناظرات اضطراراً . .

ومع هذه النتائج المؤسفة بالنسبة للمعتزلة وابن أبى دواد ، فقد أدخل الإمام أحمد فى كير المحنة ـ كما قال بشر بن الحارث الحافى ـ ولكن خرج منه ذهبا أحمر .

وقد كان للمحنة عواقب وخيمة فى مصر وغيرها ، ولكننا أثناء البحث لم نجد حاجة قوية للتعرض لهذه الأخبار ، فقد شغلنا استقصاء أخبار الإمام أحمد عن غيره من الناس .

والآن ننتقل إلى ما وعدنا به وهو الفصل الكامل عن حياة الإمام ونشأته !



أحمد بن حنبل حياته ونشأته

* حمد بن حنبل اليتيم الفقير .
* أحمد بن حنبل الرحالة فى طلب العلم .
* أحمد بن حنبل المحدّث ـ كتاب المسند ـ كتاب الزهد .
* أحمد بن حنبل الفقيه .
* تلاميذه .
* أحمد بن حنبل والصوفية .
* أحمد بن حنبل الإمام .
* انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

عرضنا ـ فيما مضى ـ المحنة الحنبلية القائمة ، وبواعثها ونتائجها ، ونذكّر هنا بما قلناه بادئ بدء ، من أنها لا تزال بعد ذلك « بكْرا » ، كلما نقّب الإنسان فيها خرج بجوانب نفسية عميقة تصلح ذكرى بانية للفرد وللمجتمع من نواح كثيرة !

والآن نختم البحث بفصل تكميلي نعدّه بمثابة « اللّبِنه » المكملة !

ونحن مضطرون فى هذا الفصل إلى الوجازة والبساطة والسرعة الزمنية فى ربط حياة الإمام بعضها ببعض .

ونعتبر هذا الفصل ضروريا فى منهاج البحث ، لأنه يعرفنا كيف نشأ الإمام أحمد نشأته المكدودة ، وكيف رحل إلى الآفاق الإسلامية فى الشرق العربى راجلا وراكبا ، فاطما نفسه عن كل شهوة ، محمّلا نفسه فى سبيل ذلك ما تطيق ولا تطيق .

ثم كيف تبوأ المكانة الكبيرة بين الخاصة بعلمه وعقله ، وفقهه وورعه ، كما تبوأها بين العامة والخاصة بصبره على الحق وللحق وفى الحق .

وبعد ذلك سنعرف كيف انتقل إلى الرفيق الأعلى تاركا لنا ثروة من العلم والفقه والحديث ، وذرية نجيبة رشيدة .

وسوف لا أتعرض بإسهاب كما قلنا للفقه الحنبلى فإن ذلك يحتاج إلى بحث قائم بذاته لسعة مراميه ، وكثرة « حواشيه » !

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

أحمد بن حنبل اليتيم الفقير

ولد الإمام أحمد فى ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ كما ذكر ابنه صالح رواية عن الإمام نفسه !

حملت به أمه فى مَرْو ، ثم ولدته فى بغداد على القول الراجح !

كانت تعيش أسرته الشيبانية بالبصرة بعد أن هاجرت إليها من العراق عقب تخطيط البصرة فى عهد عمر بن الخطاب !

وكان الإمام يعتز بمسجد مازن فى البصرة اعتزازا كبيرا لأنه كان يَشَمّ فيه رائحة آبائه على حد تعبيره !

ولقد كان الإمام أحمد شديد الحنين إلى الآباء وآثارهم لأن أباه قد مات وهو طفل صغير .

فكان اليتيمَ فى أبيه ، كما كان الدّرّة اليتيمة بين أقرانه وذويه !

وقد أشرف على تربيته أمه وبعض أسرته .

ويلاحظ أن الإمام لا ينسب إلى أبيه « محمد » وإنما ينسب إلى جده « حنبل » .

وليس لهذا علة ظاهرة عندى ، إلا أن يكون موت أبيه صغيرا ـ فى الثلاثين من عمره ـ هو السبب فى ذلك .

ومع أنه فقد أباه صغيراً ، إلا أنه عاش عيشة الأقوياء الأعزّاء ، الأشِدّاء الرحماء .

فتربية أمه لم تؤثر فى عوده وعزيمته ، وكم من أُمٍّ هى أصلب من أب .

الفقر الطبيعي والفقر الصناعي

لم يرث الإمام أحمد من أبيه مالا كثيرا ، ولا ضيعة واسعة ، كل الذى تركه له أبوه عقار يسكنه ، وعقار يؤجره . وكان يُغِلّ عليه مالا محدودا لا يتجاوز سبعة عشر درهما فى الشهر - كما روى ابن كثير ، لا يكفيه إلا شَظَفا ، ولا يغنيه إلا من ضرورة .

لم يحاول الإمام أحمد أن ينمّى ثروته ، ولا أن يوسّع دخله ، لأن ينابيع نفسه كانت مفتوحة على الحديث والعلم والدعوة إلى الله عز وجل ، ولأن مفاتيح عقله كانت موجهة نحو الاقتداء والتأسّى بالسلف الصالح ، ولأن غرائزه مفطومة أولا بأول عما يهيجها ويثيرها .

لذلك كله كان قانعا بما أعطاه الله له ، ولو كان أهله وأولاده يضيقون فى كثير من الأحيان بهذا الضنك المنهك ، والضيق الذى لا يعرف الترفيه يوما من الأيام .

وقد ينصرف الإنسان عن تنمية ثروته بالجهد والعمل ، ولكنه يهوى الغِنى ويتمناه ، فإن سنحت له فرصة عَضّ عليها بالنواجذ ، واجتهد الوصول إليها بالحيلة ، وحينئذ يكون فقره عجزا وكسلا ولكن الإمام أحمد لم يكن من هذا القبيل .

فلم يهْوَ الغنى ولم يتمنّه .

بل أمكنه كثيرا أن يكون من الأغنياء الأثرياء فرفض . وجاءه كثير من عطايا الخلفاء ، ومِنَح الأصدقاء فردّه فى شمم وإباء .

ولنذكر هنا بعض الحوادث لتأخذ بأيدينا إلى ينابيع هذه النفس الكريمة :

١ ـ كان الإمام الشافعى يدرِّس فى بغداد ، وكان الإمام أحمد من روّاد هـذا الدرس ، ولاحظ الشافعى شدّة حاجة أحـد ، وكثرة ورعه !. فعرض عليه أن يكون قاضيا باليمن ، لسببين :

(ا) أن يستعين بمكافأة القضاء على دنياه .

(ب) ليكون قريبا من عبد الرزاق بن همام المحدث المشهور ، فيسهل عليه طلب الحديث منه ، بدل أن يرحل ويكدّ نفسه فى سبيل ذلك ! . ولكن الإمام أحمد رفض القضاء وما يتبعه من دنيا ، ورفض أن يستغلّ وجوده فى اليمن قاضيا ليسمع الحديث ، وأحب أن تكون هجرته لليمن خالصة للحديث لا تشوبها شائبة ، ولا يحف بها مطمع ... المناقب لابن الجوزى !.

٢ ـ لاحظ الإمام أحمد أن مِنَح الخليفة المتوكل قد توالت على أسرته بعد ظهور صدقه ، وعلو منزلته ، فعقد «برلمان» الأسرة المكوّن منه ومن ولديه صالح وعبد الله ، وعمه إسحاق ، وشدّد عليهم فى أن لا يقبلوا هذه العطاءات ، قانعين بما رزقهم الله ! ! وكانت تحصل مشادات ومعارضات وكان يهدد ويتوعّد .

وقد روى أبو نعيم فى حلية الأولياء القصّة التالية وفيها نعرف عُنف الإمام فى معاملته لأسرته .

نادى أحمد ولده صالحا فقال له :

يا صالح ، قلتُ : لبيك !. قال : أحبّ أن تدع هذا الرزق فلا تأخذه ولا تُوكّل فيه أحدا ، فقد علمتُ أنكم إنما تأخذونه بسببى ، فسكتّ ، فقال : مالك ، فقلت : أكره أن أعطيك شيئاً بلسانى وأخالف إلى غيره ، فأكون قد كذَبتك ونافقتك !. وليس فى القوم أكثر عيالا منى ولا

أعذر !. وقد كنت أشكو إليك فتقول : أمرك منعقد بأمرى ! . ولعل الله أن يحلّ عنى هذه العقدة ، ثم قلت له : كنت تدعو الله لى فأرجو أن يكون الله استجاب لك !. قال أوَ لا تفعل ؟ .

قلت : لا ، قال : قم !. فَعَل الله بك وفَعَل ! فأمر بِسَدّ الباب بينى وبينه ، فتلقانى عبد الله ، فسألنى ، فأخبرته فقال : ما أقول أنا ، فقلت : ذاك إليك ، فقال له مثل ما قال لى فقال : لا أفعل ، فكان منه إليه نحو ما كان منه إلىّ ، فلقِينا عمّه ، فقال : لو أردتم أن تقولوا له ... وما علمه إذ أخذتم شيئا ، فدخل عليه فقال : يا أبا عبد الله ، لستُ آخذا شيئا من هذا !. فقال : الحمد لله ؟ . قال : وهجرنا وسدّ الأبواب بيننا وبينه ، وتحامى منزلنا أن يدخل منه إلى منزله شىء ! .

قال أبو الفضل : فلما مضى نحو شهرين كَتب لنا بشىء ، فجىء به إلينا فأول من جاء عمه فأخذ !. فأُخبر ، فجاء إلى الباب الذى كان قد سدّه بينى وبينه وكان فتح الصبيان كُوَّةً ، فقال ادعوا لى صالحا ، فقلت له : هذا الرزق ترتزقه جماعة كثيرة وإنما أنا واحد منهم وليس فيهم أعذر منى ! فلما نادى عمُّه بالأذان خرج ، فلما خرج قيل لى : إنه خرج إلى المسجد ، فجئت حتى صرت فى موضع أسمع فيه كلامه !. فلما فرغ من الصلاة التفت إلى عمه ثم قال له : نافقتَنى وكذبتَنى ، وكان غيرك أعذر منك . زعمتَ أنك لا تأخذ من هذا شيئاً ثم أخذتَه ، وأنت تستغلُّ مائتى درهم ، وعمدت إلى طريق المسلمين تستغله ؛ إنما أَشفق عليك أن تَتَطوّق يوم القيامة سبع أرضين ، أخذتَ هذا الشىء بغير حقّه ! فقال : قد تصدقتُ ! فقال تصدّقتَ بنصف درهم ؟ ثم هجره وترك الصلاة فى المسجد ، وخرج إلى مسجد آخر يصلى فيه .

ولعلنا نلاحظ هنا حرص الإمام أحمد على أن تنهج ذريته منهاجه فى شظف العيش وشدته ، وكان أولاده يتأولون فى مخالفته ، وللحاجة ضغط لا يقاومه إلا الأنبياء والصديقون !

٣ — كتب وزير المتوكل إلى الإمام أحمد :

« إن أمير المؤمنين قد وجّه إليك جائزة ويأمرك بالخروج إليه . فالله الله أن تستعفى أو تردّ المال فيتسع القول لمن يُبغضك ! »

فيأمر الإمام أحمد ولده صالحا أن يوزع المال كله على أبناء المهاجرين والأنصار المقيمين فى بغداد ! لأنه يرى أنهم أشد حاجة .

المناقب لابن الجوزى !

وكل هذا يفيدنا أن الإمام أحمد قد استعصم عن رزق الخلفاء . وصلات الولاة !

ولعل قائلا يقول : فمن أين كان يعيش الإمام أحمد إذا لم تكفه غلته المحدودة ؟

والجواب على ذلك أنه كان لا يستكبر عن أن يكرى نفسه فى حمل متاع بأجرة معلومة ، وقد صنع ذلك فى أسفاره لطلب الحديث كثيراً ، كما كان يخرج من بيته ليلتقط الحبّ المباح من الأرض المزروعة بعد إذن صاحب الأرض !

وكان فى بعض الأحيان ينسخ كتب العلم بأجرة ! كما روى ذلك الحافظ الذهبى .

ولكنه كان يعمل ذلك فى حدود الحاجة فقط ، فإذا قضى حاجته ، أو سد دَينه لا يطلب المزيد !

فالذى قصدناه بالفقر الطبيعى هو ما تركه له أبوه من الغَلّة المحدودة ، والذى قصدناه بالفقر الصناعى هو ما ضربه على نفسه من حصار ،

وما كتبه على بيته من ردّ العطايا ولو قبل ذلك لكان من الأثرياء الذين يشار إليهم بالبنان .

ولو أردنا أن نفلسف ذلك فى كلمة قلنا :

إن الإمام أحمد كان داعية إلى الله على مستوى عال . سواء كانت دعوته إلى الله عن طريق طلبه للحديث أو بثّه له ، أو عن طريق تعليمه العامة وتفقيههم ، أو عن طريق مقاومته لطغيان المعتزلة والسلطان !

وأراد الإمام أحمد أن يفرغ للدعوة ويعطيها حقها ، فلا يشغله شاغل ، ولا يصرفه صارف !

ولقد رأينا من قبل أنه رفض القضاء ، ليكون حرا طليقاً فى الدعوة إلى الله !

فالوظائف أغلال فى أعناق الموظفين ، وقيود لأفكارهم ، ومعوّقات عن الجهر بالرأى !

فهو يريد أن يصدر فتواه - كما يعتقد أنها الحق - لا حسب هوى السلاطين !

وتلك منزلة رفيعة لا يحرص عليها إلا العالمون !

فالعفّة خُلق وسجيّة ! والنزاهة طبع قبل أن يكون حِلية !

« كان أحمد يكرى نفسه مع الحمالين حتى يظن به الذل ، ويترفع عن جوائز الخلفاء حتى يظن به الكبر » .

والحق أن الداعية إلى الله يجب أن يكون قليل الزاد الدنيوى ، خفيف المتاع البراق !

فإن الدنيا إذا أصابت القلب وأدته ، وطمست معالم الحق فى جنباته !

وقد تَتَبَّعْتُ الدعاة الصادقين منذ سيدهم المختار صلى الله عليه وسلم ،

فلم أجد داعية تمكنت الدنيا من قلبه ، ثم ترك أو خلّف أثراً ذا بال .

قد يؤتى الداعيةُ الدنيوى بلاغة قول ، وذكاء عاطفة ، فيؤثر ، ولكنه تأثير وقتى ، وهياج عاطفى !

أما أن يترك دويا ـ كأنما تداوَلَ سمعَ المرء أَنمُله العشرُ ـ كما ترك الإمام أحمد ، فهذا لن يكون !

دوىّ الحق وحده هو الذى يخلد أثره ، ويطول أمده ، ويعرض صيته ، ويحفر فى القلوب ـ كل القلوب ـ مكانة له عميقة . . .

أحمد بن حنبل الرحالة

عرفت أسرة أحمد الرحلة قبل مولده معرفة وثيقة حين هاجرت من العراق إلى البصرة واتخذتها مُقاما .

وعرفتها وهو جنين ، حين رحلت به أمه من (مرو) إلى بغداد !

فكأن الرحلة إذاً كانت فى دمه ، وفى اللبن الذى أُرضعه !

ولكن رحلاتِه لم تكن لرياضة أو نزهة !

إنما كانت رحلاتٍ فى سبيل العلم ، وفى سبيل الحج ، وفى سبيل رضاء الله سبحانه أولا وأَخيراً . .

أَما عن الحج ، فقد روى لنا أنه حج خمس مرات ، ثلاثا على قدميه ، واثنتين راكبا . .

وأَما عن العلم ، فقد طلب علم الحديث فى بغداد من المحدث الكبير : هشيم بن بشير بن حازم الواسطى المتوفى سنة ١٨٣ هـ .

وكانت مدة ملازمته لهشيم هذا كما روى ابنه صالح نحو أَربع سنوات ! وكانت سِنّه عند الملازمة حوالى الست عشرة سنة ! وكتب الإمام أحمد عنه كتاب الحج وبعضاً من التفسير وكتاب القضاء وكتباً صغاراً !

ثم تلق الحديث بعد ذلك حيثما اتفق له التَّلَقّى .

وتعتبر هذه الفترة فترة تضلّع وتمكّن ! وزاده هذا التضلع حبا فى الاستزادة ، ذلك الحب الذى جعله يحاول أن يصبح دون نوم فى كثير من لياليه !!

وقد نقل الخطيب البغدادى أنه رحل إلى البصرة والحجاز واليمن والكوفة .

رحل إلى البصرة خمس مرات رحلات متفرقات ، وكان يطلب الحديث على أكثر من شيخ .

ورحل إلى الكوفة أيضاً فى طلب الحديث .

ورحل إلى صنعاء باليمن ليسمع من عبد الرزاق بن همّام .

وهنا نذكر قصة طريفة رواها لنا ابن كثير عن يحيى بن معين ، فقد حكى أنه كان يطوف هو وأحمد حول الكعبة ، وكان أحمد على موعد أن يذهب إلى صنعاء عقب الحج .

وفى أثناء الطواف لقى ابن معين عبد الرزاق فكلمه عن أحمد ، فقال عبد الرزاق : حياه الله وثبته ، فإنه يبلغنى عنه كل جميل . فقال : نجىء إليك غدا إن شاء الله حتى نسمع ونكتب . فلما انصرف قال أحمد : لِمَ أخذت على الشيخ موعدا ، قال يحيى : لنسمع منه ، وقد أربحك الله مسيرة شهر ، ورجوع شهر والنفقة .

قال أحمد : ما كان الله ليرانى وقد نويت نية أن أفسدها بما تقول . نمضى فنسمع منه ، ثم مضى بعد الحج حتى سمع بصنعاء .

وكانت رحلة شاقة انقطع فيها زاده فأكرى نفسه ، وقد حاول عبد الرزاق أن يعينه بمال فيأبى ويقول : أنا بخير .

وقد سرقت أمتعته مرة ، فلما رجع لم يسأل عن شىء إلا الأوراق التى كتب فيها الحديث . فلما وجدها لم يأس على شىء .

وكان فى نيته أن يرحل إلى ابن جرير ، لولا أن ضيق ذات اليد هو الذى منعه من ذلك ! .

وكانت رحلاته عن طيب خاطر منه ... وما أعظمه حين يقول :

« مع المحبرة إلى المقبرة » .

أحمد بن حنبل العالم الحافظ

كانت كل العوامل التى تحيط بحياة الإمام أحمد تؤهّله لأن يكون أعلم أهل عصره ، وأحفظهم ، وأذكاهم ، وأوعاهم !.

ذلك لأن حبّه للعلم حب فطرى ، تعمق فى وجدانه ، وعاش فى كيانه !.

ولأن أمّه التى كانت تشرف على تربيته توجّهه للعلم ، وتحببه إليه ، وتعينه على طلبه !.

ولأن المعصية كانت لا تعرف طريقها إليه ، ولا يعرف هو طريقا إليها وأكبر شىء يُنسى العلم هو المعصية ، كما قال وكيع للإمام الشافعى .

ولأن صبره فى الرحلات ، وجَلَده فى تحمل المشقات ، أكسب صدره فساحة ، وعقله رحابة ورجاحة ، وقلبه إيمانا ويقينا ! ولأن تواضعه لشيوخه ، وخفض جناحه لأساتذته .. يجعله يصبر على التلقى ويتقنه !. يضاف إلى ذلك :

ذاكرته الواعية ؛ وعقليته اللاقطة ، وذكاؤه اللماح ، وقلبه المشرق الوضاح .

ذلك كله خَلق من أحمد بن حنبل العالم المشار إليه بالبنان ، المقصود بالسؤال ، المعترف له بالحجة .

وقد شهد له كبار معاصريه بذلك .

قال أحمد بن سعيد الرازى :

«ما رأيت أسود الرأس ، أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أَعلم بفقه من أحمد بن حنبل» .

وقال على بن المدينى :

« ليس فينا أحفظ من أبى عبد الله أحمد بن حنبل . أعرف أبا عبد الله منذ خمسين سنة وهو يزداد خيراً » .

وقال القاسم بن سلام :

انتهى العلم إلى أربعة :

(١) أحمد بن حنبل (٢) على بن المدينى (٣) أبى بكر بن شيبة .

(٤) ويحيي بن معين . وأحمد أفقههم !

قال أبو الحسن اللنبانى :

سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول : « كتب أَبى عشرة آلاف ألف حديث . ولم يكتب سواداً فى بياض إلا قد حفظه »

ونقل الشوكانى عن أبى زُرعة قال :

كانت كتب أَحمد بن حنبل إثنى عشر حملا ، وكان يحفظها عن ظهر قلب .

* * *

وتوجّهت هذه الذاكرة الواعية ، والعقلية الحافظة ، إلى العلم فعلمت ، وإلى الحديث فبرّزت ، وإلى الفقه فتفقهت .

وكان تنويع الشيوخ الذين أخذ عنهم الإمام من أسباب كثرة تحصيله ، وعمق معلوماته !

والذى لا شك فيه أنه كان لبعضهم أثر أكثر من البعض الآخر ، ولكن عددهم الذى أربى على المائة كما ذكر ابن الجوزى ، كاف فى حسن التوجيه ، وسداد الرأى !

ومن أبرز الشخصيات التى علّمت الإمام أحمد هشيم بن بشير بن حازم ! وكان لقاؤه بأئمة الفقه كالشافعى ، وأئمة الحديث كعبد الرزاق وهشيم

من أكبر المشجعات على أن يكون مثلهم ، علماً وورعا ، وحفظاً واستنباطا وفهماً . . وقد كان !

ولئن كان من اختصاص المعدة أن تهضم الطعام الجيّد ، فإن ذاكرة الإمام أحمد كانت تهضم كل ما تستقبل من علوم ، مع فارق دقيق هو أن المعدة قد تُتخم إذا فوجئت بأكلة دسمة ، فأما ذاكرته فكانت لا تكِلّ ولا تملّ ولا تحس بإرهاق ، ولا بتخمة !

وكان لا يحفظ فقط ! بل كان يطلب العلم ويحفظه ويدونه . لأن عصره كان عصر تدوين .

وكتابه المسند الذى سنفرد له كلمة موجزة خير دليل على هذه الثروة المدونة ، والحافظة الواعية .

ولم تكن ذاكرة أحمد موجّهة إلى نوع معين من العلوم ، بل ساح الإمام أحمد فى الحديث ، وخاض فى الفقه ، وغاص كما شاء فى السنّة وفتاوى الصحابة وآراء السلف ، ورائده كلمته :

« أنا أطلب العلم إلى القبر » .

* * *

لقد كان الإمام أحمد العالم العامل بعلمه ، والحافظ الغواص وراء لآلئه كان عفّ اللسان ، طاهر السريرة ، يحسن أدب العلم ، ويحرص على إرضاء الله .

أحمد بن حنبل المحدّث

امتلأ الوِطَابُ بالعلم ، وتهيأ الزهر للقُطُوف وآن للثمرة أن تؤتى أُكَلها الطيب ، وحَبٌّ الحصيد .

فقد طاف الإمام طوافه الدانى والقاصى ، ولقّح عقله بعقول الكبار من المحدثين ، وسمع مما يزيد على المائة ، وصبر الصبر الطويل ، على التنقيب والتحصيل ، وهجر الهجران الكُلّى ، كل ما يشغل عند العلم أو يعطّل .

وتلمّس الناس جلوسه للتّحديث ، واستعجلوا إفشاء مكنونه ، ونشر مخزونه .

ولكنه كان يستمهلهم حتى يبلغ أشده ، ويستوى على سوقه .

فكان يرى أنه لا ينبغى أن يجلس للحديث وأئمته أحياء . ورعا منه وأدبا .

وكان يرى أن لا يجلس إلا إذا بلغت سنّه أربعين ، وهو سن النبوة ، وزمن الرشد .

تقديراً للعبء ، واستعدادا « للقول الثقيل »

وكان يرى أن مقام الحديث مقام كبير ، ومنزلة خطيرة .

فيجب أن يعدّ له العُدّة ، ويتخذ له الأُهْبة .

هكذا عرف الإمام الخطوة التى كانت تنتظره ، وعلى هذا الورع والعمق عرفه الناس ، فجوا إليه رجالا وركبانا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

* * *

وحُقّ للناس أن يرحلوا إلى بغداد ليسمعوا منه ويرتووا ، فقد رحل هو من قبل وكتب عن علماء ذلك العصر ، وسمع من إسماعيل بن علية ، وهشيم بن بشير ، وحماد بن خالد الخياط ، ومنصور بن سلمة الخزاعى ، والمظفر ابن مدرك ، وعثمان ابن عمر بن فارس ، وأبى النضر هاشم بن القاسم ، وأبى سعيد مولى بنى هاشم ، ومحمد بن يزيد ، ويزيد بن هارون ، ومحمد بن أبى عدى ، ومحمد بن جعفر غندر ، ويحي بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدى ، وبشر بن المفضل ، ومحمد بن بكر البرسانى ، وأبى داود الطيالسى ، وروح ابن عبادة ، ووكيع بن الجراح ، وأبى معاوية الضرير ، وعبد الله بن نمير ، وأبى أسامة ، وسفيان بن عيينة ، ويحي بن سليم الطائفى ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، وإبراهيم بن سعد الزهرى ، وعبد الرزاق بن همام ، وأبى قرة موسى بن طارق ، والوليد بن مسلم . وأبى مسهر الدمشقى ، وأبى اليمان ، وعلى بن عباس ، وبشر بن شعيب بن أبى حمزة الحمصيين ، وخلق سوى هؤلاء يطول ذكرهم ، ويشق إحصاء أسمائهم[1] .

ثم جلس الإمام أحمد متأهباً ليُدَرّس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس .

بعد أن أجاز هو الجلوس لنفسه .. فقد أجاز له شيوخه قبل سِنّ الأربعين .. بل كانوا يستفتونه فيه ، ويطلبون دقائق العلم منه !

وبلغ عدد الحاضرين حلقات درسه ـ كما حزره ابن الجوزى ـ خمسة آلاف وكان الذى يكتب حوالى الخمسمائة !

ولئن دل هذا على شىء ، فإنما يدل على ثقة الناس فى حديثه ، ومبلغ علمهم فى روايته !

---

(١) تاريخ بغداد

وحُقّ لهم أن يكتبوا . . فقد كانت أحاديث الموضوع تأتيهم مرتبة متكاملة ، فكان يحدثهم أحاديث الحج التى تزيد على الألف ، كما كان يحدثهم فى الأشربة والإيمان والزهد والعبادات والعادات ، حديثاً متصل السند صحيحه ، واضح المعالم !

كان يحدثهم من محصول وصل إليه بعد أن تفصّد جبينه عرقاً ، وتكبد فى سبيله تعباً ومشقة ونفقة .

لا يبغى من وراء ذلك كله جزاءاً ولا شكورا ! !

وكان لا يحدّث إلا إذا حُدث . .

ولا يتحدث إلا ومجلس العلم محفوف بالوقار والهيبة ، فلا مزاح ولو يسيراً ، ولا شطح ولو خفيفاً ، ولا خروج عن موضوع الدرس ولو فى أضيق الحدود . .

لا يطلب ذلك من الناس ، ولا يُلزمهم به إلزاماً . . بل إن سَمْته الوقور ، وطابعه الدينى الهادىء ، وورعه المستفيض ، وخشيته وتواضعه ، يُضفى على ذلك كله وقاراً وإجلالا ، ويفوح شذاً وأريجاً !

واختار لدرسه بعد العصر قبل العتْمة ، فلم تكن الإضاءة بالكهرباء كما هى اليوم !

إنما كانت المصابيح الزيتية البسيطة التى خرجت لنا على ضوئها المحدود أساطين العلم ، وكبار المحدّثين والفقهاء . .

وسبب آخر دعاه إلى اختيار هذا الوقت ، وهو أنه عقب ضجعة الظهيرة ، وآخر النهار . .

فالجسم يكون أنشط ، والبال يكون أهدأ ، والبطن تكون وسطاً بين الخلوّ والامتلاء ..

والعقل أنشط ما يكون فى هذه الأحوال ..

ولم يكن هذا الوقت هو كل الوقت الذى ينشر فيه علمه ، بل كان له درس خاص لإملاء الحديث على أولاده وتلاميذه الأقربين ..

وإذا قصده قاصد أو سأله سائل فى أى وقت من نهار أو ليل يستفسر منه عن حديث ، لا يردّه إلا بحاجته أو بميسور من القول ..

وكان لا يحدّث من محفوظه إلا نادراً ، لا اتهاماً لذاكرته ، فقد طلب من ولده عبد الله أن يخلط الأسناد فيميزها ، أو يقرأ ما يشاء من سند ويقرأ الإمام حديثه ، أو يقرأ الحديث ويقرأ هو السند ..

ولكنه مع ذلك لا يحدّث من محفوظه ، لكى يتلقى الناس الحديث الصحيح كما دونه عن رجاله الثقات ..

ودروس المساجد فى كل زمان يقصدها فى الأعم الأغلب دهماء الناس وقليل من الخاصة ..

فبين المترفين والدين حجب خِفاف أو صِفاق ..

ولذلك فقد كان الإمام أحمد يقبل على فقراء مجلسه إقبالا يجعل المروزى يقول : لم يُر الفقير أعزّ مجلساً منه فى مجلس أحمد ..

وبلغ من ثقة الإمام أحمد فى الحديث أن بعض شيوخه الذين كان يروى عنهم أصبحوا رواة عنه . وتلك منزلة عالية ودرجة رفيعة .

وهؤلاء الشيوخ هم كما ذكرهم الخطيب البغدادى :

« وروى عنه غير واحد من شيوخه الذين سميناهم : محمد بن عبد الله

المنـاوى ، ومحمد بن اسماعيل البخـارى ، ومسلم بن الحجـاج النيسابورى ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم ، وأبو داود السجستانى ، وأبو بكر الأثرم ، وأبو بكر المروزى ، ويعقوب بن شيبة ؛ وأحمد بن خيثمة ، وأبو زرعة الدمشقى ، وابراهيم الحربى ، وموسى بن هارون ، وعبدالله بن محمد البغوى ، وغيرهم » .

* * *

وإذا تكلمنا عن أحمد بن حنبل المحدث فينبغى أن نلمع إلماعة سريعة إلى أحمد بن حنبل المؤلف .

ودفعنا إلى أن نكتب عن مؤلفاته فى قسم الحديث ، أن هـذه المؤلفات التى خلفها لنا تتصل اتصالا مباشراً أو من طريق قريب بالحديث وبصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوان الله عليهم .

ولقد تميز عصر الإمام أحمد بالتدوين والتأليف كما ذكرنا على طريقتهم الخاصة فنهج نهجهم فى التدوين وأخرج لنا كتابه الفخم الضخم « المسند » .

المســـند

قال الإمام الحافظ نور الدين أبو الحسن على بن أبى بكر الهيثمى المتوفى سنة ٨٠٧ﻫ رحمه الله فى كتابه : زوائد المسند (إن مسند أحمد أصح صحيحا من غيره ، لا يوازى مسند أحمد كتاب مسند فى كثرته وحسن سياقاته) .

«وقال الحافظ السيوطى» فى خطبة كتابه الجامع الكبير مالفظه : (وكل ما كان فى مسند أحمد فهو مقبول فإن الضعيف الذى فيه يقرب من الحسن) .

«وقال الحافظ» فى كتابه تعجيل المنفعة (ليس فى المسند حديث لا أصل له إلا ثلاثة أحاديث أو أربعة منها حديث عبد الرحمن بن عوف أنه يدخل الجنة زحفا قال . والاعتذار عنه أنه مما أمر أحمد بالضرب عليه فترك سهوا) نقله الشوكانى فى أول كتابه نيل الأوطار فى ترجمة الإمام أحمد .

وقال الحافظ بن الجزرى فى كتابه « المصعد الأحمد » حدثنى شيخنا الإمام العالم شيخ الفقهاء شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب الشافعى رحمه الله تعالى قال :

سئل الشيخ الإمام الحافظ أبو الحسين على بن الشيخ الإمام الحافظ الفقيه محمد اليونينى رحمهما الله تعالى أنت تحفظ الكتب الستة ؟

فقال : أحفظها ، وما أحفظها .

فقيل له : كيف هذا ؟

فقال : أنا أحفظ مسند أحمد وما يفوت المسند من الكتب الستة

إلا قليل فأنا أحفظها لهذا الوجه أو كما قال رحمه الله تعالى .

« وقال عثمان بن السباك » حدثنا حنبل قال جمعنا أحمد بن حنبل أنا وصالح وعبد الله وقرأ علينا المسند وما سمعه غيرنا وقال لنا : هذا الكتاب جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألفا فما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فارجعوا إليه فإن وجدتموه وإلا فليس بحجة . اه

« وقال الحافظ أبو موسى المدينى » رحمه الله فى كتابه (خصائص المسند) : (هذا الكتاب « يعنى مسند الإمام أحمد » أصل كبير ومرجع وثيق لأصحاب الحديث انتقى من حديث كثير ومسموعات وافرة فجعله إماما ومعتمداً وعند التنازع ملجأ ومستندا . قال ولم يخرج إلا عن من ثبت عنده صدقه وديانته دون من طعن فى أمانته) . وقال أيضاً : ومن الدليل على أن ما أودعه الإمام أحمد رحمه الله مسنده قد احتاط فيه اسنادا ومتنا ولم يورد فيه إلا ما صح عنده على ما أخبرنا أبو على سنة خمس « يعنى وخمسمائة » ، قال حدثنا أبو نعيم حدثنا ابن الحصين قال حدثنا ابن المذهب قال حدثنا القطيعى قال حدثنا عبد الله قال حدثنى أبى قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا شعبة عن أبى التياح قال : سمعت أبا زرعة يحدث عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يهلك أمتى هذا الحى من قريش قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال لو أن الناس اعتزلوهم » .

قال عبد الله قال لى أبى فى مرضه الذى مات فيه اضرب على هذا الحديث فإنه خلاف الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم يعنى قوله

« اسمعوا وأطيعوا » وهذا مع ثقة رجال اسناده حين شذ لفظه عن المشاهير أمر بالضرب عليه وفيه نظائر له ٠ اه

قال الشيخ عبد الرحمن البنا فى كتابه الفتح الربانى معقبا على تلك النقول : هذا مثال لشدة احتياط الإمام أحمد فى المتن « وأما احتياطه فى السند » فقد روى القطيعى قال حدثنا عبد الله « يعنى ابن الإمام أحمد » حدثنى أبى حدثنا على بن ثابت الجزرى عن ناصح أبى عبد الله عن سماك ابن حرب عن جابر بن سمرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لأن يؤدِم الرجل ولده ، أو أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع » .

قال عبد الله : وهذا الحديث لم يخرجه أبى فى مسنده من أجل « ناصح » لأنه ضعيف فى الحديث .

وقال الشوكانى : « وقد حقق الحافظ نفى الوضع عن جميع أحاديثه - أى المسند - وأنه أحسن انتقاءًا وتحريرا من الكتب التى لم يلتزم مصنفوها الصحة فى جميعها ..[1] » .

وكتاب المسند يحتوى على مجموعة كبيرة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جمعها الإمام أحمد ليكون هذا المسند إماما للناس فيما يختلفون فيه من الحديث .

وقد طبعه الحلبى فى ستة مجلدات كبار .

---

(١) هذه النقول - مع تصرف بسيط - من مقدمة كتاب الفتح الربانى للشيخ عبد الرحمن البنا .

ابتدأ الإمام أحمد فى جمعه سنة ثمانين ومائة ، واستمر فى جمعه حتى أواخر حياته تقريبا .

ثم جمع أولاده مع ابن عمه حنبل وقرأه عليهم بقصد الحفظ والتدوين .

وقد وصل إلينا المسند عبارة عن أحاديث متفرقة يرويها صحابى واحد.

فوحدة المسند فى الحديث كانت هى وحدة الراوى . فيقال مثلا مسند أبى هريرة فيجمع تحت هذا المسند ما رواه أبو هريرة من الأحاديث وهكذا .

ويظهر أن ولده عبد الله الذى تولى إخراج المسند إلى الناس هو الذى انتهج هذه الطريقة ثم زاد على ما جمعه أبوه أحاديث تشبه الأحاديث المروية بقصد زيادة المنفعة وإيراد أكبر مجموعة فى الباب .

وقد شقت هذه الطريقة على كثير من المحدثين لأنها لا توصل إلى الغرض المطلوب إلا بعد جهد كبير . فالباحث عن حديث فى الفقه مثلا إذا أراد أن يصل إليه عن طريق مسند الإمام أحمد لابد أن يبحث عن راوى الحديث أولا ثم يقرأ الأحاديث التى رواها هذا الصحابى حتى يصل إلى غرضه وهذا من غير شك أمر صعب .

قال الذهبى فى هذا الصدد ، ولو أنه حرر ترتيب المسند وقربه وهذبه لأتى بأسنى المقاصد فلعل الله تبارك وتعالى أن يُقيِّض من يخدمه ويُبوّبه ويتكلم على رجاله ويُرتب هيئته ووضعه فإنه محتو على أكثر الحديث النبوى وقل أن يثبت حديث إلا وهو فيه» .

وقد استجاب الله دعاء الحافظ فقيض للمسند عالما فاضلا هو المرحوم الشيخ عبد الرحمن البنا فرتبه ترتيبا حسنا وبوبه تبويبا جميلا

حسب الموضوعات لا حسب الراوى ولقد وافته منيته بعد أن أخرج واحداً وعشرين جزءا ونصفا من الكتاب فسار على الدرب والمنهاج عالم فاضل أيضا هو الأستاذ محمد عبد الوهاب بحيرى فأكمل الجزء الثانى والعشرين وحدثنى أنه بقى من الكتاب ما يقرب من جزءين آخرين .

كما أخرج كتاب المسند إخراجا آخر العالم المحقق الشيخ أحمد محمد شاكر فجزاهم الله خير الجزاء وقد بيَّن الإمام أحمد لابنه عبد الله طريقته فى جمع أحاديث مسنده فقال :

« قصدت فى المسند الحديث المشهور وتركت الناس تحت ستر الله تعالى ولو أردت أن أقصد ما صح عندى ، لم أرد من هذا المسند إلا الشىء بعد الشىء ولكنك يابنى تعرف طريقتى فى الحديث ، لست أخالف ماضعف إذا لم يكن فى الباب ما يدفعه » .

وقد اختلف العلماء بعد ذلك فى أحاديث المسند ، هل فيه ضعيف أم لا ، بل تطور الاختلاف : هل فيه موضوع أم لا .

ولقد سلم ابن تيمية بأن فى المسند ضعيفاً ، ولكنه لم يسلم بالوضع ، وقال : إن الوضع ليس من حديث أحمد ، بل هو من زيادة القطيعى الراوى عن عبد الله .

وذهب العراقى إلى غير ذلك ، والعِلْيَة من العلماء متفقون على أن فيه الضعيف لا الموضوع . والفرق بين الضعيف والموضوع أن الموضوع يقوم الدليل على الكذب فيه ، أما الضعيف فهو خبر لم تتوارد فيه شروط الرواية الصحيحة .

ولعل ما تقدم هو السبب فى أن مسند الإمام أحمد لم يرتفع إلى درجة الكتب الصحاح الستّ !

ولكنه مع ذلك يعتبر عنوانا على المجهود الضخم الذى بذله الإمام أحمد .

وقد روى فيه الإمام أحمد لأكثر من سبعمائة صحابى ، وانتقاه وانتخله من سبعمائة ألف ، أو سبعمائة ألف وخمسين ألفاً كما تقدم .

ويشتمل المسند على ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا من الأحاديث ! كما ذكر ابن النديم فى الفهرست !

لم يجتمع للإمام أحمد نسخة متكاملة فى حياته يرجع إليها من شاء . أو ينظر إليها نظرة كلية كما أشرنا .

ومع أن الإمام أحمد قرأ مسنده من أوراقه المتفرقة على ولديه صالح وعبد الله وابن عمه إلا أن عبد الله كان أكثر الثلاثة حديثا ، حتى إنه عُدّ أروى أهل الدنيا عامة فيما روى الأبناء عن الآباء .

وقد أسهبنا الكلام على المسند ، لأننا نعتبره الموسوعة العلمية الفريدة التى تعبر عما تكلفه الإمام من جهد ، وبذله من مشقة .

وللإمام أحمد كتب أخرى ذكرها ابن النديم فى الفهرست هى :

كتاب العلم ، كتاب الفرائض . كتاب التفسير ، الناسخ والمنسوخ ، الزهد ، الإيمان ، الأشربة ، المسائل ، الفضائل ، طاعة الرسول ، الرد على الجهمية ، المناسك .

وقد وصلنا من هذه الكتب :

كتاب المسند الذى تكلمنا عنه .

كتاب الرد على الجهمية وقد أثبتناه فى صدر البحث .

كتاب الزهد ، وسنتكلم عنه كلمة عابرة .

وهناك كتب لم يذكرها ابن النديم مثل :

كتاب الصلاة . وسننشره آخر البحث إن شاء الله .

وكتاب السنة وهو رسالة قصيرة :

ومسائل الإمام أحمد ، ولعله كتاب المسائل ، وقد جمعه أبو داود السجستانى صاحب السنن ، ونشره رشيد رضا بمطبعة المنار بالقاهرة فى ٣٢٨ صفحة من القطع المتوسط .

وكم كنا نحب أن تصل إلينا بقية هذه الثروة الضخمة ، لولا أن المكتبة الإسلامية تعرضت لهزات عنيفة فى الأعصار الخالية ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

لقد كان عصر الإمام أحمد عصر حركة فى التدوين لا تهدأ ، ونشاط فى التأليف لا يملّ .

ولا زلنا نحن نقتبس من أضواء هذا القرن والذى بعده إلى يومنا هذا .

كتاب الزهد

إذا أردنا أن نصف هذا الكتاب فى كلمة موجزة ، قلنا : إنه صورة صادقة لحياة الإمام أحمد منذ مفتتح حياته إلى أن لقى ربه

فهو كتاب بثّ فيه مشاعره ، وبسط فيه نفسه ، وسطر فيه مكنون فؤاده . وهو كتاب طبع حديثا سنة ١٣٥٧ ﻫ

وقد تكلم الإمام أحمد رضى الله عنه فى هذا الكتاب عن زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاثين صفحة ، ثم أتبع ذلك بكلام لطيف وأخبار صحاح عن زهد أنبياء الله ورسله :

يونس وسليمان وأيوب وآدم ونوح وعيسى وموسى وداود وإبراهيم ويوسف ؛ ثم أتبع ذلك بسرد جميل لزهد الخلفاء الأربعة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ولزهد كبار الصحابة الأجلاء كأبى الدرداء وطلحة بن عبيد الله وأبى ذر وسلمان الفارسى وأبى هريرة والسيدة عائشة وحذيفة بن اليمان ومعاذ بن جبل وأبى عبيدة بن الجراح وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر ، وغيرهم . ثم أتبع ذلك بأخبار زهد كبار التابعين ومن تبعهم بإحسان كالأحنف بن قيس وأويس القرنى ومالك بن أنس وسعيد بن جبير وغيرهم ممن تسعد النفوس بذكره ، وترقى الأرواح بسيرته .

والكتاب يقع فى أربعمائة صفحة من الحجم المتوسط .

وفيه طرائف من الحكم وفرائد من المواعظ ورقائق من الشعر وزاد يفيد كل مسلم يحب أن يعيش مع سلفه الصالح فى حقائق الحياة لا فى زيفها ، وفى جدها لا فى لهوها .

والكلام عن حديث الإمام أحمد وتآليفه ينقلنا إلى سماء فقهه وعرش علمه وحديقة فتاواه .

أحمد بن حنبل الفقيه

بعد أن انتهينا من الكتابة عن أحمد بن حنبل العالم الحافظ وأحمد بن حنبل المحدث نتكلم عن أحمد بن حنبل الفقيه .

وكما قلنا سوف لا نتوسع كثيراً فى تفريعات هذا الفصل وحواشيه، ولكننا مع ذلك سوف نسير سيرا بطيئا حين يقتضى المقام ذلك لأنا نرى أن تكون الإلماعة محيطة ببعض الإحاطة بأحمد بن حنبل الفقيه وتلاميذ الإمام أحمد .

والسؤال الذى يواجهنا الآن :

هل أحمد بن حنبل محدث أو فقيه ؟

ولقد تكلم الشيخ أبو زهرة فى الإجابة على هذا السؤال كلاما طيبا ومطولا نقتطف منه ما يلى :

« طغت على فقهه نزعته إلى التحديث ووقوفه عند الأثر ، حتى لقد حسبه بعض العلماء السابقين محدثا ، وليس فقيها فنرى ابن جرير الطبرى لم يذكر مذهبه فى كتابه اختلاف الفقهاء ، وكان يقول عنه إنه رجل حديث لا رجل فقه وامتحن لذلك ولم يذكره بعض الفقهاء الذين كانوا يدرسون الخلافيات كالطحاوى ، والدبوسى ، والنسفى والأصيل المالكى والغزالى ، فى الفقهاء الذين يعتد بخلافهم ولم يذكره ابن قتيبة فى كتاب المعارف فى ضمن الفقهاء وذكره المقدسى فى أحسن التقاسيم فى أصحاب الحديث .

وقال القاضى عياض فى المدرك : «إنه دون الإمامة فى الفقه، وجودة النظر فى مأخذه».

ولقد زكى نظر هؤلاء المنكرين على أحمد أن يكون فقيهاً أنه لم يؤثر عنه كتاب فى الفقه وأثر عنه المسند وذلك فى عصر قد سار فيه التدوين فى الفقه شوطاً بعيداً ، فمحمد بن الحسن قد جمع فقه العراق ، وأبو يوسف كتب كتباً فى الفقه ، والشافعى أملى مذهبه أو كتبه ، وأحمد لم يكن له شىء من ذلك بإجماع المؤرخين ، فكان ذلك دليلا على أنه محدث وليس بفقيه أو على الأقل غلبه حديثه على فقهه . ولا شك أن من المحدثين من له رأى فى مسائل الفقه ، فالبخارى له فقه ، ومسلم كذلك ، وليس ذلك بمخرجهم من جماعة المحدثين إلى جماعة الفقهاء ، إذ العبرة بغلبة المنهاج ، فمن غلب عليه التحديث تخصص فيه وكان محدثا ، ومن كثر إفتاؤه وغلبت عليه الفتيا كان فقيها . ولم نجد من التقى فيه الأمران بوجه متقارب كما وجدنا ذلك فى الإمام مالك فهو فى ذلك نسيج وحده .

ونحن مع هذا الاعتبار نرى أن أحمد بن حنبل فقيه مع كونه محدثا ، وإن كنا نقر بأن نزعة المحدث فيه أوضح ، ونقر بأنه لم يترك أثراً مدونا له فى الفقه ، وترك ذلك المسند العظيم فى الحديث ، والذى يعده إماما كما توقع هو له ، ذلك أن الإمام أحمد قد عنى تلاميذه بجمع أقواله ، وفتاواه وآرائه ، وتكونت بذلك مجموعة فقهية منسوبة إليه تخالفت فيها الرواية عنه أحيانا ، واتفقت فى كثير من الأحيان ، وما كان لنا أن نترك تلك المجموعة التى تلقاها العلماء بالقبول لمجرد أنه اشتهر بالحديث وأنه لم يدون كتابا فى الفقه مع غلبة التدوين فى عصره وله فيمن دونه أسوة حسنة .

ولقد نظر ذلك النظر ابن القيم فى اعلام الموقعين ، وعلل ترك الإمام أحمد تدوين كتاب فى الفقه بأنه كان شديد الكراهة لتصنيف الكتب فى غير الحديث ، ولكن الله علم حسن نيته ، فجعل تلاميذه يعنون

بتدوين كلامه وفتاواه ، وقال ابن القيم فى ذلك : « جمع الخلال نصوصه فى الجامع الكبير فبلغ نحو عشرين سفرا أو أكثر ، ورويت فتاواه ومسائله وحدث الناس بها قرنا بعد قرن فصارت إماما وقدوة لأهل السنة ، على اختلاف طبقاتهم ، حتى إن المخالفين لمذهبه بالاجتهاد والمقلدين لغيره ليعظمون نصوصه وفتاواه ، ويعرفون حقها وقربها من النصوص وفتاوى الصحابة . ومن تأمل فتاواه وفتاوى الصحابة رأى مطابقة كل منهما على الأخرى ، ورأى الجميع كأنها تخرج من مشكاة واحدة »(١) .

ونحن نوافق على ما تقدم من أن وصف الإمام أحمد بالمحدث وشهرته فيه لا يمنع أبداً من أن يوصف بالفقيه وأن يبرّز فى الفقه .

إن منزلة الإمام أحمد فى الفقه والفتوى قد عمت الآفاق حتى كان الناس يقصدونه ويحجون إليه من أقصى العراق والشام وخراسان وحتى قالوا إن أحمد بن حنبل أفقه من على المدينى وحتى شهد له الإمام الشافعى بذلك كما تقدم .

ولقد كان يجلس الإمام أحمد لدرس الفقه وإصدار الفتوى الجلسة الطويلة التى تمتد ساعات وساعات فيمطره الناس بالأسئلة ويمطرهم هو بصيِّبه الذى لا ينقطع ووابله الذى لا يجف فيقومون من عنده فقهاء وقد بلغوا ما يريدون .

ولقد كان يتقيد فى فقهه وفتاواه بما ورد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعتبر فى ذلك الحجة الثبت الذى لا يجارى ولا يبارى فإن لم يجد فى الحديث طلبته فتّش عنها فى فتاوى الصحابة

---

(١) من كتاب أحمد بن حنبل للشيخ أبى زهرة .

ويبحث أولا عن الفتوى التى لم يكن فيها خلاف ، فإذا كان فيها خلاف رجح واختار ثم يقول فإن لم يجد سببا للترجيح ترك المسألة ذات رأيين .

فإن لم يجد مبتغاه فى فتوى الصحابة بحث فيما قاله التابعون أو فيما اشتهر من أقوال الأثريين السلفيين .

وهو مع ذلك كله يبيح لنفسه أن يجتهد وأن يستنبط خصوصا بعد أن قابل الإمام الشافعى فى مكة وأعجب بعلمه وتعلم منه كثيرا من الأحكام والمسائل والاستنباط .

كل الذى كان يبغيه أن يفقه الناس علم السلف ويتعمقوا فيه ويتضلعوا منه فإذا لم يوجد فى علم السلف الجواب عن الأقضية الجديدة وأصبحت الضرورة قائمة صدرت الفتوى بالرأى فى حدود هذه الضرورة . ولا ينبغى أن يتوسع فيها بحال .

وبهذا المسلك اختلف فقه الإمام أحمد عن فقه أخويه وزميليه أبى حنيفة والشافعى فقد كان فقههما محشوا بالفروض الكثيرة والتفريعات الواسعة ولسنا هنا فى مقام الموازنة والمقارنة بين الفقهين أو المنهجين . وإن كنا نقر أن المسلم فى حاجة إلى هذا وذاك ، فى حاجة إلى نص يرشده ويهديه وفى حاجة إلى عقل يبصره ويأخذ بيده إلى سواء السبيل .

والمنهج الأكمل فى نظرنا هو الذى يجمع بين الخيرين ويصل بين السبيلين .

لقد كان الإمام أحمد سلفيا فى فقهه وفى فتاواه بمعنى أنه إذا سئل عن مسألة فإنه يسأل سائله أولا : هل وقعت المسألة ؟ فإذا قال له نعم أجاب . وإذا قال له : لا . توقف .

قال ابن القيم :

« إذا سأل المستفتى عن مسألة لم تقع ، فهل تستحب إجابته أو تكره أو يخير ؟

فيه ثلاثة أقوال . وقد حكى عن كثير من السلف أنه كان لا يتكلم فيما لا يقع ، وكان بعض السلف إذا سأله الرجل عن مسألة ، قال : هل كان ذلك فإن قال نعم ، تكلف له الجواب وإلا قال : دعنا فى عافية ، وقال الإمام أحمد لبعض أصحابه : إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها إمام » .

ويظهر هنا بوضوح قيمة المنهاج الآخر الذى يتوسع فى الرجوع إلى العقل فى حالة مالو سأل سائل عن مسألة جائزة الوقوع بقصد التفقه ومعرفة موقف الإسلام منها فيما لو وقعت فهل نقول له حين ذلك دعنا فى عافية أم نتعمق أو نصل إلى ما يريد ؟ .

وإذا كان أحمد لم يفرض فروضا فى الفقه كما كان يفعل شيخ الفقهاء أبو حنيفة ، فإن هناك ما كان يغنيه عن الفرض والتقدير ، فقد كانت المسائل الواقعة يسأل عنها من أقصى البلاد الإسلامية وأدناها ، فمن خراسان وفارس والعراق والشام والحرمين الشريفين كان يستفتى لأنه قد ابتلاه الله تعالى بالشهرة فأحسن البلاء ، وكان يجيب بما علم من آثار ويلتجئ إلى الرأى والقياس ولكن قياسه كان شبيها بالأثر ، لأنه كان من مشكاته ومن ضوئه .

« وإذا كان الإفتاء فى الأمور المتوقعة يكسب الفقه ضبطا ، وإحكاما فى الصياغة ، فإن الإفتاء فى الأمور الواقعة يكسبه حياة وقوة ولذلك كان الفقه الحنبلى المأثور حيا نضرا ، ريان المحيا ، فيه جلال السلف ؛ وهو أثر أو من ينبوع الأثر ، ولقد كان أحمد لتمرسه بالآثار قوى الإدراك لما يشبهها فينطق به ، لأن فكره تكون منه وأشرب به ، ومازج

عقله وأطواء نفسه »[1]

وكان الإمام أحمد يُفتى عن الكتاب ، ثم عن السنّة ، ولا مانع أن يأخذ فى ذلك بالأحاديث المرسلة والأحاديث الضعيفة ـ وقد فرقنا فيما سبق بين الضعيف والموضوع ـ ثم عن الصحابة ، ثم عن التابعين ، ثم القياس ! ولا يلجأ للقياس إلا عند الضرورة !

ولولا خوف الإطالة لضربنا أمثلة كثيرة لانتفاع الفقه الحنبلى بالقياس الفقهى !

ولقد توسّع الحنابلة أكثر من غيرهم فى الأخذ بالاستصحاب !

وأصل الاستصحاب هو ـ كما بينه الشوكانى ـ فى «إرشاد الفحول» : «أن ما ثبت فى الزمن الماضى فالأصل بقاؤه فى الزمن الحاضر والمستقبل ، مصاحبةً ، وهو بقاء ذلك الأمر ما لم يوجد ما يغيره » !

كما أخذ فقهاء الحنابلة بالمصالح المرسلة ، وإن كان ابن القيم لم يعد ذلك فى أصول الاستنباط فى كتابه «أعلام الموقعين» فقد أقرّ فيما بعدُ أنه ما من أمر شرعه الشارع إلا وهو متفق مع مصالح العباد .

وفقهاء الحنابلة ينسبون أخذهم بالمصالح إلى الإمام أحمد نفسه ! كما توسعوا فى الذرائع وغير ذلك .

كل ذلك جعل فقه الحنابلة فقها خصبا قويا ، فهو يقرر أن الأصل فى الأشياء الإباحة ؛ وذلك مبدأ جميل جعل الفقه يمتد ويؤتى ثماره ، وينبت من كل زوج بهيج !

ولا يصح أن نعتبر عدم انتشار المذهب الحنبلى دليلا على جمود المذهب ، وضيق أفقه !

---

(١) المصدر السابق .

فإن لقلة المعتنقين له أسبابا كثيرة !

وقبل أن نتكلم فى هذا نذكر أبياتا من الشعر جاءت دفاعا عن هذه القلة :

يقولون لى قد قَلَّ مذهب أَحمدٍ ... وكل قليل فى الأنام ضئيل
فقلت لهم مهلا غلطتم بزعمكم ... ألم تعلموا أن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

وقد حصر ابن خلدون أسباب قلة المعتنقين للمذهب الحنبلى بالبعد عن الاجتهاد وتقيده بالرواية .

ولكنا لا نوافق ابن خلدون على السبب الأول فإن المذهب الحنبلى قد توسع فى الاجتهاد ونوافق الشيخ أبا زهرة على أكثر الأسباب التى ذكرها فقال : والواقع أن جملة أمور تضافرت فمنعت ذلك المذهب الخصب من الذيوع والانتشار بين العامة ، ومن هذه الأسباب :

أنه جاء آخر المذاهب الأربعة وجودا ، وكان أحمد وأتباعه من بعده لا يقربون السلطان ، ولا يحبون الولاية ، ولا يسعون إليها ، ولا يريدونها تقليدا لإمامهم ، واتباعا لمسلكه ، وإذا كان سلطان القضاء قد كان له أثره فى نشر المذهب الحنفى بين أهل العراق ، ومذهب مالك بالأندلس والمغرب ، فإن عدم تولى الحنابلة القضاء قد كان سببا فى قلة ذيوع المذهب الحنبلى بين العامة وإن كان له علماء اجتهدوا فيه وأخلصوا النية فى اجتهاده .

وإذا كان أبو حنيفة قد جافى السلطان ، ولم يتول له ولاية ، فإن تلاميذه فى حياته ومن بعده تولوا القضاء ، فزُفَر تولى فى حياته قضاء البصرة

وأبو يوسف ومحمد توليا القضاء للرشيد ، وكان أبو يوسف القاضى الأول للدولة لا منافس له ، أما الإمام أحمد فلم يتول ولاية ، وكذلك تلاميذه من بعده[1] .

وقد لاحظ هذا المعنى ابن عقيل الحنبلى فقال :

هذا المذهب إنما ظلمه أصحابه ، لأن أصحاب أبى حنيفة والشافعى ، إذا برع أحد منهم فى العلم تولى القضاء وغيره من الولايات ، فكانت الولاية سببا لتدريسه واشتغاله بالعلم .

فأما أصحاب أحمد فإنه قلّ منهم من تعلق بطرف من العلم إلا يخرجه ذلك إلى التعبّد والزهد ، فينقطعون عن التشاغل بالعلم .

ومن الأسباب ما أعقب محنة خلق القرآن من اشتغال أتباع الإمام بمناوأة مذهب المعتزلة . فذلك ولا شك عندى كان مما صرفهم عن تدوين الفقه الحنبلى ونشره بين الناس ؛ ويضاف إلى ذلك كله أن الإمام أحمد كان يكره تدوين فتاواه فى كتاب .

وهكذا جرّنا الحديث عن الإمام أحمد الفقيه إلى فقه الإمام أحمد وإلى خواصه وإلى زواياه المنفرجة لا الْحَادّة كما يظن كثير من الناس وإلى تحليل مفصل لعدم انتشار المذهب الحنبلى مع سماحته وجودته وخصوبته

ومع ذلك فقد كانت هناك نواح كثيرة فى فقه الإمام أحمد تحتاج إلى بيان وتفصيل وعذرنا فى عدم الكتابة عنها ضيق المجال ومخافة التطويل .

والآن نقدم لك تلاميذ الإمام أحمد :

---

(١) وإن كان صالح بن الإمام أحمد تولى قضاء أصفهان إلا أن ذلك لم يكن له أثر فى شيوع المذهب .

تلاميذ الإمام أحمد

قال الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف الفيروزبادى المعروف بالشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ فى كتابه « طبقات الفقهاء » :

« نقل الفقه عن الإمام أحمد جماعة منهم :

ابنه صالح ، وكنى « أبا الفضل » ومات بأصفهان سنة ٢٦٥ هـ وله ثلاث وستون سنة .

وابنه الآخر : عبد الله ، وكنيته « أبو عبد الرحمن » وكان عالما بعلل الحديث وأسماء الرجال ، مات ببغداد سنة ٢٩٠ هـ .

وأبو على حنبل بن إسحاق ، مات سنة ٢٩٣ هـ .

وأبو بكر المروزى . خرج إلى الغزو فشيعه الناس ، فحزروا « بسُرّ من رأى » سوى من رجع نحواً من خمسين ألفا ، فقيل يا أبا بكر ، هذا علم قد نشر لك ! فبكى ثم قال : ليس هذا العلم لى ، إنما هو علم أحمد بن حنبل . وكان يقول : قليل التقوى يهزم كثير الجيش مات سنة ٢٧٥ هـ ودفن قريبا من أحمد .

وأبو بكر أحمد بن هانئ الكلبي الأثرم ، وكان حافظا للحديث .

وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى ، وهو إمام فى الحديث مات سنة ٢٧٥ هـ ، وله ثلاث وتسعون سنة .

وأبو إسحاق إبراهيم الحربى ، إمام فى الحديث ، وله مصنفات كثيرة ، مات سنة ٢٨٥ هـ .

ثم حصلت الرواية عن أحمد فى طبقة أخرى :

فنهم أبو بكر أحمد بن هارون الخلال ، له مصنفات كثيرة فى الفقه ، وله كتاب الجامع فى المذهب . وأخذ العلم عن المروزى وصالح وعبد الله ابنى أحمد ومات سنة ٣١١ ه .

ومنهم أبو على الحسين بن عبد الله الخرقى ، مات سنة ٢٩٩ ه

ومنهم أبو الحسن على بن محمد بن بشار الزاهد، وكان يروى مسائل صالح توفى سنة ٣١٣ ه .

ومنهم أبو محمد البهربهارى .

ثم انتقل إلى طبقة أخرى :

منهم أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقى ، صاحب المختصر . وخرج من بغداد ، لما ظهر سَبّ السلف ، ومات بدمشق سنة ٣٣٤ ه .

ومنهم أبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن يزداد بن معروف ، صاحب أبى بكر الخلال ، وله كتب فى الفقه ، توفى سنة ٣٦٣ ه . وله ثمان وسبعون سنة .

ومنهم أحمد بن سليمان النجار الفقيه . وله كتاب « الخلاف » .

ومنهم أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادى . مات سنة ٣٣٦ ه .

ومنهم أبو على النجاد .

وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد مات سنة ٣٦٩ ه .

وأبو الحسين بن عبد العزيز بن الحارث التميمى . مات سنة ٣٩١ ه

وأبو حفص عمر بن أحمد البرمكى .

وأبو الحسن الخيرزى .

وأبو عبد الله بن بطة العكبرى .

وأبو حفص عمر بن مسلم العكبرى ، صاحب ابن بطة .

ثم أبو عبد الله الحسن بن على بن مروان بن حامد مات سنة ٤٠٣ ﻫ فى طريق مكة .

ومنهم القاضى أبو على محمد بن أَحمد بن أبى موسى الهاشمى . وكان حسن الفتيا ، معظما لأهل العلم . مات سنة ٤٢٨ ﻫ . وله مصنفات حسنة .

ومنهم أبو على شهاب العكْبرى مات سنة ٤٢٨ ﻫ وكان فقيها شاعراً ومنهم أبو طاهر بن المغيار مات سنة ٣٣٢ ﻫ . ومنهم أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التميمى وأخوه أبو الفرج عبد الوهاب بن عبد العزيز ، ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن عمر البرمكى مات سنة ٤٤٠ ﻫ .

ثم بعد ذلك ابن تيمية وابن قيم الجوزية[1] .

---

(١) كتاب (جلاء العينين) لابن الألوس البغدادى .

الإمام أحمد والصوفية

ذكرنا فى صدر هـذا البحث أن أصول الصوفية الصحيحة المتفرقة فى ثنايا الـكتب ، اجتمعت فى شخصية الإمام أحمد .

فقد كان زاهدا بطبعه ، قليل الـكلام إلا فيما ينفع ، فاطما لنفسه ، كابتا لغرائزه ، كثير العبادة والتهجد ، ينشر بساطه الأحمدى ليجلس عليه جميع الفقراء على اختلاف مشاربهم وألوانهم وهو القائل كما رواه عنه أبو بـكر المروزى : «أنا لا أعدل بالفقر شيئا[1]» .

ولـكن الإمام أحمد كان مع ذلك كله لا يعجبه من الصوفى أن يتـكلم فى علم الـكلام ، أو أن يكثر من الشطحات الصوفية .

لقد كان بينه وبين الحارث المحاسبى صحبة ، فلما سمعه تـكلم فى خلق القرآن نَصح بالبعد عنه .

والحارث بن أسد المحاسبى شخصية صوفية اجتمع حولها تلاميذ كثيرون وأوتيت قوة فى التعبير وفى التأثير ؛ حتى إن الإمام أحمد سمعه ليلة من الليالى ، فـكان من الباكين ، وكاد يغير رأيه فيه .

ولم يسع أبا القاسم النصراباذى : حين تـكلم عن هذه الخصومة إلا أن قال : يرحمهما الله تعالى .

وهذا يدل على أن الحارث المحاسبىّ لم يشتطّ فى خصومته مع الإمام أحمد ، أو لم يكن مغرضا فى هذه الخصومة ، ولـكل وجهة هو موليها .

ولـكن لفت نظرنا أن المشيعين لجنازة الحارث لم يتجاوزوا أربعة

---

(١) كتاب المقفى للمقريزى .

أشخاص كما جاء فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى .

ولا ندرى : هل كان هذا تنفيذاً لوصيته بقلة المشيعين ، أم إن الرأى العام تأثر بخصومة الإمام أحمد له .

وقلة المشيعين هنا لفتت نظرنا ، لأن هذا العصر اتّسم بتقدير العلماء فى حياتهم وبعد مماتهم بدليل أن المشيعين للإمام أحمد بلغوا ثمانمائة ألف أو ألف ألف كما سنذكر ذلك وتوفى الحارث المحاسبى سنة ٢٤٣ هـ أى بعد وفاة الإمام أحمد بسنتين تقريبا .

ودليلنا على أن الإمام أحمد كان يميل إلى الصالحين ، ويهش للفقراء منهم خاصة ماذكره عن نفسه فقال كما جاء فى المقريزى :

«رأيت قوما صالحين . لقد رأيت عبد الله بن إدريس ، وعليه جبة لَبود ، وقد أتى عليه السنون والدهور ، ورأيت أبا داود الحَفَرى ، وعليه جبة مخرقة ، قد خرج القطن منها ، يصلى بين المغرب والعشاء ، وهو يرجح من الجوع ، ورأيت أيوب بن النجار بمكة قد خرج مما كان فيه ، ومعه رشاء يستقى بها بمكة ، وقد خرج من كل ما كان يملكه ، وكان من العابدين ، وكان فى دنيا فتركها فى يَدَىْ يحي القطّان» .

لذلك فنحن لا نعتبر خصومة الإمام أحمد للحارث المحاسبى خصومة مع الصوفية ، وإنما هى خصومة أملاها كلام الحارث المحاسبى فى علم الكلام .

أحمد بن حنبل الإمام

انعقدت الإمامة للإمام أحمد فى الفقه والورع والسنّة وللعاملين بها دون أن يطلبها أو يسعى إليها !

ولقد هيأته لهذا المقام المحمود ، خصائصه الذاتية ، وما انطوت عليه نفسه من صبر وجلد ؛ وعفة ونزاهة ، وسماحة صدر ، ورجاحة عقل ، ثم موقفه من طغاة الرأى ، وسلاطين الحكم ، وولاة الدولة حين امتحنوه وسجنوه وضربوه ، وحين أقبلوا عليه وآزروه ونصروه ! ذلك الموقف العجيب الغريب الذى لم يشاهده العامة ، ولم يألفه الخاصة ، حوّل إليه القلوب ، وعقد له اللواء ، لواء البيعة الجماعية ، والحب الشعبى ، النابع من أعمق الأعماق ؛ بدون مؤثر ولا هوى ! ومن غير ضغط ولا إكراه !

وتلك هى الدرجة الرفيعة التى يحرص عليها ، ويمتدح بها ، ويؤرّخ لها !

أما تلك الجموع التى تحتشد رَغَبا أو رَهَبا ؛ فذلك لواء غير معقود ، ومقام غير محمود ! !

كم كان الخلفاء يحبون أن يصلوا إلى شىء من هذه المنزلة الربانية التى وصل إليها الإمام أحمد !

ومع هـذه المنزلة الرفيعة ، والإمامة المعقودة ، فقد ظَلّ الإمام على حاله الأولى من التواضع والخشونة ، لم يتغير من طبعه شىء ، ولم يجدّ فى خلقه شىء ، كما يحدث فى نفوس الناس إذا علت مناصبهم ، واشتدت سواعدهم !

قال الأستاذ البهى الخولى[1] :

« رحم الله الإمام أحمد ، كان إماما فى كل مكرمة . .

(١) فى رسالة عن الإمام أحمد .

لقد نشأ فى خفايا نفسه عينان لا كالعيون ؛ تبصران له فى عالم المعانى من الحقائق والقيم ، فكان يمسى ويصبح ، ويغدو ويروح ومعالم هذا الأفق الخفىّ ساطعة فى نفسه ، شاخصة لوجدانه ؛ فهى بالنسبة له أمر واقع ، وشىء حاضر قائم ، لا سبيل إلى تجاهله ، أو الانصراف عن خطورة شأنه .

إن الدنيا المقبلة عليه بجاهها ومالها وكل زينتها ، لا يراها هو كما يراها سائر الناس !

إن حلاوتها فى القلب هى سُمّه الزعاف القاتل ، وإن ريحها اللينة المقبلة بالنعيم فى رأى الناس ، إن هى إلا الإعصار المحرق ، الذى يأتى على ما أنشأ الإيمان من رياض النفوس . ذلك هو وجدان أحمد ، وتلك هى حقيقته التى كان يعيش فيها بين الناس ، يرى مالا يرون ، ويدرك مالا يدركون » . .

ذريتـــه

أن الإمام أحمد لم تلهه رحلاته العلمية ، ولا أعباؤه المحنية ، ولا صلاته بالدعوة إلى الله ، وعكوفه على الحديث والفقه ؛ لم يكن ذلك كله شاغلا له عن أن يجيب نداء الفطرة فيه ، وأن ينجب للأمة ذرية تتلألأ نجومها ، وتسطع شمسها فى سماء العلم والحديث :

فقد أخرج لنا المقريزى فى كتابه المقفى أن :

(١) أكبر أولاده واسمه صالح ، وكنيته أبو الفضل ، ولد سنة ثلاث ومائتين ، وروى عن أبيه وروى عنه ابنه زهير والبغوى ومحمد بن مخلد ، وولى قضاء أصبهان ، وهو من زوجته العبّاسة بنت الفضل ، وتوفى سنة خمس وستين ومائتين .

(٢) ثم أنجب عبد الله ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، سمع من أبيه وأكثر عنه ، ومن عبد الأعلى بن حماد ، ويحي بن معين ، ومعن أبى بكر ابن أبى شيبة ، وخلق كثير . وشهد له الذهبى بأنه كان إماما فى الحديث ، وخبيرا به وبعلله مقدما فيه . ولما مرض قال : ادفنونى بالقطيعة ! فقيل له : ألا تدفن مع أبيك ، يعنى بمقبرة باب حرب ؟

فقال : صح عندى أن بالقطيعة نبيا مدفونا ، ولأن أكون فى جوار نبى أحب إلىّ من أن أكون فى جوار أبى .

وكانت وفاته سنة تسعين ومائتين وسنّه سبع وسبعون كأبيه !

(٣) وكان للإمام ولد ثالث من سُرِّية يقال لها حِسْن واسمه سعيد . ورابع اسمه محمد ، وخامس اسمه حسن ، وبنت اسمها زينب ،

وبنت اسمها فاطمة ، وتوأمان ماتا بالقرب من ولادتهما .

* * *

ولقد ربّى أولاده وأسرته على المنهاج الذى أحبه .

لم يخرج بسببهم عن الخطّ الحديدى الذى رسمه لنفسه ، ولم يحاول أبدا أن يتقرب إلى خليفة لكى يضاعف رصيده ، ويخرج عن التقشف والزهادة !

ولما خالفه أولاده وضاقوا بشدة الشظف ، وطول الحرمان قال لهم سُدّوا ما بينى وبينكم !

وكانت الذرية خلفا حميدا لسلف صالح ، ووالد من أكرم الآباء ، وصديق من عظماء الصدّيقين !

وصية الإمام أحمد

جاء فى حلية الأولياء لأبى نعيم :

ولما كان أحمد بالعسكر كتب وصيته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل : أوصى أنه يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون . وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته ، أن يعبدوا الله فى العابدين ، ويحمدوه فى الحامدين . وأن ينصحوا لجماعة المسلمين ، وأوصى أنى قد رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، وأوصى أن لعبد الله ابن محمد المعروف بيوران ، علىَّ نحواً من خمسين ديناراً ، وهو مصدق فيما قال ، فيقضى ما له علىَّ من غلة الدار إن شاء الله . فإذا استوفى أعطى ولد صالح وعبد الله ابنى أحمد بن حنبل ، كل ذكر وأنثى عشرة دراهم ، بعد وفاء مال أبى محمد . شهد أبو يوسف وصالح وعبد الله ابنا أحمد ابن محمد بن حنبل » .

مرضه وانتقاله إلى الرفيق الأعلى

أخذت هذه الحياة الحافلة فى الأفول شيئاً فشيئا ، ودنت من الأصيل رويداً رويدا ، بعد أن قاومت سلطان الإغراء من أول وهلة إلى آخر زمنها ، وبعد أن صمدت أمام الطغيان حتى صفت سحبه ، وتكسر على صخرته .

واستعد الإمام أحمد للقاء ربه ، فضاعف الصوم حتى واصله ، وهجر اللحم حتى أتعب الطبيب الذى كان يرجوه أن يترفق بنفسه ، واعتزل الأصدقاء والحياة العامة ، تشميرا وتأهّباً ، فكان أصدقاؤه الأقربون يتعبون فى الوصول إليه !!

واشتدّت وطأة النذير ، وآذن بقرب الرحيل !!

وثقل المرض على الإمام أحمد ، وتضاعفت الحمّى ، وصُعب التنفّس . فماذا كان يشغل الإمام أحمد فى هذه اللحظات ؟ ؟

(١) الصلاة .

(٢) المال الذى تركه .

(٣) ثلاث شعرات من شعر النبي صلى الله عليه وسلم كانت معه !!

(٤) عدم أنينه فى مرضه لأنه روى حديثاً عن طاووس بكراهية الأنين !!

فأما الصلاة ، فقد حافظ عليها حتى آخر لحظاته ، وحتى قابل ربه بعد وضوئه بلحظات محدودة !!

وكان يأمر أولاده أن يخلّلوا أصابعه ـ كما هو السنة ـ عند ماعجز هو عن التخليل .

وأما المال ، فقد سأل عما تركه ؛ فقيل له درهم !! أى والله درهم كما روت الأخبار ، فأمر أن يُتصدق منه ومن إيجار البيت بمقدار كفارة اليمين ، ثم أعلن فرحته للقاء ربه وهو مسكين ليحشر فى زمرة المساكين !

وأما الشعرات الثلاث ، فقد أوصى بأن توضع شعرة على لسانه وشعرة على كل عين !!

وأما عدم أنينه ، فقد كان وفيًّا بما التزم ، فلم يئنّ حتى لقى ربه !

روى المقريزى عن صالح قال :

« لما كان فى أول يوم من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين حُمّ أبى ، فدخلت عليه وهو محموم ، فتنفس نفساً شديداً ؛ فقلت : علام أفطرت البارحة ؟ فقال : على ماء باقلاء ، ثم أراد القيام ، فقال : خذ بيدى ؛ فأخذت بيده فلما صار إلى الخلاء ، ضعفت رجلا ، حتى توكأ علىّ . وكان يختلف إليه غير متطبب كلهم مسلمون ، فوصف له متطبب قرعة تشوى ويُسقى ماءها ؛ فقال : يا صالح . قلت : لبيك !! قال : لا تشوى فى منزلك ولا منزل عبد الله أخيك[1] !!

وأتى الفتح بن سهل وعلىّ بن الجعد فحجبتهما ؛ وكثر الناس !!

قال : فأى شىء ترى ؟ قلت : تأذن لهم فيدعون لك ؛ فأذنّا لهم ؛ فجعلوا يدخلون عليه أفواجاً حتى تمتلئ الدار ، وكثر الناس ، وامتلأ الشارع ، وأغلقنا باب الزقاق ؛ وجاء رجل من جيراننا قد خضب ؛ فقال : إنى لأرى الرجل يحيى شيئا من السنّة فأفرح به .

فجعل الرجل يدعو له ، فيقول : أبى : ولجميع المسلمين .

---

(١) لأنهما كانا يأخذان من مال السلطان وهو لا يحب أن يدخل فى جوفه شىء من هذا ولو مجرد الشواء .

ثم قال أبى : اقبض من السكان دراهم واشتر تمرا وكفر عنى كفارة يمين ، فاشتريت وكفرت وأخبرته ، فقال : الحمد لله .

وكانت هذه هى اليمين الوحيدة التى حنث فيها الإمام أحمد ، كما روى فى كتاب المجالسة ! !

وقد سئل عبد الله ! ! هل عقل أبوك عند الموت المعاينة ؟

قال : نعم : كنا نوضئه ، فجعل يشير بيده ، فقال لى صالح : أى شىء يقول ؟ فقلت : هو يقول : خللوا لى أصابعى ! ! فخللنا أصابعه ثم ترك الإشارة ، فمات من ساعته ، تغمده الله برحمته ، وذلك لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وهو ابن سبع وسبعين سنة .

واكتفينا بهذه الرواية فى مرضه عن رواية السبكى فى طبقاته وغيرها .

وانطوت صفحة من صفحات التاريخ ، على سطور بيض ، وأخبار ثقال ، وعبرة وأسوة ، كلما فتحناها وقلبنا النظر فيها أمدتنا بجديد .

جنازة الإمام أحمد

وهنا نصل إلى حدث تاريخى لم نشهد له مثيلا فيما قرأنا أو سمعنا، ذلك هو حدث كثرة المصلين على الإمام أحمد .

روى الخطيب البغدادى عن الفضل بن زياد قال :

« وتوفى أبو عبد الله يوم الجمعة ضحوة » ..

وذكر عبد الله بن إسحاق البغوى أن بنان بن أحمد القصبانى أخبرهم أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل مع من حضر .

قال : فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة ربع القضيعة . لحزر من حضرها من الرجال ثمانمائة ألف ، ومن النساء ستون ألف امرأة » .

ولقد وقفنا طويلا عند هذا العدد الهائل ، فأدهشنا أننا وجدنا فى بعض الروايات عدداً أكبر منه .

والذى لا شك فيه أن هذا الحصر ليس دقيقاً لا فى الرجال ولا فى النساء .

ولكنه على أى حال يدل على أن موجة عامة من الحزن والرثاء عمت العالم الإسلامى عامة ، وبغداد وملحقاتها بصفة خاصة .

ويبدو أن المصلين عليه استمروا فى صلاتهم حتى بعد دفنه ، فقد روى أحدهم أنه لم يتمكن من الوصول إلى قبر الإمام أحمد إلا بعد أيام من وفاته .

رحم الله الإمام رحمة واسعة وألحقنا به فى الصالحين .

* * *

والآن نشرع متوكلين على الله عز وجل فى تقديم المخطوطة التى كتبها أبو الفضل صالح ابن الإمام أحمد عن هذه الحياة الحافلة الكريمة .



مخطوطة نادرة لابن الإمام



والآن نقدم (المخطوطة) التى وعدنا بها ، تزكية لما كتبناه ، ولكى يقرأ الناس تاريخا لحياة الإمام أحمد ومحنته بقلم ولده أبى الفضل صالح وقد اضطرنا المقام إلى أن نذكر فقرات منها فى أثناء الكتاب .

فالجديد هنا إيرادها متكاملة كما جاءت أو كما وصلت إلينا وقد أعلنا فيما مضى أن المخطوطة لم تكن هى المصدر الوحيد لنا ، بل كان معنا مصادر أخرى نرجع إليها ، ونوازن بينها ، ثم نأخذ ما ترجح لنا .

وهى مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١١٨٨ ، عن نسخة خطية محفوظة فى دار السيد حسن عبد الوهاب بتونس .

وعندما جلسنا لقراءتها وتحقيقها ، أدهشنا كثيرا كثرة الأخطاء اللغوية التى كانت بالمخطوطة ، وأردنا أن نشير إليها بالهامش ، فوجدنا أن الصفحة الواحدة تحتاج إلى الكثير فكنا نصلح فى الأصل ما يشرد عن الصواب .

وكم توقفنا زمنا ليس بالقليل فى قراءة بعض الكلمات حتى يفتح الله عز وجل فنقرأها .

وكان فى النية تحقيق أعلامها ، وتخريج أحاديثها ، وشرح لغوياتها ، وصرفَنا عن ذلك كِبَر حجم الكتاب ، ومخافة التطويل فاقتصرنا على الضرورى من ذلك ولاحظنا كذلك أن بعض الجمل يكون ناقصا كلمة من الكلمات ، فرأينا أن نزيد أقرب تعبير مناسب ونجعله بين هذين القوسين [ ] .

والله ولى التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر مولد أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله ومبلغ سنه يوم توفي

أخبرنا الأستاذ الإمام شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني النيسابوري رضي الله عنه قدم علينا دمشق في رجب من سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة .

قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن أحمد الشيباني المعروف بالمخلدي رضي الله عنه في سنة سبع وثمانين وثلاثمائة .

قال : أخبرنا أبو بكر عبد الله بن مسلم الأسفراني قراءةً عليه .

قال : حدثنا أبو الفضل صالح بن أحمد بن محمد بن حنبل قال : سمعت أبي يقول : وُلدت في سنة أربع وستين ومائة في أولها في ربيع الأول ، وجيء بي حملا من مرو وتوفي أبي محمد بن حنبل وله ثلاثون سنة فوليتني أمي .

قال أبو الفضل : قال أبي : وكان قد ثقبت[1] أذني فكانت أمي رحمة الله عليها تُصَيِّرُ فيها حبتين [من] لؤلؤ فلما ترعرعت نزعتهما فكانتا عندها فدفعتهما إليَّ فبعتهما بنحو من ثلاثين درهما .

قال أبو الفضل توفي أبي رحمه الله في يوم جمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين فكان سنّه من يوم ولد إلى أن توفي سبعاً وسبعين ، رحمة الله عليه .

---

(١) ثقبت : أي خرقت

ثم قال أبو الفضل : وجدت فى بعض كتب أبى نسبَة : أحمد بن محمد ابن حنبل بن هلال بن أسد بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن باسط[١] بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكاشة بن صعب بن على بن بكر بن وايل بن باسط بن هُنْبْ بن أقصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن الهميشع بن النبت بن قندر بن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليه وسلم .

تاريخ طلب أبى عبد الله الحديث

قال سمعت صالحا يقول قال أبى طلبت الحديث وأنا ابن ستة عشر سنه . قال أبى ومات هشيم[٢] وأنا ابن عشرين سنة وأنا أحفظ ما سمعت منه ولقد جاء إنسان إلى باب ابن عليّة ومعه كتب هشيم فجعل يلقيها على وأنا أقول هذا إسناده كذا فجاء المعيطى وكان يحفظ فقلت له أجبه فيهما فبقى . واعرف من حديثه مالم أسمع ، وخرجت إلى الكوفة سنة مات هشيم سنة ثلاث وثمانين ومائة وهى أول سنة سافرت فيها وقدم عيسى بن يونس الكوفة بعدى بأيام سنة ثلاث وثمانين ولم يحج بعدها .

قال : وأول خَرْجة خرجتها إلى البصرة سنة ست وثمانين . قلت له : أىّ سنة خرجت إلى سفيان بن عينية ؟ قال فى سنة سبع وثمانين قدمناها وقد مات فضيل بن عياض وهى أول سنة حججت ، وسنة إحدى وتسعين حج الوليد بن مسلم ، وفى سنة ست وتسعين ، وأقمت سنة سبع وتسعين

---

(١) فى المصادر الأخرى قاسط كما ذكرنا فى أول الكتاب .

(٢) هو أول شيوخ أحمد الذين تلقى عنهم ببغداد ، ولد سنة ١٠٤ ﻫ ، وتوفى سنة ١٣٨ ﻫ ، وهو بخارى الأصل ، ورحل إلى بغداد ثم آلت إليه حلقة الحديث .

وخرجت سنة ثمان وتسعين وأقمت سنة تسع وتسعين عند عبد الرزاق[1]

وجاءنا موت سفيان ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدى سنة ثمان وتسعين قال أبى : ولو كان عندى خمسون درهما كنت قد خرجت إلى جرير ابن عبد الحميد إلى الرى فخرج بعض أصحابنا ولم يمكننى الخروج [لأنه] لم يكن عندى .

قال أبى وخرجت إلى الكوفة فكنت فى بيت تحت رأسى لبنة فحممتُ فرجعت إلى أمى رحمها الله ولم أكن استأذنتها .

قال وحججت خمس حجج منها ثلاث راجلا أنفقت فى إحدى هذه الحجج ثلاثين درهما . قال وأول سماعى من هشيم سنة تسع وسبعين وكان ابن المبارك قدم فى هذه السنة وهى آخر قَدْمَة قدمها وذهبت إلى مجلسه فقالوا قد خرج إلى طرسوس وتوفى سنة إحدى وثمانين قال وكتبت عن هشيم سنة تسع وسبعين إلا أنى لم أعتمد بعض سماعى ولزمناه سنة ثمانين وإحدى وثمانين وثنتين وثلاث ومات فى سنة ثلاث وثمانين فكتبنا عنه كتاب الحج نحواً من ألف حديث وبعض التفسير والقضاء وكتباً صغاراً قلت : يكون ثلاثة آلاف ؟ قال أكثر . سمعت صالحاً قال : سمعت أبى يقول : صليت خلف إبراهيم بن سعد غير مرة فكان يسلم واحدة ، ورآنى يوما وأنا أكتب فى الألواح فقال تكتب ؟ سمعت صالحاً يقول : قلت لأبى : يكون فى الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجعله الإنسان : قال النبى عليه السلام : قال : أرجو أن لا يكون به بأس : قلت : الشيخ يزعم الحرف يعرف أنه كذا وكذا فلا يفهم عنه . ترى أنه يُروى ذلك

---

(١) هو المحدث المشهور الذى كان يقيم بصنعاء فى اليمن وهو عبد الرزاق بن همام

عنه . قال : أرجو أن لا يضيق هذا قلت: الكتاب قد طال على الإنسان عهده لا يعرف بعض حروفه فيخبره بعض أصحابه : ما ترى فى ذلك ؟ قال: إن كان يعلم أنه كما فى الكتاب فليس به بأس .

ما ذكر من أخلاق أبى عبد الله رضى الله عنه

سمعت صالحاً يقول كان أبى إذا أراد الوضوء للصلاة لم يَدْعُ أحداً يستقى له الماء كان هو يستقى بيده وكنت أسمعه كثيراً يتلو سورة الكهف وكنت ربما اعتللت فيأخذ قدحا فيه ماء فيقرأ فيه ، ثم يقول إشرب منه واغسل وجهك ويديك وقال : ربما خرج إلى البقال يشترى حزمة الحطب والشيء فيحمله . وجاءنا يوماً بيكور وعندى رجل ضرير يقرأ فأخبرت أنه قعد هنيهة يستمع وكان يبيت عندى كثيراً قوم فيهم من يقرأ ويغير فيبلغه ذلك فلا يقول شيئاً .

قال ورأيته يوم جمعة والإمام يخطب وسائل يسأل وكان إلى جنب أبى رجل وكان السائل مما يلى أبى فأومأ الرجل وفى يده قطعة إلى أبى ليأخذها ويعطيها السائل فلم يأخذها من الرجل . وكان ربما ركع فى المسجد يوم الجمعة وربما انصرف فيصلى فى بعض المساجد ومضيت معه يوم جمعة إلى مسجد الجامع(1) فوافقت الناس انصرفوا فدخل أبى المسجد وكان معنا إبراهيم بن هانىء النيسابورى . فتقدم أبى فصلى بنا الظهر أربعاً . قال : قد فعله بن مسعود بعلقمة والأسود . أخبرنا المخلدى قال : أخبرنا الأسفرانى قال : حدثنا صالح قال : حدثنى أبى قال : حدثنا عبد الرحمن ابن مهدى عن سفيان عن الحسن بن عبيد الله قال : فاتتنى الجمعة وأنا وذر

---

(1) هو أكبر مسجد فى بغداد . ولعله هو المسجد الذى كانت فيه حلقات درس الإمام أحمد .

فصلينا فى جماعة قال : فذكرت ذلك لإبراهيم فقال : قد فعله بن مسعود بعلقمة والأسود يوم جمعة قال : المخلدى قال : أبو بكر الأسفرانى سألت إبراهيم بن هانئ عن هذا فقلت : فاتكم الجمعة مع أحمد فصلا بكم أربعا قال : نعم وأخبرنا الأسفرانى قال : حدثنا صالح قال : حدثنى أبى قال : حدثنا عبد الرزّاق قال : أخبرنا سفيان عن الحسن بن عبيد الله قال : صليت أنا وذر فَأَمَّنِي وفاتتنا الجمعة ، فسألت إبراهيم ، فقال : قد فعل ذلك عبد الله بعلقمة والأسود قال سفيان وإنما فعلته أنا والأعمش قال أبى وقد فعله إياس بن معاوية وهو قاضى البصرة أخبرنا المخلدى قال : أخبرنا الأسفرانى قال : حدثنا صالح قال : حدثنى أبى قال : حدثنا زيد بن الحباب قال : أخبرنى حميد بن عبيدة قال : جئت إلى المسجد يوم الجمعة فوجدت الناس قد صلوا ، وجاء إياس وهو يومئذٍ قاضى البصرة قال : فصلى فصلا بنا فى جماعة قال : أبى وصلى سويد بن غفلة وقد فاتته الجمعة فصلى الظهر فى جماعة وقال : صالح فحدّثنيه أبى قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن أبى عوانة عن بعض أصحابه أن سويد بن غفلة فاتته الجمعة فصنع مثل ذلك[1] سمعت صالحاً يقول : وحضرت مع أبى عند إبراهيم بن الليث صاحب الأشجعى وحضر على بن المدينى وعباس العنبرى وجماعة كثير من أهل الحديث فنودى بصلاة الظهر فسمعوا النداء فقال له على : يا أبا عبد الله نخرج [إلى] المسجد أو تصلى ها هنا فقال نحن جماعة نصلى ها هنا فصلوا ورأيت أبى وقد توفى عم له يقال عبد الله بن حنبل فلما حنَّط[2] وكفن

---

(١) لم يذكر لنا أبو الفضل صالح السبب القاهر الذى تسبب فى عدم إدراك الإمام أحمد للجمعة ومعلوم أن الإمام أحمد لا يترك الجمعة إلا لسبب قاهر .

(٢) الحنوط كصبور ، الشىء الطيب الذى يوضع للميت .

قبّل جبهته قبل أن يغطى وجهه وكان إذا شهد جنازةً يقدم أمامها أو يكون قريبا منها وقال : يتقدمها أحب إلى .

حدثنا صالح قال : حدثنى أبى قال : حدثنا عبد الرزاق قال : حدثنا معمر عن الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا يمشون بين يدى الجنازة قال : الزهرى ، وأخبرنى سالم أن أباه كان يمشى بين يديها . حدثنا صالح قال : حدثنا حجاج قال حدثنا ليث قال حدثنى عقيل بن مخلد عن بن شهاب أن سالم بن عبد الله أخبره أن عبد الله بن عمر كان يمشى بين يدى الجنازة وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمشى بين يدى الجنازة وأبا بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم . حدثنا صالح قال وحدثنى أبى قال حدثنا حجاج قال قرأت على بن جريج قال : أخبرنى زياد أن ابن شهاب حدثه قال : حدثنى سالم عن عبد الله بن عمر أنه كان يمشى بين يدى الجنازة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان يمشون أمامها . قال أبى يرى أنه مرسل .

حدثنا صالح قال : حدثنى أبى قال حدثنا سفيان عن ابن المنكدر وسمع ربيعة بن عبد الله بن هدين قال : رأيتُ عمر يقدم الناس إمام جنازة زينب بنت جحش[1] قال وكان أبى إذا صلى على جنازة لم يجلس حتى يوضع السرير وقال لا يجلس حتى توضع من أعناق الرجال وكان يكبر على الجنازة أربعا ويرفع يديه مع كل تكبيرة ويقرأ فاتحة الكتاب فى أول تكبيرة ثم يسلم تسليمة واحدة .

وكان إذا دخل المغيرة خلع نعليه وأمسكها بيده وربما قال لجارية لى مَوْلَاكِ فى البيت . وكان إذا ولد لى مولود سمّاه ، وكان إذا ولد لى بنت يقول : الأنبياء

---

(١) هى أحدى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم .

كانوا أبناء بنات ، ويقول قد جاء فى البنات ما قد علمت . قال : ووُلد لى مولود فأهدى إلى صديق شيئاً ، ثم أتا على ذلك شهر وأراد الخروج إلى البصرة ، فقال لى : تُكَلِّمُ لى أبا عبد الله يكتب لى إلى المشايخ بالبصرة ، فكلمته فقال : لولا أنه أهدى إليك كتبتُ له . لست اكتب له . وأهدى إليه رجل ولد له مولود خوان فَالوذَج فاهدى إليه سكراً بدراهم صالحة وأكل يوما فى منزلى فأخذ لقمة فناولها الخادم وكان ربما خبز له فيصير له فى نخاره عدس وشحم وربما قال صيروا فيه ثم [يأتى شهران] فكان إذا أراد أن يأكل يجىء إلى الصبيان بقصعة من ذاك العُديس فيصوت ببعضهم فيدفعه إليه فيضحكون ولا يأكلون(1) . وكان كثيرا ما يأتدم بِالَخلّ وربما رأيته يأكل الكسر فينفضُ الغبار عنها ثم يُصَيِّرُها فى قصعة ويصب عليها الماء حتى تلين ، ثم يأكله بالملح . وما رأيته قط اشترى رماناً ولا سفرجلا ولا شيئا من الفاكهة إلا أن يشترى بطيخة فيأكلها بالخبز أو عنباً أو تمراً ؛ فأما غير ذلك فما رأيته وما اشتراه . وكنا ربما اشترينا الشىء فنستره عنه حتى لا يراه فيوبخنا على ذلك . وقال لى إن كانت والدتك فى الفلا تغزل غزلا دقيقا فتبيع الأستار بدرهمين [أو] أقل أو أكثر فكان ذلك قوتنا .

وكان قديما قبل أن نَأخذ من السلطان يأكل عندنا ، وربما وجهنا بالشىء فيأكل منه . ودخل يوما إلى منزلى وقد غيّرنا سقفا لنا فدعانى ثم أملا على حديث الأحنف بن قيس فقال : حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا حماد ابن سلمة عن يونس عن الحسن قال : قدم الأحنف بن قيس من سفر وقد غيروا سقف بيته : حَمَّرُوا شقا شقا وخضروها فقالوا له أما ترى إلى سقف

(1) فى العبارة اضطراب . ولعل المراد أن الإمام أحمد كان يجفف هذا الطعام لمدة من الزمن حتى يعافه الصبيان .

بيتك ؟ فقال معذرة إليكم إنى لم أره . لا أدخله حتى تغيروه !

واعتللت من عيني ليلة فلم يزل عندى فقلت اللهم إنى أسألك الصبر ، فقال : سل الله العافية فإن الصبر إنما يكون مع البلاء . وكان كتب إلى إسحاق بن راهويه فكتب إليه إسحق أن الأمير عبد الله بن طاهر وجه إلىّ ودخلت عليه وفى يدى كتاب أبى عبد الله فقال : ما هذا الكتاب ؟ فقلت : كتاب أحمد بن حنبل فقال : هاته . فأخذه فقرأه وقال : إنى لأحبه وأحب حمزة بن هيصم اليوسجى لأنهما لا يختلطان بأمر السلطان ثم قال لست آمنك على هذا الكتاب وأخذه فوضعه تحت مصلاه ، فقرأت كتاب إسحاق على أبى فأمسك عن الكتابة إليه ، وكان يتنور فى البيت إلا أنه قال لى يوما وكان يوم شتوى أريد [أن] أدخل الحمام بعد المغرب ، فقلت لصاحب الحمام فلما كان المغرب فقال ابعث إليه أنى قد ضربت عن الدخول والتنور فى البيت . وأردت أن أشترى جارية نصرانية فقال : لا تشتر نصرانية واشتريت جارية فشكت إليه أهلى فقال كنت أكره لكم الدنيا وكان ربما بلغنى عنكما الشيء فقالت له ياعم ومن يكره الدنيا غيرك فقال لها فشأنك إذا .

ما ذكر فى زهد أبى عبد الله رضى الله عنه

قال أبو الفضل : دخلت يوما على أبى أيام الواثق والله يعلم على أى حالة نحن وقد خرج لصلاة العصر ، وكان له لبد يجلس عليه قد أتى عليه سنون كثيرة حتى قد بلى وإذا تحته كتاب كاغد ، وإذا فيه : بلغنى يا أباعبدالله ما أنت فيه من الضيق وما عليك من الدّين ، وقد وجهت إليك بأربعة آلاف درهم على يد فلان لتقضى بها دَينك وتوسع على عيالك وما هى من صدقة ولا زكاة ، وإنما هو شيء ورثته من أبى فقرأت الكتاب

ووضعته ، فلما دخل قلت له يا أبي هذا الكتاب فاحمر وجهه وقال : دفعه منك ؛ ثم قال : تذهب بجوابه : فكتب إلى الرجل : « وصل كتابك إلىّ ونحن فى عافية . فأما الدَّين فإنه لرجل لا يرهقنا ، وأما عيالنا فهم فى نعمة والحمد لله » فذهبت بالكتاب إلى الرجل الذى كان أوصل كتاب الرجل ، فقال : ويحك . لو أن أبا عبد الله قبِل هذا الشىء ورما به مثلا فى الدجلة كان مأجوراً لأن هذا الرجل لا يفوت له معروف . فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك ، فرد عليه الجواب بمثل ما رد فلما مضت سنة [أو] أقل أو أكثر ذكرناها فقال : لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت . قال : وشهدت بن الجدوى أخا حسن وقد جاءه بعد المغرب فقال : أنا رجل مشهور وقد أتيتك فى هذا الوقت ، وعندى شىء قد أعددته لك ، فأحب أن تقبله وهو ميراث ، فلم يزل به فلما أكثر عليه قام ودخل . قال أبو الفضل فأخبرت عن حسن قال : قال لى أخى لمّا رأيته كلمّا اللححت عليه ازداد بُعداً . قلت : أخبروه كما هى قال : قلت يا أبا عبدالله : هى ثلاثة آلاف دينار ، فقام وتركنى . قال يوما أنا إذا لم تكن عندى قطعة . أخرج ، فقال له : أبو محمد بوران عندى خف أبعث به إليك فسكت ، فلما عاد إليه أبو محمد قال : يا أبا محمد : لا تبعث بالخف فقد شغل قلبى عليه ، ووجه رجل من الصين بِكَاغِدْ صينى إلى جماعة من المحدثين منهم يحيى وغيره ووجه بقمطير إلى أبى فردها وقال أبى : ما أخرجت خراسان بعد ابن المبارك رجلا يشبه يحيى ابن يحيى فجاءنى ابنه فقال إن أبى أوصا بمبطنة له لك وقال تذكرنى بها فقال أبى فقلت جىء فجاء برزمة ثياب فقلت له إذهب رحمك الله وقلت لأبى بلغنى أن أحمد بن الدورقى أعطى ألف دينار فقال : أى بنى ورزق ربك خير وابقى .

ذكر يوما عنده رجل فقال : يا بنى . الفائز من فاز غدا ولم يكن لأحد عنده تبعة . وذكر له ابن أبي شيبة وعبد الأعلى النوسى ومن قدم به إلى العسكر من المحدثين فقال : إنما كانت أيام قلائل ثم تلاحقوا وما بخلوا منه بكثير شيء . وجئت يوما إلى المنزل فقيل لى قد وجه أبوك أمس فى طلبك فقلت وجّهتَ فى طلبى فقال جاءنى أمس رجل كنت أحب أن تراه بينا أنا قاعد فى بحر الظهيرة إذا أنا برجل يسلم بالباب ، فكأن قلبى ارتاح له فقمت ففتحت الباب ، فإذا أنا برجل عليه فروٌ وعلى أم رأسه خرقة ما تحت فروة قميص ولا معه ركوةٍ ولا جراب ولا عكّاز ، قد لوحته الشمس فقلت أدخل الدهليز . فقلت ؟ من أين أقبلت ، قال : من ناحية المشرق . أريد بعض هذه السواحل ولولا مكانك مادخلت هذا البلد إلا أنى نويت السلام عليك قلت على هذه الحال قال نعم ؛ ثم قال لى ما الزّهد فى الدنيا ؟ قلت : قصر الأمل . قال فجعلت أعجب منه فقلت فى نفسى وما عندى ذهب ولا فضة فدخلت البيت فأخذت أربعة أرغفة وخرجت إليه فقلت ما عندى ذهب ولا فضة وإنما هذا من قوتى . قال : أوَ يسرك يا أبا عبد الله أن أقبل ذلك ؟ قال : قلت نعم . قال : فأخذها ، فوضعها تحت حُضنه وقال أرجو أن يكفينى زاداً إلى الرقة استودعك . الله قال : فلم أزل قائما أنظر إليه إلى أن خرج من الزقاق وكان يذكره كثيراً وكنت أسمع أبى كثيراً يقول اللهم سلم سلم .

حدثنا صالح قال فحدثنى أبى قال حدثنا يونس بن محمد قال حدثنا حمّاد بن زيد قال زعم يحي بن سعيد أن سعيد بن المسيب كان يقول : اللهم سلم سلم ، وكان أبى إذا دعا له رجل يقول ليس يحرز المؤمن إلا حفرته ، الأعمال بخواتيمها .

وكان رجل يختلف مع خلف المخزمى إلى عفان يقال له أحمد بن الحكم العطار نختن بعض ولده فدعا أبى وأبا خيثمة وجماعة من أَصحاب الحديث وطلب إلى أبى أن يحضر فمضوا ومضى أبى بعدهم، وأنا معه. فلما دخل أجلس فى بيت ومعه جماعة من أصحاب الحديث ممن كان يختلف معه إلى عفان وكان فيهم رجل يكنى بأبى بكر يعرف بالأحول، فقال له: يا أبا عبدالله ها هنا آنية من آنية الفضة والتفت فإذا كرسى فقام وخرج وتبعه من كان فى البيت. وسأل من كان فى الدار عن خروجه فأُخبروا فتبعه معهم جماعة وأُخبر الرجل نخرج إلى أبى لخلف أنه ما علم بذلك ولا أمر به فجعل يطلب إليه فأبا، وجاء عفان فقال له الرجل يا أبا عثمان أطلب إلى أَبى عبد الله أن يرجع، فكلمه عفان فأبى أن يرجع فنزل بالرجل أمر عظيم.

ما ذكر من ورود كتاب المأمون فى المحنة من طرسوس وبأشخاص أبى رحمه الله ومحمد بن نوح رضى الله عنهما

سمعت أَبا الفضل صالحا قال سمعت أَبى يقول: لما أدخلنا على إسحاق ابن إبراهيم للمحنة فقرئ عليه الكتاب الذى كان إلى طرسوس فكان فيما قرئَ علينا ليس كمثله شىء وهو خالق كل شىء، فقال أَبى: فقلت وهو السميع البصير فقال بعضهم ممن حضر: سله ما أراد بقوله وهو السميع البصير فقال أَبى: فقلت هو كما قال: تبارك وتعالى.

سمعت أَبا الفضل يقول ثم امتحن القوم فوجه بمن امتنع إلى الحبس فأجاب القوم جميعاً غير أربعة أبى رحمه الله ومحمد بن نوح وعبيد الله بن عمر القواريرى والحسن بن حماد السجادة ثم أجاب عبيد الله بن عمر، والحسن بن حماد وبقى أبى ومحمد بن نوح فى الحبس فمكثنا إياما فى الحبس

ثم ورد كتاب من طرسوس بحملهما ، فحمل أبى ومحمد بن نوح رحمة الله عليهما مقيدين زميلين أخرجا من بغداد فصرنا معهما إلى الأنبار ، فسأل أبو بكر الأحول أبى فقال له يا أبا عبد الله إن عرضت على السيف تجيب ؟ فقال لا ، قال أبى فانطلق بناحتى دخلناه الرحبة فلما دخلنا منها وذلك فى جوف الليل وخرجنا من الرحبة عرض لنا رجل فقال أيكم أحمد بن حنبل فقيل له هذا فسلم علىّ ثم قال يا هذا ما عليك أن تقتل هاهنا وتدخل الجنة ها هنا . ثم سلم وانصرف فقلت من هذا فقيل هذا رجل من ربيعة من العرب يقول الشعر فى البادية يقال له جابر بن عامر فلما صرنا إلى أذنة ودخلنا منها وذلك فى جوف الليل وفتح لنا بابها لقينا رجل ونحن خارجون من الباب وهو داخل فقال البشرى قد مات الرجل قال أبى وكنت أدعو الله أنى لا أراه . فحدثنى أبى قال : حدثنا معمر بن سليمان عن موار بن سليمان عن ميمون بن مهران قال :

ثلاث لا تَبْلوَن نفسك بهن : لا تدخل على السلطان وإن قلت آمره بطاعة الله ، ولا تدخلن على امرأة وإن قلت أعلمها كتاب الله ، ولا تصغين سمعك لذى هوى فإنك لا تدرى ما يعلق قلبك منه » .

سمعت أبا الفضل يقول فصار أبى ومحمد بن نوح إلى طرسوس وجاء نعى المأمون من البدندون فردًّا فى إقيادهما إلى الرقة وأخرجا من الرقة فى سفينة مع قوم محبسين ، فلما صارا بعانات توفى محمد بن نوح وتقدم أبى فصلى عليه ثم صار إلى بغداد وهو مقيد فمكث بالياسرية أياما ، ثم صُيِّر إلى الحبس فى دار اكتُرِيَت عند دار عمار ، ثم نقل بعد ذلك إلى حبس العامة فى درب الموصلية فمكث فى السجن منذ أخذ وحمل وضرب ودخل

عليه ثمانية وعشرين شهراً . قال أبي فكنت أصلى بهم وأنا مقيد . فقال أبي إذا كان القيد لا يحجزه عن تمام الصلاة فلا بأس وكنت أرى بوران يحمل له فى دورق ماء بارداً فيذهب به إلى السجن

ذكر محنة أبي إسحق المعتصم لأبى رحمة الله عليه

سمعت أبا الفضل يقول قال أبى رحمه الله .

لما كان فى شهر رمضان ليلة تسع عشرة خلت منه حُوِّلْتُ من السجن إلى دار إسحق بن إبراهيم وأنا مقيد بقيد واحد يوجه إلى كل يوم رجلين سماهما أبي قال أبو الفضل وهما أحمد بن رباح وأبو شعيب الحجام يكلمانى ويناظرانى فإذا أرادا الانصراف دُعِي بقيد فقيدت فمكثت على هذه الحال ثلاثة أيام وصار فى رجلى أَربعة أقياد فقال لى أحدهما فى بعض الأيام فى كلام دار وسألته عن علم الله فقال علم الله مخلوق قلت يا كافر كفرت فقال لى الرسول الذى كان يحضر معهم من قبل إسحق هذا رسول أمير المؤمنين قال فقلت إن هذا قد كفر . وكان صاحبه الذى يجىء معه خارجا فلما دخلت قلت إن هذا زعم أن علم الله مخلوق فنظر إليه كالمنكر عليه قال ثم انصرفا . قال أبي وأسماء الله فى القرآن والقرآن من علمه فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر ومن زعم أن أسماء الله مخلوقة فقد كفر . قال أبي فلما كان الليلة الرابعة بعد عشاء الآخرة جاء يعنى المعتصم بِبُغا إلى إسحق يأمره بحملى فأدخلت على إسحق فقال لى يا أحمد إنها والله نفسك أنه قد حلف أن لا يقتلك بالسيف وأن يضربك ضربا بعد ضرب وأَن يُلقيك فى موضع لا ترى فيه الشمس أليس قال الله تعالى إنا جعلناه قرآناً عربيا

أفيكون مجعولا إلا مخلوق قال أبى فقلت قد قال الله تعالى فجعلهم كعصف مأكول أنخلقهم . قال فقال : إذهبوا به . قال أبى فأنزلت إلى شاطئ دجلة فأحدرت إلى الموضع المعروف بباب البستان ومعى بُغَا الكبير ورسول من قبل إسحق فقال بغا لمحمد الحارس بالفارسية ماتريدون من هذا قال يريدون منه أن يقول القرآن مخلوق فقال ما أعرف شيئاً من هذا إلا قول لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقرابة أمير المؤمنين من النبي صلى الله عليه وسلم . قال أبى فلما صرنا إلى الشّط أخرجت من الزورق وحملت على دابة والأقياد علىّ وما معى أحد يمسكنى ، فجعلت أكاد أخر على وجهى حتى انتهى بى إلى الدار فأدخلت ثم فتح لى حجرة فصرت فى بيت منها وأغلق على الباب وأقعد عليه رجل وذلك إلى فى جوف الليل وليس فى البيت سراج فاحتجت إلى الوضوء فمددت يدى أطلب شيئا فإذا أنا بإناء فيه ماء وطست فتهيأت للصلاة وقمت أصلى ، فلما أصبحت جاءنى الرسول فأخذ بيدى فأدخلنى الدار وإذا هو جالس وابن أبى دواد حاضر وقد جمع أصحابه والدار غاصة بأهلها فلما دنوت منه سلمت فقال أدن أدن فلم يزل يدنينى حتى قربت منه ثم قال لى إجلس فجلست وقد أثقلتنى الأقياد فلما مكثت هنيهة قلت تأذن فى الكلام قال تكلم قلت إلام دعا إليه رسول الله ؟ قال إلى شهادة أن لا إله إلا الله قال فق ت فإنا نشهد أن لا إله إلا الله . قال ثم قلت : إن جدك ابن عباس حكى أَن وفد عبد القيس لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإيمان بالله تعالى قال أتدرون ما الإيمان بالله قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم .

حدثنا أبو الفضل قال حدثنى أبى قال حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة قال حدثنى أبو حمزة قال سمعت بن عباس رضى الله عنه قال أن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإيمان بالله فذكر مثل ذلك قال أبو الفضل قال أبى فقال لى عند ذلك : لولا أنى وجدتك فى يد من كان قبلى ما عرضت لك ثم التفت إلى عبد الرحمن بن إسحق فقال له يا عبد الرحمن ألم آمرك أن ترفع المحنة قال أبى فقلت فى نفسى الله أكبر إن فى هذا لفرجا للمسلمين قال ثم قال ناظروه وكلموه ثم قال يا عبد الرحمن كلمه فقال لى عبد الرحمن ما تقول فى القرآن ؟ قال قلت ما تقول فى علم الله قال فسكت قال أبى فجعل يكلمنى هذا وهذا فأرد على هذا ثم أقول يا أمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله أقول به ذاك فيقول لى ابن أبى دواد وأنت لا تقول إلا كما فى كتاب الله أو سنة رسوله قال فقلت له تأولت تأويلا فأنت أعلم وما تأولت ما يحبس عليه ويقيد عليه قال فقال ابن أبى دواد فهو والله يا أمير المؤمنين ضال مضلّ مبتدع قال : فلا يزالون يكلّمونى قال وجعل صوتى يعلوا على أصواتهم فقال لى إنسان منهم قال الله تعالى (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث أفيكون محدث إلا مخلوق ؟ قلت له قال الله تعالى ص والقرآن ذى الذكر ، فالذكر هو القرآن وتلك ليس فيها ألف ولا « ل » قال فجعل ابن سماعة لا يفهم ما أقول قال فجعل يقول لهم ما يقول قال فقالوا أنه يقول كذا وكذا : قال : فقال لى إنسان منهم حديث خباب يا هنتاه تقرب إلى الله ما استطعت فإنك لن تقرب بشىء أحب إليه من كلامه قال فقلت نعم هكذا هو قال فجعل ابن أبى دواد ينظر

إليه ويلحظه متغيظاً عليه قال أبي وقال بعضهم أليس قال خالق كل شيء قال قلت قد قال « تدمّر كل شيء » فدمرت إلا ما أراد الله قال : وقال لى بعضهم فيم تقول وذكر حديث عمران بن حصين إن الله تبارك وتعالى كتب الذكر فقال إن الله خلق الذكر قال فقلت هذا خطأ حدثناه غير واحد إن الله كتب قال أبي : فكان إذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن أبي دواد يتكلم فلما قارب الزوال قال لهم قوموا ثم أجلس عبد الرحمن بن إسحق فخلا بي وبعبد الرحمن فجعل يقول لى أما كنت تعرف صالحا الرشيدى؟ كان مؤدبى وكان فى هذا الموضع جالسا وأشار إلى ناحية من الدار قال فتكلم وذكر القرآن فخالفنى فأمرت به فسُحب ووُطئ قال أبي ثم جعل يقول لى ما أعرفك ألم تكن تأتينا فقال له عبد الرحمن يا أمير المؤمنين أعرفه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتك والحج والجهاد معك وهو ملازم لمنزله قال فجعل يقول والله أنه لفقيه وإنه لعالم وما يسرنى أن يكون مثله معى يرد عنى أهل الملل ولئن أجابنى إلى شيء له فيه أدنى فرج لأطلقن عنه بيدى ولا أطأن عقبه ولأركبن إليه بجندى قال ثم التفت إلىّ فيقول ويحك يا أحمد ما تقول قال فأقول يا أمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله .

فلما طال بنا المجلس ضجر فقام فرددت إلى الموضع الذى كنت فيه ثم وجه إلىّ برجلين سماهما وهما صاحب الشافعى وغسّان من أصحاب ابن أبي دواد يناظرانى فيقيمان معى حتى إذا حضر الإفطار وجه إلينا بمائدة عليها طعام فجعلا يأكلان وجعلت أتعلل حتى رفعت المائدة وأقاما إلى غد وفى خلال ذلك يجيء ابن أبي دواد فيقول لى يا أحمد يقول لك

أمير المؤمنين ما تقول فأقول له أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة
رسوله حتى أقول به فقال لى ابن أبى دواد والله كتب اسمك فى السبعة
فحوته ولقد ساءنى أخذهم إياك وإنه والله ليس هو السيف إنه ضرب بعد
ضرب ثم يقول لى ما تقول فأرد عليه نحوا مما رددت عليه ثم يأتى رسوله
فيقول أين أحمد بن عمار أجب الرجل الذى أنزلت فى حجرته فيذهب ثم
يعود فيقول يقول لك أمير المؤمنين ما تقول فأرد عليه نحوا مما رددت
على ابن أبى دواد فلا يزال رسله تأتى قال أحمد بن عمار وهو يختلف فيما
بينى وبينه ويقول يقول لك أمير المؤمنين أجبنى حتى أجىء فأطلق عنك
بيدى قال فلما كان فى اليوم الثانى أدخلت عليه وقال ناظروه وكلموه قال
فجعلوا يتكلمون هذا من ها هنا وهذا من ها هنا فأرد على هذا وهذا فإذا
جاءوا بشىء من الكلام مما ليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله
عليه وسلم ولا فيه خبر ولا أثر قلت ما أدرى ما هذا فيقولون
يا أمير المؤمنين إذا توجّهتَ عليه الحجة علينا وثب وإذا كلمناه بشىء يقول
لا أدرى ما هذا قال فيقول ناظروه قال ثم يقول يا أحمد إنى عليك شفيق
فقال رجل منهم أراك تذكر الحديث وتنتحله قال فقلت له ما تقول
فى قول الله تعالى يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فقال
خص الله بها المؤمنين فقلت له ما تقول إن كان قاتلا أو عبداً أو يهودياً
أو نصرانيا قال فسكت قال أبى وإنما احتججت عليه بهذا لأنهم كانوا
يحتجون على بظاهر القرآن وبقوله أراك تنتحل الحديث ، وكان إذا انقطع
الرجل منهم اعترض ابن أبى دواد فيقول يا أمير المؤمنين والله لئن أجابك
لهو أحب إلىّ من مائة ألف دينار ، ومائة ألف دينار فيعيد
ما شاء الله من ذلك .

ثم أمرهم بعد ذلك بالقيام وخلا بى وبعبد الرحمن فيدور بيننا كلام كثير ، وفى خلال ذلك يقول لى ندعو أحمد بن أبى دواد فأقول ذلك إليك فيوجه إليه فيجئ فيتكلم فلما طال بنا المجلس ، قام ورددت إلى الموضع الذى كنت فيه وجاءنى الرجلان اللذان كانا عندى بالأمس فجعلا يتكلمان فدار بيننا كلام كثير فلما كان وقت الإفطار جيء بطعام فعرضا علىّ فجعلا يتكلمان نحواً مما أتى به فى أول ليلة فأفطرا ، وتعللت وجعلت رسله تأتى أحمد بن عمار فيمضى إليه ويأتينى برسالته على نحو مما كان أول ليلة وجاءنى ابن أبى دواد فقال إنه قد حلف أن يضربك ضربا بعد ضرب وأن يحبسك فى موضع لا ترى فيه الشمس فقلت له فما أصنع حتى إذا كدت أن أصبح قلت : خليق أن يحدث من أمرى فى هذا اليوم شيء ، وقد كنت أخرجت تكتى من سراويلى فشددت بها الأقياد أحملها بها إذا توجهت إليه ، فقلت لبعض من كان مع الموكلين ارتد لى خيطا فجاءنى بخيط فشددت بها الأقياد وأعدت التكة فى السراويل ولبسته كراهية أن يحدث شيئاً من أمرى فأتعرى فلما كان فى اليوم الثالث أدخلت عليه ، والقوم حضور فجعلت أدخل من دار إلى دار ، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط ، وغير ذلك من الزى والسلاح . وقد حشدت الدار بالجند . ولم يكن فى اليومين الماضيين كثير أحد من هؤلاء ، حتى إذا حضرت إليه قال : ناظروه . كلموه . فعادوا بمثل مناظرتهم ، ودار بيننا كلام كثير حتى إذا كان فى الوقت الذى كان يخلو فيه نحّانى ، ثم اجتمعوا فشاورهم ثم نحاهم ، ودعانى فخلا بى وبعبد الرحمن فقال لى ويحك يا أحمد أنا عليك والله شفيق ، وإنى لأشفق عليك مثل شفقتى على هارون ابنى فأجبنى

فقلت له يا أمير المؤمنين أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فلما ضجر ، وطال المجلس قال لى عليك لعنة الله لقد كنت طمعت فيك خذوه واسحبوه قال فأُخذت وسحبت ، ثم جُعلت ثم قال العقابين ، والسياط فجىء بعقابين والسياط قال أبى وقد كان صار إلىّ شعرة أو شعرتان من شعر النبى صلى الله عليه وسلم فصَيَّرتهما فى كم قميصى فنظر إسحق بن إبراهيم إلى السرة فى كم قميصى فوجّه إلى ما هذا مصرور فى كمّه ؟ فقلت : شعر من شعر النبى صلى الله عليه وسلم ، وسعى بعض القوم إلى القميص ليحرقوه فى وقت ما أقمت بين العقابين . فقال له : يعنى المعتصم : لا تحرقوه ! انزعوه عنه . قال أبى : فظننت أنه دَرَأ عن الحرق القميص بسبب الشعر الذى كان فيه . ثم صُيّرت بين العقابين وشدت يدى ، وجىء بكرسى . فجلس عليه وابن أبى دواد قائم على رأسى والناس أجمعون قيام . قال له إنسان ممن شدّنى : خذ بأى الخشبتين بيدك ، وشدّ عليهما ، فلم أفهم ما قال فتخلعت يدى لما شدّت ولم أمسك الخشبتين ، قال أبو الفضل : ولم يزل أبى رحمة الله عليه يتوجع منهما إلى أن توفى ، ثم قال للجلادين : تقدموا ، فنظر إلى السياط فقال : ائتوا بغيرها . ثم قال لهم : تقدموا ، فقال لأحدهم : أدنه . أوجع . قطع الله يدك . فتقدم ، فضربنى سوطين ، ثم تنحى ، ثم قال للآخر : أدنه ، أوجع . شدّ قطع الله يدك . ثم تقدم فضربنى سوطين ، ثم تنحى فلم يزل يدعو واحدا بعد واحد يضربنى سوطين ويتنحى ثم قام حتى جاءنى وهم محدقين بى فقال : ويحك يا أحمد ، تقتل نفسك . ويحك أَجبنى ، حتى أطلق عنك بيدى ، فجعل بعضهم يقول لى : ويلك : إمامك على رأسك قائم ، قال لى عجيف : فنخسنى بقائم سيفه ويقول : تريد أن

تغلب هؤلاء كلهم . وجعل إسحاق بن إبراهيم يقول : ويحك الخليفة على رأسك قائم . قال : ثم يقول بعضهم : يا أمير المؤمنين ، دمه فى عنقى قال : ثم رجع فجلس على الكرسى ، ثم قال للجلاد : أدنه ، شد . قطع الله يدك . ثم لم يزل يدعو بجلاد بعد جلاد فيضربنى سوطين ، ويتنحى وهو يقول : شدّ قطع الله يدك ، ثم قام إلى الثانية فجعل يقول : يا أحمد أجبنى ، فجعل عبد الرحمن بن إسحاق يقول : من صنع بنفسه من أصحابك من هذا الأمر ما صنعت . هذا يحي بن معين وهذا أبو خيثمة وابن أبى إسرائيل ، وجعل يعدّد على من أجاب · قال : وجعل هو يقول : ويحك . أجبنى ، قال : فجعلت أقول نحو ما كنت أقول لهم . قال : فرجع ، فجلس ، ثم جعل يقول للجلاد : شد . قطع الله يدك ، قال أبى : فذهب عقلى ، فما عقلت إلا وأنا فى حجرة مطلق عنى الأقياد ، فقال لى إنسان ممن حضر : إنا أكببناك على وجهك ، وطرحنا على ظهرك بارية ودُسْناك · قال أبى : فقلت : ما شعرت بذاك قال : فجاءونى بسويق ، فقالوا : اشرب ، فقلت : لا أفطر ، فجىء به إلى دار إسحق بن إبراهيم قال أبى : فنودى بصلاة الظهر ، فصلينا الظهر ، وقال ابن سماعة : صليت والدم يسيل من ضربك ، فقلت : صلى عمر وجرحه يثعب دما . فسكت : ثم خلى عنه . فصار إلى المنزل ووجه إليه الرجل من السجن ممن يبصر الضرب والجراحات يعالج منه ، فنظر إليه فقال : قال لنا : والله ، لقد رأيت منه ضرب السياط . ما رأيت ضربا أشد من هذا . لقد جرّ عليه من خلفه ومن قدامه ، ثم أدخل ميلا فى بعض تلك الجراحات فقال : لم ينفذ فجعل يأتيه فيعالجه ، وقد كان أَصاب وجهه غير ضربة ثم مكث يعالجه ما شاء الله ، ثم قال له : إن هذا شىء أريد أن

أقطعه ، فجاء بحديدة ، فجعل يعلق اللحم بها ويقطعه بسكين معها وهو صابر بحمد الله لذلك ، فبرئ منه . ولم يزل يتوجع من مواضع منه ، وكان أثر الضرب بين من ظهره إلى أن توفى رحمة الله عليه .

سمعت أبى يقول : والله لقد أعطيت المجهود من نفسى ، ولوددت أن أنجو من هذا الأمر كفافا لا عَلىّ ولا لِى . قال أبو الفضل : أخبرنى أحد الرجلين اللذين كانا معه وقد كان هذا الرجل صاحب حديث قد سمع ونظر ، ثم خال بعد ، فقال : يا بن أخى : رحمة الله على أبى عبد الله ، والله ما رأيت أحداً يعنى يشبهه . لقد جعلت أقول له فى وقت ما يوجّه إلينا بالطعام : يا أبا عبد الله ، أنت صائم وأنت فى موضع تقية . ولقد عطش فقال لصاحب الشراب : ناولنى فناوله قدحا فيه ماء وثلج ، فأخذه فنظر إليه هنيهة ثم رده عليه . قال : فجعلت أعجب من صبره على الجوع والعطش ، وما هو فيه من الهول . قال أبو الفضل : وقد كنت ألتمس واحتال أن أوصّل إليه طعاما أو رغيفا أو رغيفين فى هذه الأيام ، فلم أقدر على ذلك . وأخبرنى رجل حضره قال : فقدته فى هذه الأيام الثلاثة وهم يناظرونه ويكلمونه ، فما لحن ولا ظننت أن أحداً يكون عن مثل شفاعته وشدة قلبه . قال أبو الفضل : دخلت على أبى رحمة الله عليه يوما وقلت له : بلغنى أن رجلا جاء إلى فضل الإنباطى ؛ فقال : اجعلنى فى حل إذ لم أقم بنصرتك ، فقال فضل : لا جعلت أحداً فى حلّ . فتبسم وسكت . فلما كان بعد أيام قال لى : مررنا بهذه الآية : فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، فنظرت فى تفسيرها ، فإذا هو ما حدثنى به هاشم بن القنيم ، قال حدثنا المبارك ، قال حدثنى ابن مسمع الحسن يقول : « إذا جَثَت

الأمم بين يدى الله تبارك وتعالى يوم القيامة نودوا : ليقم من أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفّ فى الدين . قال أبى : فجعلت الميت فى حل من ضربه إياى . ثم جعل يقول : وما على رجل ألا يعذب الله بسببه أحداً .

باب من قال : القرآن مخلوق

وأسماء الله تعالى مخلوقة وما يجب عليه ذلك من العقوبة

أخبرنا المخلدى قال حدثنا الأسفرانى قال : حدثنا أبو الفضل ، قال حدثنى أبى قال سمعت عبد الرحمن ابن مهدى وذكر عنده بشر المريسى فقال من زعم أن الله تبارك وتعالى لم يكلم موسى فهو كافر يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه .

حدثنا أبو الفضل قال : حدثنى أبى قال حدثنا شريح بن النعمان قال : أخبرنى عبد الله بن نافع قال : كان مالك يقول : كلم الله موسى صلى الله عليه وسلم ، ويقول القرآن كلام الله ويستفظع قول من يقول : القرآن مخلوق . قال : ويوجع ضربا ويحبس حتى يتوب .

حدثنا أبو الفضل قال : حدثنى أبى قال : سمعت إسماعيل بن علية يقول : من قال القرآن مخلوق فهو مبتدع ، وقال أبى : من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر ، ومن زعم أن أسماء الله مخلوقة كفر ، لا يصلى خلف من قال القرآن مخلوق . فإن صلى رجل أعاد .

سمعت صالح يقول :

قال أبى : بلغنى أن إسماعيل بن علية دخل على محمد بن هارون وهو

على سرير له ، فلما نظر إليه جعل يزحف على سريره ويقول له : يا ابن الفاعلة ، أنت المتكلم فى القرآن ، فجعل إسماعيل يقول له : جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين . زلة من عالم ، قال : أملى علينا أبو العباس عبد الله ابن محمد بن عمرو بن الجراح الأزدى المغربى ، قال : جاءنى إبراهيم بن محمد ابن خلف العسقلانى ، ومعه رَقٌّ بخط محمد بن خلف ، زعم أنه رأى فى المنام كأن ولد آدم كلهم قد شكوا فى الله غيرى ، وإذا رب العالمين جل وعز قد برز للخلق فى الهواء وموسى بن عمران عن يمينه وأنا أقرب الخلق إليه بعد موسى ، فقلت له . هو ربكم ، فقالوا : إن كان ربكم فقل له يجعل الشمس والقمر والكواكب فى الأرض كهيئتها فى السماء ، فسرنا وأنا أقدُم القوم موقن أَنه ربنا فإذا بأحمد بن حنبل يتوضأ على شط نهر وهو واقف على ظهر جادة عظيمة وإذا هو ملتحف بطيلسان له قوم فقال للخلق أين تريدون ، قالوا . نريد رب العالمين يجعل الشمس والقمر والنجوم كهيئتها فى الأرض ، فقال أحمد : هو ربكم وليس هو بفاعل ما تريدون . فرجع الخلق بقول أحمد ، يعنى ابن حنبل ، موقنين أنه ربهم . قال أبو العباس العونى : كتب أَحمد بن حنبل إلى ابن مسهر أن يكتب إليه بهذا الحديث يعنى حديث أم حبيبة من مَسّ فرجه فليتوضأ فقلت لأبى مُسْهَر أَن يكتب إليه أكتب به معى لا تبجح به عنده فقال لى كتب إلىَّ أكتب بخطه وأنا الساعة فى شغل .

حدثنا عباس بن الوليد بن مرثد قال : حدثنا الحارث بن عياش قال : قلت لأبى مسهر : هل تعلم أن أَحدا بقى يحفظ على هذه الأمة أَمر دينها . فقال لا أعلمه إلا شاب فى ناحية المشرق باب التنبيه وأَتباع الأثر

بالقول فى القرآن ، حدثنا أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل قال قال أبى أسماء الله فى القرآن والقرآن من علم الله وعلم الله ليس بمخلوق على كل وجه وعلى كل جهة وعلى أى حال فقيل لأبى عبد الله قوم يقولون إذا قال الرجل كلام الله ليس بمخلوق يقولون من إمامك فى هذا ومن أين قلت ليس بمخلوق هو قال الحجة قول الله تبارك وتعالى فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فما جاءه غير القرآن ، قال القرآن من علم الله وعلم الله ليس بمخلوق ومثل هذا فى القرآن كثير . قيل له يجزى أن أقول هذا قول جهم وعلى كل حال هو كلام الله قال نعم قيل له فأخذ من العلماء كلام الله ليس بمخلوق قال جعفر بن محمد قال صالح فحدثنى أبى أملاه على من كتابه قال حدثنا موسى بن داود قال حدثنا أبو عبد الرحمن معبد عن معاوية بن عمار الذهبى قال قلنا لجعفر إنهم يسألونا عن القرآن أمخلوق هو قال ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله ، قال أبى وقد رأيت معبد وبلغنى أنه كان يفتى ابن أبى ليلى سمعت أبا الفضل يقول سمعت أبا عبد الله جعفر بن عبد الواحد قال حدثنا عبد الأحد بن عبد الرحمن قال سمعت العارف قال سمعت الأوزاعى قال كان الزهرى ومكحول يقولان كلام الله غير مخلوق قال أبو الفضل قلت لأبى من قال لفظى بالقرآن مخلوق يكلم قال هذا لا يكلم ولا يصلى خلفه قال وإن صلى رجل أعاد . قال أبو الفضل : سأل يعقوب بن إبراهيم الدورقى أبى عن من قال لفظه بالقرآن مخلوق كيف تقول فى هؤلاء فقال لا يكلّم هؤلاء ولا يكلّم فى هذا . القرآن كلام الله غير مخلوق على كل جهة وعلى كل وجه

وعلى أى حال قال صالح تناهى إلىّ أن أبا طالب يحكى عن أبى أنه يقول لفظى بالقرآن غير مخلوق فأخبرت أبى بذلك فقال من أخبرك فقلت فلان قال ابعث إلى أبى طالب فوجهت إليه فجاء وجاء بوران فقال له أبى أنا قلت لفظى بالقرآن غير مخلوق وغضب وجعل يرعد فقال له قرأت عليك قل هو الله أحد فقلت لى هذا ليس بمخلوق قال قلت يحكى عن أبى قلت لك لفظى بالقرآن غير مخلوق وبلغنى أنك وضعت ذلك فى كتابك وكتبت به إلى قوم فإن كان فى كتابك فامحه أشد المحو واكتب إلى القوم الذين كتبت إليهم أنى لم أقل لك هذا وغضب وأقبل عليه فقال يملى عنى مالم أقل لك فجعل بوران يعتذر إليه وانصرف من عنده وهو مرعوب فعاد أبو طالب فذكر أنه قد حل ذلك من كتابه وأنه كتب إلى القوم يخبرهم أنه وهم على أبى عبد الله فى الحكاية[1] :

---

(١) هذا تأييد أو بعبارة أدق هو نص جديد لما بيناه أثناء الكتاب من أن الإمام أحمد لم يذهب إطلاقا أو لم يدر بخلده أن التلفظ بالقرآن قديم وغير مخلوق .

وقلنا فى اثناء الكتاب إنه كان يعارض الكلام فى هذه المسألة أصلا ، ويبدع المتكلمين فيها أساسا ، وهو إن ـ جهلهم أو كفرهم ـ فهذا لأنهم ألحقوا هذه المسألة بالعقائد مباشرة ، وخاضوا فيها من غير علم ، وحملوا العقل مالم يحتمل ، وتكلموا فى الألوهية وصفات الله بالكلام غير المسنود ، والمقام غير المعهود .

ولئن جاء فى تصريحات الإمام أحمد مايفيد ظاهره غير ما ذهبنا إليه ، فيجب أن نضرب الشك باليقين ، ونغلب الحقائق على الحدس والتخمين .

وأخرنا ذكر هذه الحادثة إلى هذا الموضع من الكتاب لتكون الحجة القاطعة وفصل الخطاب .

باب قول الواقفة فى القرآن وما يجب عليه

أخبرنا المخلدى قال حدثنا أبو بكر وعبد الله بن محمد الاسفرانى قاله أبو الفضل سمعت أبى يقول افترقت الجهمية على ثلاث فرق فرقة قالوا القرآن مخلوق وفرقة قالوا كلام الله وتسكت وفرقة قالوا ألفاظنا فى القرآن مخلوقة[1] . فقال الله عز وجل فى كتابه (فَأَجِرْهُ حتى يسمع كلام الله) فجبريل سمعه من الله وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل عليه السلام وسمعه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من النبى فالقرآن كلام الله غير مخلوق قال صالح قلت لأبى ولا يكلم من وقف قال لا يكلم قلت قال كلمه رجل . قال : يَأْمُرْه ! فإن ترك كلامه كله وإلم يترك كلامه فلا تكلمه .

باب من أريد على أن يقول القرآن مخلوق فأجاب إلى كره الصلاة خلفه وخلف من ارتد

أخبرنا المخلدى قال حدثنا عبد الله بن محمد الاسفرانى قال أبو الفضل قال أبى : إن امتحن فلا يجيب ولا كراهة ، المكره لا يكون عندى إلا أن يُنال بضرب أو بتعذيب ؛ فأما المتهدد فلا يكون عندى بالتهدد مكرها لأن الآية التى قال الله فيها (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)[2] فالآية نزلت فى عمار وكان عمار عُذِّب . قلت لأبى فإذا اجتمع رجلان أحدهما قد امتحن والآخر لم يُمْتَحَن ثم حضرت الصلاة قال يتقدم الذى لم يمتحن .

---

(١) انتهى تقسيم الجهمية وابتدأ تعليق الإمام .

(٢) سورة النحل .

وقال أبى : كان سفيان بن عيينة يحدث هذا الحديث ولم أسمعه أنا عن إسماعيل عن قيس قال اجتمع الأشعث بن قيس وجرير على جنازة فقدمه الأشعث عليها وقال الأشعث للناس إنى ارتددت وأنه لم يرتَدْ وأعجب أبى هذا الحديث . قال أبو الفضل حدثنا على بن عبد الله عن سفيان بن عيينة قال أبو الفضل وضرب أبى على حديث كل من أجاب وقال أبو الفضل قدم ابن رباح يريد البصرة فبلغه أن عبد الله القواريرى شَيَّعَهُ أو سلم عليه فصار القواريرى إلى أبى فلما نظر إليه قال : ألم يكف ما كان منك من الإجابة حتى سلمت على ابن رباح ورد الباب فى وجهه .

وجاءه الحزامى وقد ذهب إلى ابن أبى دواد فدق الباب ، فلما خرج إليه ورآه أغلق الباب ودخل .

سمعت صالحا يقول قال أبى : لا يشهد رجل عند قاض جهمى .

سمعت صالحا قال وسئل أبى عن الرجل يكون قد أشهد رجلا على شهادة يدعوه إلى القاضى ليشهد له والقاضى جهمى قال لا يذهب إليه ! قيل له : فإن استعدى عليه فذهب به فامتحن قال لا يجيب ولا كرامة يأخذ كفا من تراب يضرب به وجهه .

باب الصلاة خلف القدرى والرافضى

أخبرنا الخلدى قال حدثنا الاسفرانى قال سمعت صالحا يقول سألت أبى أيصلى الرجل خلف القدرى فإذا قال إن الله لا يعلم ما يعمل العباد حتى يعملوا ؟ قال لا يصلى خلفه .

سمعت صالحا يقول قال أبى لا يصلى خلف الرافضى إذا كان يتناول أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

باب إتباع الأثر والسنة

فى تقدمة أبى بكر وعمر رضوان الله عليهما

أخبرنا المخلدى قال حدثنا الاسفرانى قال سمعت صالحا يقول قلت لأبى: إلى أى شىء تذهب فى التفضيل ؟ قال إلى حديث ابن عمر قلت تذهب إلى حديث سفينة قال نعم نستعمل الخبرين جميعاً حديث سفينة الخلافة ثلاثون سنة فملك أبو بكر سنتين وشىء وعمر عشرا وعثمان اثنى عشر وعلى ستا رضوان الله عليهم قلت فإن قال قائل لم تثبت خلافة على قال ينبغى لك أن تتبع ما جاء قولنا نحن على عندى من الخلفاء الراشدين المهديين قد سمى نفسه أمير المؤمنين وأهل بدر متوافرون سموه أمير المؤمنين ويحج بالناس ويقطع ويرجم . قلت فإن قال : قد يجد الخارجى حين يخرج بيننا [من يقول] يا أمير المؤمنين قال هذا قول سوء خبيث ردىء فيقول علىّ إنما كان خارجى بئس القول نعوذ بالله من الغلو .

وسئل وأنا شاهد عن من يُقدم عليا على عثمان تبدّع . قال هذا أهل أن يبلغ أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قدموا عثمان .

وسئل أبى وأنا شاهد عن الإيمان والإسلام فقال قال أبى زين الإسلام القول والإيمان العمل قيل له ما تقول أنت قال الإسلام غير الإيمان قال الزهرى فى حديث عامر بن سعد حين قال الرجل يا رسول الله إنه مؤمن فقال النبى صلى الله عليه وسلم مسلم .

باب الفرق بين الإيمان والإسلام

أخبرني الخلدي قال حدثنا الاسفراني قال حدثنا صالح قال حدثنيه أبي قال :

حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الزهري عن عامر بن سعد ابن أبي وقاص عن أبيه قال أعطى النبي صلى الله عليه وسلم رجالا ولم يعط منهم رجلا فقال سعد يا نبي الله أعطيت فلانا وفلاناً ولم تعطى فلاناً شيئاً وهو مؤمن فقال النبي صلى الله عليه وسلم أو مسلم حتى أعادها سعد ثلاثا والنبي صلى الله عليه وسلم يقول له أو مسلم ثم قال النبي : إني لأعطى رجالا وأدع من هو أحب إلى منهم فلا أعطيه شيئاً مخافة أن يُكَبُّوا في النار على وجوههم .

قال الزهري : فترى أن الإسلام الكلمة والإيمان العمل .

حدثنا صالح قال حدثني أبي قال حدثنا هومل قال حدثنا حماد بن زيد قال سمعت هشاما يقول : كان الحسن ومحمد يقولان : مسلم ويهابان مؤمن

حدثنا صالح قال حدثني أبي قال حدثنا أبو سلمة الخزاعي قال : كان حماد ابن زيد يفرق بين الإيمان والإسلام ، ويجعل الإسلام عاما والإيمان خاصا . قال :

وقال أبي يروى عن أبي جعفر قال : الإيمان مقصور في الإسلام فإذا زنا خرج من الإيمان إلى الإسلام .

حدثنا أبي قال حدثنا معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق عن الأوزاعي قال قلت للزهري إنهم يقولون إن لم يكن مؤمن فما هو قال فأنكر ذلك وكره مسألتي عنه .

باب زيادة الإِيمان ونقصانه

قال حدثنا المخلدى قال حدثنا عبد الله الاسفرانى قال أبو الفضل قال أبى : الإيمان قول وعمل يزيد وينقص . حدثنا صالح قال فحدثنى أبى قال سمعت يحيي بن سعيد القطان يقول كان سفيان بن عيينة ينكر أن يقول أنا مؤمن وحسّن يحيي الزيادة والنقصان ورآه .

حدثنا أبى قال حدثنا أبو نعيم قال سمعت سفيان يقول : الإيمان يزيد وينقص حدثنى أَبى قال : سمعت وكيعا يقول الإيمان يزيد وينقص قال وكذا كان سفيان يقول حدثنا صالح قال حدثنى أبى قال : سمعت سفيان ابن عيينه يقول : لا يُعنَّف من قال : الإيمان يزيد وينقص .

حدثنى أبى قال حدثنا إبراهيم بن شماس قال : سمعت جرير بن عبد الحميد يقول : الإيمان يزيد وينقص . حدثنا أبى قال حدثنا ابن شماس قال : سمعت ابن المبارك يقول : الإيمان يتفاضل حدثنى أبى قال حدثنى أبو جعفر السويدى عن يحيي بن سليم عن هشام عن الحسن قال : الإيمان قول وعمل .

باب القول بالإيمان والعمل به

أخبرنا المخلدى قال حدثنا عبد الله الاسفرانى قال صالح حدثنى أبى قال حدثنا عبد الله بن يزيد قال حدثنا عبد الله بن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة الشيبانى عن عبيد بن عمير الليثى أنه قال : ليس الإيمان بالتمنى ولكن الإيمان قول بعقل وعمل بفعل حدثنى أبى قال حدثنى ابن شماس قال سمعت يحيي بن سليم ورواه عن ابن جريج قال : الإيمان قول وعمل حدثنى

أبى قال حدثنا شريح قال أخبرنى عبد الله بن نافع قال : كان مالك يقول : الإيمان قول وعمل . حدثنى أبى قال حدثنا ابن شماس قال وسئل فضيل ابن عياض وأنا أسمع عن الإيمان فقال : الإيمان عندنا داخله وخارجه الإقرار باللسان والقبول بالقلب والعمل به حدثنى أبى قال سمعت يحيى بن سعيد يقول : الإيمان قول وعمل . حدثنى أبى قال حدثنا أبو سلمة الخزاعى قال : قال مالك وشريك وأبو بكر بن عياش وعبد العزيز ابن أبى سلمة وحماد بن سلمة وحماد بن زيد : الإيمان المعرفة والإقرار والعمل . حدثنى أبى قال حدثنى إبراهيم بن شماس قال سمعت بن المبارك وجرير بن عبد الحميد ويحيى بن سليم والنضر بن شميل وبقية بن الوليد وأبو إسحاق الفزارى وإسماعيل بن عياش قالوا : الإيمان قول وعمل .

باب ذكر خروج أبى عبد الله

فى المرة الأولى إلى سامرا وإشخاص المتوكل له

أخبرنا الخلدى قال حدثنا عبد الله الاسفرانى قال سمعت أبا الفضل يقول : وجه المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم يأمره بحمل أبى إلى العسكر قال : فوجّه إسحاق إلى أبى فقال : إن أمير المؤمنين قد كتب إلى يأمرنى بإشخاصك إليه فتأهب لذلك قال أبى : فقال لى إسحاق بن إبراهيم اجعلنى فى حل فقلت : قد جعلتك وكل من حضر فى حِل . قال أبى فقال لى إسحاق أسألك عن القرآن مسألة مسترشد لا مسألة امتحان ، وليكن ذلك عندك مستوراً ما تقول فى القرآن قال أبى فقلت : القرآن كلام الله ليس بمخلوق قال فقال لى من أين قلت غير مخلوق ؟ قال أبى فقلت له . قال الله تبارك وتعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ففرق بين الخلق والأمر فقال إسحاق : الأمر

مخلوق فقال أبى فقلت له : ياإسحاق إن الله الخالق يخلق خلقاً . قال : أبى فقال لى : وعن من تحكى أنه ليس بمخلوق قال فقلت جعفر بن محمد قال : ليس بخالق ولا مخلوق قال فسكت .

قال أبى : فلما كانت الليلة الثانية وجه إلى : ما تقول فى الخروج ؟ فقلت : ذلك إليك فقال : الذى حكيت هو عن محمد بن الحنفية .
فقلت : لا حكيت عن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب قال : فسكت .

قال أبو الفضل : ثم اخرج أبى حتى إذا صرنا بموضع يقال له بصرى بات أبى فى مسجد ونحن معه فلما كان فى جوف الليل جاءه النيسابورى فقال : يقول لك الأمير ارجع فقلت له يا أبه أرجو أن يكون فيه خيره فقال : لم أزل الليلة ادعوا الله . وكتب المتوكل إلى إسحاق يأمره أن يسأل أبى عن المطبوخ فوجه إليه إسحاق فكتب إليه إنما جاء فى الحديث ما ذهب ثلثاه وبقى ثلثه .

تم الجزء الأول والحمد لله وحده

يتلوه الجزء الثانى

ذكر ورود كتاب المتوكل إلى عبد الله بن إسحاق
فى سبب العلوى الذى طلبه

أخبرنا الأستاذ الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى رضى الله عنه قراءة عليه قدم علينا دمشق فى رجب من سنة اثنين وثلاثين واربعمائة قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدى رضى الله عنه

قال أخبرنا أبو بكر عبـد الله بن محمد الاسفرانى قال : سمعت أبا الفضل صالحا بن أحمد يقول : لمـا توفى إسحاق بن إبراهيم وولى ابنه محمد عبد الله ابن إسحاق كتب المتوكل إليه أن وجه إلى أحمد بن حنبل إن عندك طِلبَةَ أمير المؤمنين فوجه بحاجبـه مظفر وحضر صاحب البريد وكان يعرف بابن الكلبى وكتب إليه أيضا قال مظفر يقول لك : الأمير قد كتب إلىّ أمير المؤمنين ان عندك طِلَبَتَه وقال له ابن الكلبى مثل ذلك وكان قد نام النـاس . فدق البـاب وكان على أبى إزار ففتح لهم الباب وقعدوا على بارية ومعهم شىء فلما قرئ عليه الكتاب فقال لهم أبى : ما أعرف هذا وإنى لأرى طاعته فى العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة وإنى لآسف عن تخلفى عن الصلاة جماعة وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين .

قال أبو الفضل : وقد كان [ابن] إسحـاق بن إبراهيم وجه إلى أبى إلزم بيتك ولا تخرج إلى جمعة ، ولا إلى جماعة ، وإلا نزل ما نزل بك فى أيام أبى إسحاق قال ابن الكلبى قد أمرنى أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته فتحلف ؟ قال : إن استحلفنى حلفت فاحلفـه بالله وبالطلاق إن ما عندك طلبة أمير المؤمنين وكانوا أملوا أن عنده علويا ثم قال له أريد أن أفتش منزلك قال أبو الفضل : وكنت حاضراً فقالوا ومنزل ابنك فقام مظفر وابن الكلبى وامرأتان معهما فدخلا ففتشا البيت ، ثم فتش المرأتان النساء قال أبو الفضل : ثم دخلوا إلى منزلى ففتشوه ودلوا شمعة فى البئر فنظروا ووجهوا بالنسوة ففتشوا الحروم ثم خرجوا ، فلما كان بعد يومين ورد كتـاب على بن الجهم : إن أمير المؤمنين قد صح عنـده براءتك ممـا قرِفْتَ به وقد كان أهل البدع قد مدوا أعينهم فالحمد لله الذى

لم يشمتهم بك ، وقد وجه إليك أمير المؤمنين بيعقوب المعروف بقوصرة ومعه جائزة ، ويأمرك بالخروج . فالله الله أَن تستعفى أَو ترد المال .

باب ذكر ورود كتاب المتوكل إلى أبى

ومعه الجائزة وبإشخاصه إلى العسكر

قال أبو الفضل : ثم ورد من الغد يعقوب قوصرة فدخل إلى أبى فقال له : يا أبا عبد الله أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول قد صح عندنا نقاء ساحتك ، وقد أحببت أن أسَرَّ بقربك وأتبرك بدعائك ، وقد وجهت إليك عشرة آلاف درهم معوضة على سفرك والسلام ، وأخرج بدرة فيها صرة نحو من مائتى دينار والباقى دراهم صحاح فلم ينظر إليها ثم شدها يعقوب وقال له : أعود غداً حتى أنظر ما يعزم عليه وقال له : يا أبا عبد الله الحمد لله الذى لم يشمت بك أهل البدع وانصرف فجىء بإجانة خضراء أكبها على البدرة فلما كان عند المغرب قال : يا صالح خذ هذا صره عندك فصريتها عند رأسى فوق البيت ؛ فلما كان سحراً إذا هو ينادى : يا صالح فقمت فصعدت إليه فقال : يا صالح ما نمت ليلتى هذه ! فقلت له يا أبه لم ؟ فجعل يبكى وقال سلمت من هؤلاء حتى إذا كان فى آخر عمرى بُليت بهم ! قد عزمت على أن تفرق هذا الشىء إذا أصبحت فقلت : ذلك إليك . فلما أصبح جاءه الحسن بن البزاز فقال : ياصالح جئنى بميزان وجهوا إلى أبناء المهاجرين والأنصار ثم قال وجِّه إلى فلان حتى يفرق فى ناحيته وإلى فلان فلم يزل حتى فرقها كلها ونفض الكيس ونحن فى حال الله به أعلم فجاءنى ابن لى فقال له : يا أبه أعطنى درهما فنظر إلى فأخرجت قطعة [و] أعطيته فكتب صاحب البريد أن تصدق بالدراهم من يومه حتى تصدق بالكيس قال

على بن الجهم ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين قد تصدق بها وعلم الناس أنه قد قبل منك . ما يصنع أحمد بالمال ؟ وإنما قوته رغيف قال : فقال لى : صدقت يا على .

باب مسير أبى عبد الله إلى العسكر

قال أبو الفضل : ثم أخرج أبى رحمه الله ليلا ومعنا حراس معهم النفاطات فلما أصبح وأضاء الفجر قال لى يا صالح : معك دراهم ؟ قلت نعم . قال : أعطهم فأعطيتهم درهماً درهماً فلما أصبحنا جعل يعقوب يسير معه فقال له : يا عبد الله : ابن البلخى بلغنى أنه كان يذكرك فقال له يا أبا يوسف نسأل الله العافية . فقال له يا عبد الله يريد أن يؤدى عنك فيه رسالة إلى أمير المؤمنين فسكت فقال له إن عبد الله بن إسحاق أخبرنى أن الوابض قال له إنى أشهد عليه أنه قال إن أحمد يعودنى فقال يا أبا يوسف يكفى الله فغضب يعقوب فالتفت إلى فقال ما رأيت أعجب مما نحن فيه أسأله أن يطلق لى كلمة . أخبر أمير المؤمنين : فلا يفعل قال أبو الفضل : وقصر الصلاة فى خروجه إلى العسكر وقال تقصر الصلاة فى أربعة بُرُد وهى ستة عشر فرسخاً فصليت يوماً به فقال لى طولت بنا العصر تقرأ فى الركعة مقدار خمس عشرة آية وكنت أصلى به فى العسكر قال أبو الفضل : فلما صرنا بين الحائطين قال لنا يعقوب أقيموا ، ثم وجه إلى المتوكل بما عمل فدخلنا العسكر وأبى منكس الرأس ورأسه مغطى فقال له يعقوب : اكشف رأسك يا أبا عبد الله فكشفه ثم جاء وصيف يريد الدار فلما نظر إلى الناس وجمعهم قال ما هؤلاء قالوا أحمد بن حنبل فوجه إليه بعد ما جاز بيحيى بن هرثمة فقال

يقرأك الأمير السلام ويقول الحمد لله الذى لم يشمت بك أهل البدع .
قد علمت ما كان من حال ابن أبى دواد فينبغى أن تتكلم بما يحب الله
ومضى يحي .

باب مقام أبى عبد الله فى العسكر

قال أبو الفضل إنزل أبى دار تياح ، فجاء على بن الجهم فقال :
قد أمر لكم أمير المؤمنين بعشرة آلاف مكان تلك التى فرقها وأمر أن
لا يعلم شيخكم بذلك فيغتم ، ثم جاء محمد بن معاوية فقال : إن أمير المؤمنين
يكثر ذكرك ويقول تقيم ها هنا تحدث . فقال أنا ضعيف ! ثم وضع إصبعه
على بعض أسنانه فقال إن بعض أسنانى يتحرك وما أخبرت بذلك ولدى
ثم وجه إليه وقال ما تقول فى بهيمتين انتطحتا فعقرت إحداهما الأخرى
فسقط فذبح ؟ فقال إن كان أطرف بعينيه ومصع بذنبه [و] سال دمه
يؤكل . قال أبو الفضل : ثم صار إليه يحي بن خاقان فقال . يا أبا عبد الله
قد أمر أمير المؤمنين أن أصير إليك لتركب إلى أمير المؤمنين ، ثم قال لى
قد أمرنى أن أقطع له سوداً وطيلسان وقلنسوة فأى قلنسوة يلبس فقلت
ما رأيته لبس قلنسوة قط . فقال له أمير المؤمنين قد أمرنى أن يعيد إليك
مرتبة فى أعلى المراتب ويصير أبو عبد الله فى حجرك ثم قال لى قد أمرنى
أمير المؤمنين أن يجرى عليكم وعلى قراباته أربعة آلاف درهم تفرقها عليهم
ثم عاد يحي فى الغد فقال : يا أبا عبد الله تركب قال ذاك إليكم قال أستخير الله
فلبس إزاره وخفيه وقد كان خفه قد أتى عنده نحو من خمس عشرة سنة
قد رقع برقاع عنده فأشار يحي إلى أن يلبس قلنسوة فقال : ماله قلنسوة

فقال كيف يدخل عليه حاسراً ويحي قائم فطلبنا له دابة يركبها فقال يحي فجلس على التراب وقال : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) ثم ركب بغل بعض التجار فمضينا معه حتى أدخل دار المعتز فاجلس فى بيت فى الدهليز ثم جاء يحي فأخذ بيده حتى أدخله ورفع لنا الستر ونحن ننظر وكان قاعد على دكان فى الدار وكان قد تقدم يحي إليه فقال لا تمد يدك إليه فلما صعد الدكان قعد فقال له يحي يا أبا عبد الله إن أمير المؤمنين جاء بك ليأنس بقربك يصير أبو عبد الله فى حجرك فأخبرنى بعض الخدم أن المتوكل كان قاعداً وراء الستر ، فلما دخل إلى الدار قال لأمه يا أمه قد أنارت الدار ثم جاءنا خادم بمناديل فأخذ يحي المنديل وأخرج منه مبطنة فيها قميص فأدخل يده فى جيب القميص والمبطنة ثم أخذ بيد أبى فأقامه ثم أدخل جيب القميص والمبطنة فى رأسه ثم أدخل يده وأخرج يده اليمنى وكذلك اليسرى وهو لا يحرك يده ثم أخذ قلنسوة ووضعها على رأسه وألبسه طيلسان ولحفه به ولم يجيئوا بخف فبقى الخف عليه ثم انصرف وكانوا قد تحدثوا أنه يخلع عليه سواد فلما صار إلى الدار نزع الثياب عنه ثم جعل يبكى ، ثم قال سلمت من هؤلاء من ستين سنة حتى إذا كان فى آخر عمرى بليت بهم . ما أحسبنى سلمت من دخولى على هذا الغلام فكيف بمن يجب على نصحه من وقت يقع عينى عليه إلى أن أخرج من عنده .

ثم قال : يا صالح وجه بهذه الثياب إلى بغداد تباع ، ويتصدق بثمنها ولا يشترى أحد منكم منها شىء قال أبو الفضل : فوجهت بها إلى يعقوب ابن بختان فباعها وفرق ثمنها وبقيت عندى القلنسوة ، ثم أخبرنا أن الدار التى هو فيها لتياخ فقال : اكتب رقعة إلى محمد بن الجراح ليستعفى لى

من هذه الدار فكتب رقعة فأمر المتوكل أن يعفى منها ووجه إلى قوم ليخرجوا من منازلهم فسأل أن يعفى من ذلك واكتريت له دار بمائتى درهم فصار إليها واجرى لنا مائدة وثلج وضرب الخيش وفرش الطبرى فلما رأى الخيش والطبرى نَحَّى نفسه عن ذلك الموضع وألقى نفسه على مضربة له .

واشتكت عينه وبرئت فقال لى ألا تعجب ؟ كانت عينى تشتكى فتمكث حيناً حتى تبرأ ثم قد برأت عينى فى سرعة ! وجعل يواصل ، يفطر فى كل ثلاث ثم جعل بعد ذلك يفطر ليلة وليلة لا يفطر إلا على رغيف وكان إذا جىء بالمائدة توضع فى الدهليز لكى لا يراها فيأكل من حضر وكان إذا جهده الحر بلَّ خرقة فيضعها على صدره وفى كل يوم يوجه إليه بابن ناسويه فينظر إليه ويقول له : يا أبا عبد الله أنا أميل إليك وإلى أصحابك وما بك علة إلا الضعف وقلة المدد . فقال له ابن ناسويه إنا ربما أمرنا عبادنا بأكل دهن الخل فإنه يلين وجعل يجيئه بالشىء يشربه فيصبه وقطع له يحيى دراعه وطيلسان سواد وجعل يعقوب وعتاب يصيران إليه فيقولان له يقول لك أمير المؤمنين ما تقول فى ابن أبى دواد فى ماله فلا يجيب فى ذلك وجعل يعقوب وعتاب يخبرانه بما يحدث من أمر ابن أبى دواد فى كل يوم ثم انحدر ابن أبى دواد إلى بغداد بعد فاشهد عليه ببيع ضياعه وكان ربما صار إليه يحيى بن خاقان وهو يصلى فيجلس فى الدهليز حتى يفرغ ويجىء على بن الجهم : فينزع سيفه وقلنسوته ويدخل عليه وأمر المتوكل أن يشترى لنا دار فقال يا صالح قلت لبيك قال لأن أقررت لهم بشراء دار لتكون القطيعة بينى وبينكم .

تمت

وبذلك انتهت المخطوطة كما وصلت إلينا . وأكبر ظنى أن للمخطوطة بقية لم تصل إلينا .

ولكنها على أى حال أفادتنا معلومات ، وزودتنا بأخبار ثقات .

ولقد كان كثير من التعبيرات يحتاج إلى إعراب وإفصاح ، وشرح وإيضاح . وأعجلنا عن ذلك كما قلنا ضيق المجال ، وطول المقال .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

ذى القعدة سنة ١٣٨٠ هـ   الموافق إبريل سنة ١٩٦١ م

استدراكات

(١) فاتنا أن نفسر العُقابين فى أثناء الكتاب ، وهما خشبتان . يوضع الرجل بينهما عند تنفيذ عقوبة « الجلد » .

(٢) إحصاء أحاديث المسند ، الذى ذكرناه إحصاء تقريبى لتفاوت أرقام العادين له من القدماء والمحدثين ، فبينما ذكرها ابن النديم بنيف وأربعين ألفا ، إذ ذكر ابن خلدون أن الأحاديث خمسون ألفاً . وقال جولد تسهير عنها إنها ثلاثون ألفاً ، ثم ذكرها بعد ذلك ثمانية وعشرين ألفاً ، أو تسعة وعشرين .

وكان الأستاذ أحمد محمد شاكر ، قد قام بترقيم أحاديث المسند ولم يصل الترقيم إلى النهاية .

(٣) لايخلو كتاب مطبوع فى هذه الأيام من أخطاء مطبعية ، ونحن لم نسجل هذه الأخطاء اعتماداً على وعى القارئ .

(٤) سنتدارك فى الطبعة الثانية إن شاء الله ماقصرنا فيه فى الطبعة الأولى .

والله ولى التوفيق ؟

المراجع الهامة

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ . ج ٩

(٢) طبقات الشافعية الكبرى : لأبى نصر تاج الدين عبد الوهاب ابن تقى الدين السبكى ج ١

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . ج ٤

(٤) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ ج ٢

(٥) تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ج ١٠ ، ١١

(٦) تهذيب الأسماء واللغات للنووى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ج ١

(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ

(٨) الملل والنحل للشهرستانى تحقيق الأستاذ فتح الله بدران .

(٩) الفهرست لابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ

(١٠) تاريخ الخلفاء للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ

(١١) رسالة الجاحظ فى خلق القرآن المنشورة على هامش الكامل للمبرد .

(١٢) ذكر محنة أحمد بن حنبل — بقلم حنبل بن إسحاق بن حنبل وهى مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(١٣) مقالات الإسلاميين للأشعرى

(١٤) التبصير فى الدين لأبى المظفر الاسفراييني المتوفى سنة ٤٧١ هـ

(١٥) مناقب أحمد لأبى الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

(١٦) ضحى الإسلام ج ٣ للدكتور أحمد أمين .

(١٧) جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين لابن الألوسى البغدادى

(١٨) أحمد بن حنبل والمحنة للمستشرق باتون ، ترجمة الاستاذ عبد العزيز عبد الحق .

(١٩) أحمد بن حنبل ، حياته وعصره ، لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ أبو زهرة .

وهناك مراجع هامة أخرى ، ولكنها غير أصيلة فى البحث فلم نذكرها .

كتب للمؤلف

١ — المنهاج الإشتراكى على ضوء الإسلام — فى ٢٠٠ صفحة

٢ — صلاح الدين الأيوبى — فى ٢٠٠ صفحة

٣ — السعادة الزوجية فى الإسلام — فى ٢٠٠ صفحة

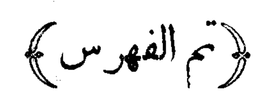
٤ — الدين والإنسان — فى ١٤٤ صفحة

٥ — أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا — فى ٣٠٤ صفحة

تحت الطبع

الاتحافات الربانية ، بشرح الشمايل المحمدية : للإمام الترمذى

فهرس الكتاب


تم الفهرس

